

أقربنا العصور الوسطى

الجزء الثاني

النظم بحضارة

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عابدين

مدرس تاريخ العمود الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٥٩

مكتبة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية
شارع عدلي بالناصرة

أقربنا العصور الوسطى

المجلد الثاني

النظم والحضارة

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عايشور

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٥٩

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى بالقاهرة

مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَسْكِينُ
وَالْمَسْكِينُ وَالْمَسْكِينُ

مقدمة الكتاب

وردت في صدر الجزء الأول

الباب الأول

النظم الديني

البابوية ونظمها :

من الثابت أن الفوارق التي يعرفها العالم الحديث بين السلطتين الزمنية والدينية لم يكن لها وجود في أوربا العصور الوسطى . فالناس في تلك العصور لم يعتبروا الكنيسة والدولة هيئتين متعارضتين ، لأنهم لم يعرفوا سوى مجتمع سياسى واحد ، هو المجتمع المسيحى . حقيقة إن هناك قوتين أو سلطتين تتوليان حكم هذا المجتمع ، ولكنهما كانتا تحكما مجموعة واحدة من الناس يربطهم جميعا رباط المسيحية الغربية^(١) .

ونجد خير مصداق لهذه الفكرة فيما كانت عليه البابوية في العصور الوسطى :-
ذلك أن الكنيسة الغربية وجدت في جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها في السمو^(٢) . وهكذا أصبح البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية ، ومنصدر ولايتها والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها . ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ . هذا فضلا عن كون البابا نائب المسيح ، لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة . فالبابا خليفة القديس بطرس في كرسيه الأسقفى بروما ، وهذا الأخير زعيم الحوارين ومقدم الرسل الذى اتخذ المسيح أساسا بنى عليه كنيسته^(٣) . وبعبارة أخرى فإن البابوية وجدت سندا قويا في قول

(1) Fyfe : European Civilisation; p. p. 201 - 202 .

(2) Powicke : The Legacy of the Middle Ages; p. 48.

(3) Howell-Smith : Thou Art Peter ; p. 581.

المسيح للقديس بطرس « وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة
أبني كنيتي ، وأبواب الجحيم لن تقوي عليها ؛ وأعطيتك مفاتيح ملكوت
السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السموات ، وكل
ما تحمله على الأرض يكون محلولاً في السموات ^(١) ! » .

لذلك لا عجب أن أصبح البابا -- وهو خليفة القديس بطرس -- رأس
الجهاز السياسي في أوربا العصور الوسطى ، حتى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير
الأمراء . ومن هنا أخذت البابوية تنظم سيادتها على أسس أقطاعية فعالة ، مما
جعل التطابق محكما بين الكنيسة والجهاز السياسي في غرب أوربا . وقد سبق أن
أشرنا إلى نمو البابوية في أوائل العصور الوسطى ^(٢) ، حتى جاء سقوط الإمبراطورية
الغربية في القرن الخامس ليحل منها القوة الوحيدة في غرب أوربا التي تستطيع
حماية التراث الروماني وسط الفوضى التي عمت أوربا حينئذ . ذلك أن البابا
جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) أخذ يعمل على تقوية نفوذ البابوية
السياسي ، ويجعل هذا النفوذ حقيقة مأموسة في مختلف بلاد الغرب بل الشرق
المسيحي ^(٣) . وقد تجمعت عدة عوامل لتساعد البابوية على الاستمرار في تنفيذ
هذه السياسة ، أهمها الظروف التي سادت إيطاليا من جهة ، وانصراف الإمبراطورية
البيزنطية إلى مشاكلها الشرقية من جهة أخرى ، مما جعل عبء حماية إيطاليا
وحضارتها يقع على كاهل البابوية وحدها ^(٤) . ثم جاء الانشقاق المذهبي والسياسي
بين الشرق والغرب ، وهو الانشقاق الذي بدت مظاهره واضحة في الجدل حول
مشكلة اللايقونية ، وفي التفاف الشعوب الغربية تدريجيا حول البابوية لتقف
موقفا سياسيا مضادا للإمبراطورية الشرقية ، ثم في إحياء الإمبراطورية الغربية

(١) إنجيل متى -- الإنجيل السادس عشر ، ١٨ - ١٩ .

(٢) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢ - ٤٦ .

(3) Ullmann : The Growth of Papal Government : p. p. 36-40.

(4) Eyre : op. cit., 202.

على عهد شارلمان . وسرعان ما اتضح مرة أخرى في العصر المظلم الذى أعقب تقسيم امبراطورية شارلمان أن بقاء الحضارة الغربية واستمرارها بات متوقفاً على الإصلاح الكنسى ، وأن هذا الإصلاح يتوقف بدوره على قيام سلطة كنسية مركزية قوية تستطيع الصمود في وجه السلطة الزمنية ومناضاتها من أجل الاعتراف بسمو الكنيسة وسيادتها^(١) . وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة في تاريخها في النصف الثاني من القرن الحادى عشر ، وهو العصر الذى يعرف بعصر البابا جريجورى السابع ، أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣ — ١٠٨٥) . ذلك أن جريجورى السابع وقف من الإمبراطورية موقفاً عنيداً لجبارها على الاعتراف بسمو البابوية وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية^(٢) .

وقد أدت هذه السياسة . . كما رأينا — إلى دخول البابوية في صراع طويل ضد السلطة الزمنية^(٣) . وفي هذا الصراع استعمل جريجورى السابع سلاحين روحيين على جانب كبير من الخطورة . حقيقة إن هذين السلاحين لم يكونا جديدين على الكنيسة ، ولكن جريجورى السابع استخدمهما في عنف وقوة وبطريقة فعالة . أما السلاح الأول فهو توقيع عقوبة الحرمان (القطع — الشلح) بطريقة فردية شخصية ، أى ضد فرد معين مقصود بالذات (Excommunication)؛ وعندئذ يصبح هذا الشخص منبوذاً مطروداً من المجتمع المسيحى (societas christiana) ، فلا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التعامل معه سوى زوجته وأولاده^(٤) . وأما السلاح الثانى فهو عقوبة الحرمان الإجتماعى (Interdict) التى توقع على مجتمع بأكمله ، سواء كان هذا المجتمع مدينة أو إقليماً أو مملكة بأسرها ؛ وفي هذه الحالة تغلق الكنائس أبوابها في ذلك المجتمع ويضرب رجالها عن تأدية

(1) Idem : p. 207.

(2) Cam. Med. Hist. , vol. 6: p. p. 650-651.

(٣) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣١٨ وما بعدها .

(4) Ullmann : The Growth of Papal Government : p. p. 99 - 800.

أعمالهم فلا يجد الناس أحدا يقضى مصالحهم المرتبطة بالكنيسة كمراسم التعميد والزواج والشعائر الجنائزية ، فضلا عن انقطاع الروابط التي تربط ذلك المجتمع ببقية العالم المسيحي^(١) .

ولم يلبث نجاح هادبراند في برنامجه الإصلاحى أن أدى إلى تحقيق أغراض البابوية في الهيمنة على الكنيسة الغربية^(٢) ، بحيث أن المهمة الرئيسية للبابوية بعد هذا النجاح انحصرت في تنظيم شئون البابوية والكنيسة جميعا ؛ حتى وصف تاريخ البابوية فيما بين منتصف القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر بأنه «عملية لتحقيق الارتباط والنظام والسيطرة المركزية داخل الكنيسة» . و بعبارة أخرى فإن جهاد الكنيسة في سبيل تحقيق سموها جاء مصحوبا بـ بحركة أخرى داخلية ترمى إلى تدعيم مركز البابا ونفوذه داخل الكنيسة . وكان لهذا الاتجاه الأخير عدته ظاهرا أساسية أولها إصرار البابوية على مكاتبها الخاصة داخل الجهاز الكنسى بوصفها المرجع الوحيد في شرح أصول العقيدة ، وثانيها ، والتنظيم الكنسى الإقليمى ليحد من سلطان الملكبة والأمراء الاقطاعيين وتدخلهم في شئون الكنيسة^(٣) . والواقع أنه كان لابد من نمو هذا التنظيم بعد أن أقام شارلمان إمبراطوريته على أساس ثيوقراطية يعصم للدولة السيطرة على الكنيسة ورجالها ، مما هدد نفوذ البابوية وحفها في الهيمنة على الكنيسة تهديدا خطيرا^(٤) . وهنا نجد البابوية تنجح تدريجيا في جعل الإقليم — لا المملكة — الوحدة الأساسية في التنظيم الكنسى ، كما نجحت أيضا — بعد متاعب مضمّنية وجهود طويلة — في إخضاع رؤساء الأساقفة في الأقاليم لسلطان البابوية المطاق^(٥) . وبذلك تحققت سيادة البابوية على الكنيسة في غرب أوربا عند نهاية القرن الثانى عشر في صورة لا تقبل شكاً أو جدلا^(٦) .

(1) Howell-Smith : op. cit ; p. 632.

(2) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 262, 296-297

(3) Cam. Med. Hist., vol 6, p. p. 553-554.

(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. p. 87-118;

(5) Cam. Med. Hist, p. 557.

(6) Eyre: op. cit., p. 204.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نؤكد أن ما وصلت إليه البابوية على عهد انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) من مركز سام ، وتنظيمات خاصة بالبلاط البابوي ، وسياسة مرسومة ثابتة تجاه السلطة الزمنية ، وسيطرة نافذة على الهيئات الدينية ؛ كل ذلك جاء ثمرة خبرات وتجارب طويلة لا يمكن إدراكها إلا بدراسة تاريخ البابوية ؛ وإن كانت هذه الدراسة تعنى فى الواقع دراسة تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى^(١) . والواقع أن المكانة الخاصة الممتازة التى تتمتع بها البابوية داخل الكنيسة انعكست صورتها بوضوح فيما أصبح لها من نفوذ سياسى ، لأن الكنيسة الرومانية لم تكن فى العصور الوسطى هيئة دينية فحسب بل سياسية أيضا^(٢) . وحسب البابا أنه اعتبر نفسه نائب المسيح « Vicar of Christ » ؛ وعلى أساس هذه العقيدة أصبح هدفه الأعلى أن يجعل من العالم المسيحى مملكة يتولى هو حكمها وزعامتها . وإذا كان البابا قد أخذ يعامل ملوك أوروبا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها^(٣) ، فانه من الواضح أن معنى هذه الفكرة ادخال غرب أوروبا بأسره داخل نطاق الكنيسة مما اكسب الحكومة البابوية أهمية خاصة عند نهاية القرن الثانى عشر . فالبابا لم يكتف حينئذ باعتبار نفسه زعيما لهيئة مستقلة ممتازة من رجال الكهنوت ، وإنما اعتبر نفسه رأس العالم المسيحى بأكمله ، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوروبا ، زيادة على الهيئات الدينية^(٤) .

وكان البابا يعيش فى بلاط أشبه شئ ببلاط الملوك والأباطرة ، ولكنه كان زعيما دينا ملكيا sacerdos regalis ، تحيط به جميع مظاهر العظمة والفخامة من موظفين وأمناء وألقاب^(٥) . ولم يلبث أن أصبح البلاط البابوي مركزا لجهاز ضخم

(1) Powicke: The Legacy, P. 52.

(2) Howell-Smith: op. cit, p. 741.

(3) Ullmann : The Growth of Papal Government., p. p. 426-431.

(4) Can. Med. Hist., vol. 6, p. p. 4-5, 34.

(5) Ullmann : The Growth of Papal Government., p. 325.

مهمته تنفيذ أطماع البابوية وسياستها ، هذا إلى أن البابا عبر عن سيادته بالاكتثار من إرسال بعثات من المندوبين البابويين (Legati Missi) إلى مختلف أنحاء الغرب الأوربي^(١). وكان هؤلاء المندوبون على جانب كبير من الأهمية في العصور الوسطى إذ يعتقدون مجامع كنسية إقليمية في الجهات التي يقصدونها^(٢) ، ويفصلون في القضايا الخطيرة التي تستأنف أمامهم بحيث لا يستعليح أحد — سوى البابا نفسه — أن ينقض قراراتهم^(٣).

أما المحكمة البابوية فقد غدت على عهد البابا انوسنت الثالث بمثابة هيئة قضائية عليا تنظر في جميع القضايا المعروضة عليهما من مختلف أنحاء الغرب الأوربي^(٤). وقد أخذ عدد القضايا المستأنفة أمام المحكمة البابوية في ازدياد ، حتى أصبح من الأمور العادية منذ نهاية القرن الثاني عشر أن تستأنف أحكام المحاكم الكنسية الإقليمية أمام المحكمة البابوية^(٥). وفي أغلب هذه الأحوال ، كان البابا — يساعده بعض الكرادلة — ينظر بنفسه في القضية ، وإن كان في حالات خاصة يخول القضايا إلى بعض كبار رجال الدين في البلد الذي أتت منه القضية . وسرعان ما أدى هذا النشاط القضائي إلى اتساع أفق القانون الكنسي وظهور فئة من القانونيين في البلاط البابوي ليستشيرهم البابا ويبنى أحكامه على آرائهم^(٦).

ولما كان تنفيذ سياسة البابوية الواسعة المدى يتطلب وجود جهاز إداري مركزي دقيق ، فإن الديوان البابوي سرعان ما أصبح أعظم جهاز إداري عرفته العصور الوسطى^(٧). ذلك أن الحكومة البابوية أخذت تتطور تطوراً بطيئاً

(١) Ibid : p. ٢٩.

(٢) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 40.

(٣) Howell-Smith : op. cit. p. 749

(٤) Tyre : op. cit., p. 205

(٥) Cam. Med. Hist., vol. 6; p. 34.

(٦) Ullmann : The Growth of Papal Government , p. 359-361

(٧) Powicke : The Legacy of the Middle ages ; p. 54.

تدرّجياً، حتى ظهر نوع من التخصص في البلاط البابوي ، بمعنى قيام هيئات وجماعات من الموظفين اختص كل منهم بعمل إداري معين^(١) ..

وكانت الأوامر والقرارات واللوائح البابوية تصدر عادة في صورة مراسيم تكتب دائماً باللاتينية ، وعلى رقائق كبيرة المساحة ، على أن يبدأ المرسوم البابوي بعبارة « الأسقف (فلان) خادم خدام الله . . . »^(٢) . وقد انقسمت هذه المراسيم على عهد البابا أنوسنت الثالث إلى قسمين : المراسيم الكبرى *Great Bulls* والمراسيم الصغرى *Little Bulls* . أما الأولى فكانت وثائق رسمية ذات طابع معين ثابت وسميات خاصة لا تتغير ، وتحتوي توقيع البابا ورمزه أو شعاره ، زيادة على توقعات عدد معين من الكرادلة . وتطلبت أهمية هذه المراسيم أن يوكل بإعدادها إلى موظفين مختصين في الديوان البابوي امتازوا بالمهارة والدقة والكفاية^(٣) . ذلك أن صياغة المرسوم البابوي وإنشاءه كانت تتم وفق قواعد دقيقة تحدد أسلوبه وألفاظه وخطه والكيفية التي يختم بها^(٤) ؛ بحيث أصبح من السهل على كتبة الديوان البابوي أن يستكشفوا تزوير أية وثيقة بابوية لا تتوافر فيها القواعد السابقة . هذا فضلاً عن أن الرسائل التي صدرت عن الديوان البابوي كانت تنسخ من صورتين لتحتفظ إحداها في أرشيف الكنيسة الرومانية^(٥) . وهكذا يمكن بدراسة الوثائق والمراسيم البابوية التي ترجع إلى نهاية القرن الثاني عشر الوقوف على حقيقة هامة ، هي أن البلاط البابوي تمسك حينئذ بقواعد الديبلوماسية والمظاهر القانونية ، وهو اتجاه لم يكن له مثيل في أي مكان آخر بأوروبا في ذلك العصر .

(١) Cam. Med. Hist. ; vol 6 ; p 32.

(٢) Howell-Smith ; op. cit , 751.

(٣) Ullmann ; op. cit , p p. 327-328.

(٤) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 32.31.

(٥) Howell-Smith ; op. cit., p. 758

وقد وجدت بالبلاط البابوي إدارة مالية قائمة بذاتها للنظر في شئون الإيرادات والمصروفات^(١). أما عن الإيرادات فكانت هناك عدة موارد تغذى الإدارة البابوية بالأموال اللازمة. أولاها الممتلكات الراسعة في إيطاليا التي حرص حكام الفرنجة منذ شارل مارتل حتى شارلمان على تثبيت حقوق البابوية فيها ومساعدتها في الدفاع عنها وبخاصة ضد اللبارديين^(٢). ومن الواضح أن هذه الممتلكات هيأت للبابوية دخلا ثابتا جعلها من الناحية العملية في غنى عن أى حاكم علماني. وفي نفس الوقت أحرزت البابوية حقوقا إقطاعية واسعة عادت عليها عند نهاية القرن الثاني عشر بدخل كبير منتظم. ذلك أنه وجد في ذلك العصر عدد كبير من الأفراد والمؤسسات التي دانت للبابوية بضرائب معينة^(٣)، مثل بعض المؤسسات الكنسية والديرة التي أحاطت بها ظروف صعبة جعلتها تدخل تحت حماية البابوية مباشرة مقابل دفع إتاوة منتظمة. بالديتو كما كان الحال بشأن الضرائب الإقطاعية التي كان يدفعها الأتقان للسيد الإقطاعي مقابل حمايتهم والذود عنهم^(٤). على أن هذه التبعية الإقطاعية للبابوية لم تقتصر على المؤسسات والهيئات الدينية وإنما امتدت في العصور الوسطى إلى بعض الحكام العلمانيين. ففقر من الأسراء والملوك من أحس بضعفه وحاجته إلى حماية البابوية. فسلم أراضيهم وممتلكاته للبابوية على أن يعود فيتسلمها من البابا كإقطاع. وفي هذه الحالة يصبح الأمير فصلا إقطاعيا للبابا يتمتع بحمايته مقابل بعض الالتزامات الإقطاعية التي يؤديها الفصل لسيد^(٥). هذا عدا الضرائب التي كانت تجمعها البابوية من بعض الأديرة نظير تبريرها من ولاية الأسقفية التي يقع الدير ضمن دائرتها، أو تجمعها من بعض الأسقفيات مقابل تبريرها من ولاية رئيس الأساقفة الذي

(1) Kyrle : op. cit., p. 105

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 334

(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, 554

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 298

(5) Ullmann : The Growth of Papal Government : p. p. 332-334.

تقع الأسقفية داخل منطقة نفوذ. وهكذا صار للبابوية إيراد ضخم من هذه الموارد المختلفة ، الأمر الذي تطلب سنة ١١٩٢ تعيين مسجل خاص للخزانة البابوية ، لحصر مختلف الهيئات التي تدانها البابوية بضرائب منتظمة في كافة بلدان غرب أوربا مثل أبوليا وصقلية والبرتغال وبولندا وإنجلترا وغيرها ؛ وبيان المبلغ المستحق على كل منها^(١).

وبالإضافة إلى هذه الضرائب التي يمكن إدخالها جميعاً تحت اسم « الدخل الخاص » ، كان للبابوية مورد عام ضخم على عهد البابا انوسنت الثالث ، هي الضرائب التي اشترك في دفعها العالم المسيحي الغربي بوجه عام^(٢) . وكانت هذه الضرائب مرتبطة في تطورها بالحروب الصليبية بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبي^(٣) . وقد أدى تطور هذه الفكرة إلى خطوة جديدة عند ما أصدر البابا انوسنت الثالث أمراً سنة ١١٩٩ إلى جميع الأساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية نسبة معينة تبلغ جزءاً من أربعين (¼) من دخل الأسقفية السنوي المتحصل من جميع ممتلكاتها وإقطاعاتها . هذا غير الضرائب الأخرى التي أخذت البابوية في جمعها عن طريق مباشر عند تعيين الأساقفة وغيرهم من كبار رجال الكنيسة في مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران^(٤) . وهكذا أخذت تتكاثر الالتزامات التي فرضتها البابوية على العالم المسيحي الغربي بوجه عام والهيئات الكنسية والدينية بوجه خاص ، في الوقت الذي بلغ النضال أشده بين البابوية والسلطة الزمنية لتحرير هذه الهيئات من التزاماتها المالية — وغير المالية — تجاه الحكام العلمانيين .

(1) Idem., p. 330

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 554-555.

(3) Painter ; A Hist. of the Middle Ages., p. 298.

(4) Howell-Smith ; op. cit., p. 745.

وربما كان السبب في ذلك أن ملوك أوروبا كانوا في حاجة إلى المال لتدعيم ملكياتهم الناشئة ، في الوقت الذي كانت بابوية القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد ما يعادل دخل كل هؤلاء الملوك مجتمعين^(١).

الجامع الكنسية :

تمثل الجامع الكنسية ركنًا هامًا من أركان التنظيم الكنسي في العصور الوسطى . والواقع أن انتشار المسيحية ، وما صحبه من اتساع نفوذ الكنيسة استلزم عقد كثير من الجامع الدينية منذ القرن الرابع لحل المسائل المعقدة التي سميت انتشار المسيحية من جهة وتنظيم شؤون الكنيسة وتدعيم سلطتها من جهة أخرى^(٢). وهنا نشير إلى أن الكنيسة لم تكن أول من ابتكر فكرة عقد الجامع أو ساحة الفضل في ظهورها ، لأنها استمدت هذه الفكرة من سوابق يهودية ووثنية معروفة^(٣).

وإذا كانت معظم المراجع التاريخية قد ركزت اهتمامها في الجامع المسكونية الأربعة الأولى ، وهي مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمع إفسوس سنة ٤٣١ ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ : هذا زيادة على مجمع كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) ومجمع بازل سنة ١٤٣١ ؛ فإنه من الثابت أن أوروبا العصور الوسطى شهدت - عدا الجامع السابقة - عددًا كبيرًا من الجامع الدينية ذات الأثر العظيم في التاريخ الأوروبي بوجه عام والتاريخ الكنسي بوجه خاص^(٤). ومن هذه الجامع ما اتخذ طابعًا عامًا عالميًا فحضرها الأساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحي ليتدارسوا سويًا المشاكل التي واجهتهم في مناطق نفوذهم ، أو ليجتسوا أوجه الخلاف فيما بينهم ويزيلوا ما قد يكون هناك من سوء تفاهم عن طريق الحجة

(1) Thompson : op. cit ; vol. 2; p. 698.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. p. 16-17.

(3) Howell-Smith : op. cit.; p. 852.

(4) Eyre : op. cit ; p. 208.

والإقناع^(١) . وخير مثل لهذا النوع من المجامع مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ الذى اجتمع بسبب الخلاف حول تفسير بعض المسائل اللاهوتية ، ومجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ الذى أدان مذهب الطبيعة الواحدة ، ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ الذى أدان اللايقونية ثم مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩ الذى قرر إدانة البطريق فوتيوس وعزله^(٢) . والملاحظ فى هذه المجامع السابقة أنها كانت تجمع بين أعضاء الكنيسة فى الشرق والغرب ، حتى كان الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وهو الانشقاق الذى بدأت حوادثه فى القرن التاسع على عهد البطريق فوتيوس ، والذى انتهت ذيله فى القرن الحادى عشر (سنة ١٠٥٤) بالانفصال التام بين الكنيستين^(٣) . ومنذ ذلك الوقت أصبحت المجامع الدينية التى تعقد فى الغرب لا تختص إلا بشئون الكنيسة الغربية ، وإن كان لقب مسكونى أو عالمى قد أطلق أيضاً على مجامع اللاتران البابوية (Lateran Councils) وهى التى عقدت بالكندرائية البابوية فى روما سنوات ١١٢٣ ، ١١٣٩ ، ١١٧٩ ، ١٢١٥ ، ١٥١٢ . وهكذا أحصيت المجامع المسكونية فى تاريخ المسيحية بعشرين مجعاً هى^(٤) :

٣٢٥ مجمع نيقية الأول	٥٥٣ مجمع القسطنطينية الثانى
٣٨١ مجمع القسطنطينية الأول	٦٨٠ مجمع القسطنطينية الثالث
٤٣١ مجمع أفسوس	٧٨٧ مجمع نيقية الثانى
٤٥١ مجمع خلقدونية	٨٦٩ مجمع القسطنطينية الرابع

(١) Can. Med. Hist. vol. 1; p. 185.

(2) Howell-Smith : op. cit. 553.

(٣) يطلق على هذا الانشقاق الدينى عادة اسم الانشقاق الشرقى أو اليونانى ، عيباً له عن الانشقاق الغربى الكبير الذى نجم عن قيام أكثر من باباً فى الغرب (أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٧٦) .

(4) Howell-Smith : op ; cit. p. 551-553

ولم تعترف الكنيسة الشرقية سوى بالمجامع السبعة الأولى فقط على أنها مسكونية .

١١٢٣	مجمع اللاتران الأول	{ ١٤١٤ — ١٤١٨ مجمع كونستانس
١١٣٩	مجمع اللاتران الثاني	{ ١٤٣١ مجمع بازل (متمم لسابقه)
١١٧٩	مجمع اللاتران الثالث	١٤٣٨ — ١٤٤٢ مجمع فراي ... فلورنسا
١٢١٥	مجمع اللاتران الرابع	١٥١٢ — ١٥١٧ مجمع اللاتران الخامس
١٢٤٥	مجمع ليون الأول	١٥٤٥ - ١٥٦٣ مجمع ترنت
١٢٧٤	مجمع ليون الثاني	١٨٧٠ مجمع الفاتيكان
١٣١١	مجمع فينا	

وبالإضافة إلى هذه الجامعات العالمية أو المسكونية ، وجد نوع آخر من الجامعات الدينية المحلية ذات الأثر المحدود . ذلك أن الأساقفة في بلد من بلدان غرب أوروبا اعتادوا أحياناً أن ينظموا اجتماعاً دينياً يجتمع شملهم للتفكير فيما يعتبرهم من مسائل أو يعترضهم من مشاكل ، مثلاً حدث سنة ٥٩٧ من اجتماع اثنين وستين أسقفاً وخمسة من رؤساء الأساقفة من أسبانيا وجنوب فرنسا في ملان (١) . وبتقدم التنظيم الكنسي تطور هذا النوع من الجامعات إلى ما يعرف باسم الجامعات الإقليمية المنتظمة ، فيقوم رئيس الأساقفة في كل إقليم بدعوة الأساقفة التابعين له وغيره من كبار رجال الدين للمشاركة في اجتماع ديني خاص إقليمي الطابع (٢) . ومن الواضح أن هذا النوع من الجامعات الإقليمية كان له أثره في تركيز السلطة الكنسية وتوحيد نظم الكنيسة ومقاومة النزعة الانفصالية في بعض البلدان الأوروبية (٣) .

وأخيراً يأتي نوع أصغر من الجامعات الدينية ، هي الجامعات الأسقفية التي تتمثل في دعوة الأسقف الواحد لقساوسة الكنائس التابعين له في أسقفيته لبحث ما يهمهم من مسائل . وهكذا بلغت الجامعات الدينية درجة من الكثرة والتنوع في أوروبا المعصور الوسطى ، جعلت لها أثراً خطيراً في الحياة الدينية . وهنا ينبغي أن نستبعد

(1) Cam. Med. Hist., vol. I, p. 104.

(2) Thorapson : vol 2, p. 655.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 545.

من تفكيرنا الآراء الدستورية الحديثة الخاصة بالغرض من عقد الجامع والمجالس ؛ فلا يمتد بنا التفكير إلى أن الجامع الدينية التي عرقها أوربا العصور الوسطى كانت تستهدف بأى حال تحديد سلطان البابوية أو تقييد نفوذ كبار رجال الكنيسة^(١) . فالحكومة الكنسية فى غرب أوربا أصبحت عند نهاية القرن الثانى عشر أشبه شىء بالملكية المطلقة ، ومن ثم لم يكن هناك أى مطمع للمجامع الكنسية — سواء كانت مسكونية أو إقليمية أو أسقفية — فى تحديد سلطات البابا أو غيره من كبار رجال الدين . أما الأهداف الأساسية للمجامع المسكونية فكانت مقاومة ضرب من ضروب الهرطقة التى أخذت تهدد الكنيسة بين حين وآخر ، أو الرغبة فى القيام بحركة شاملة لنصرة المسيحية مثل الحروب الصليبية ، أو الشعور بضرورة القيام بحركة جامعة لإصلاح الكنيسة وتدعيمها . ومن الواضح أن هذه الأهداف — انتهت — بباريق مباشر أو غير مباشر — إلى تقوية نفوذ البابوية وتدعيم سلطانها^(٢) . وهكذا نهدت البابوية على عهد أنوسنت الثالث تسيطر على الكنيسة سيطرة تامة فضلاً عن نحكامها فى الجامع الدينية الكبرى تحكما بعيد الأثر . حقيقة إنه ظهرت فيما بعد محاولة لجعل الجامع الدينية تسمى فى إرادتها ونفوذها على البابوية ، ولكن هذه المحاولة لم تظهر إلا فى القرن الخامس عشر ، أى قرب — تام العصور الوسطى^(٣) .

ومن الطبعى أن هذه الأحكام التى أصدرناها على الجامع العامة الكبرى يمكن تطبيقها بهذه الروح ذاتها على الجامع الإقليمية والأسقفية . فالجمع الإقليمي الذى يجمع بين أساقفة الإقليم الواحد ، والجمع الأسقفى الذى يجمع بين قساوسة الأسقفية الواحدة لم يستهدف مطلقاً الحد من نفوذ رئيس الأساقفة فى إقليمه أو نفوذ الأسقف فى أسقفيته . ولكن إذا كان الغرض الأساسى من هذه الجامع

(1) Eyre: op cit. p. p 209-210.

(2) Stephenson : Med. Hist.; p. 434.

(3) Eyre : op. cit., p. 210

هو التعاون وبحث المسائل التي تهتم رجال الدين في الإقليم أو الأسقفية . فإنه توجد بعض حالات فردية قام فيها رجال الدين المجتمعون في بعض هذه الجوامع باستنكار ساوك أسقف أو رئيس أساقفة ، وطالبوا بعزله على أساس تصرفاته غير المقبولة .

أما عن القواعد المتبعة في دعوة هذه الجوامع للانعقاد ثم في كيفية تنظيمها ورأسها، فتنفق كلها مع مبادئ تركيز السلطة في الكنيسة . وقد ظل الكاثوليك أمداً طويلاً يعتقدون في أن البابوية هي التي دعت جميع الجوامع المسكونية ، وأعلى الأقل لم تعقد هذه الجوامع إلا بموافقة البابا وأبائهم . ولكنهم عاينوا فاعترفوا في القرن الماضي فقط بأن الإمبراطور هو الذي دعا الجوامع المسكونية الثمانية الأولى وأن موافقة البابا سلفاً لم تشترط في عقد هذه الجوامع ، وإن كانت موافقته على قرارات كل مجمع شرطاً ضرورياً لازماً للكنيسة الغربية باتباعها^(١) . ولم يلبث القانون الكنسي الذي تم نضجه وجمعه في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر ، أن نص على أنه ليس لأحد حق دعوة المجمع الديني إلا الرئيس الديني الأعلى للمنطقة التي يمثلها المجمع ، فإذا كان المجمع عاماً فالبابا وحده هو الذي يمتلك حق دعوته ورأسه^(٢) ، إما شخصياً وإما عن طريقة إنابة من يمثله في الرئاسة^(٣) .

أما إذا كان المجمع إقليمياً فإن الأسقف هو الذي يدعو إليه ويقوم برأسه^(٤) . على أنه يلاحظ دائماً أن هذه النظم لم تصل إلى درجة من التحديد والتبليور إلا عند نهاية القرن الثاني عشر ، في حين كانت الأوضاع الخاصة بدعوة الجوامع الدينية في الشطر الأول من العصور الوسطى أكثر بساطة وأقل تعقيداً ؛ حتى قام الأباطرة بدعوة المجامع الدينية في كثير من الأحيان واكتفت البابوية بإرسال مندوبين عنها في هذه المجامع مما أثار في بعض الأحيان خلافاً بين الأباطرة ومندوبي البابوية حول الرئاسة .

(١) Howell-Smith : op. cit., p. p. 551-552.

(٢) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 645.

(٣) Howell-Smith : op. cit., p. 551.

(٤) Cam. Med. Hist., vol. 1, p. 164.

التنظيم الكنسى :

استطاعت الكنيسة أن تنشر نفوذها وتقوم برسالتها كاملة عن طريق جهاز يحكم البنيان امتدت أطرافه إلى جميع أنحاء العالم المسيحى ، جنباً إلى جنب مع الجهاز الإدارى العلمانى . وقد انقسم رجال الدين إلى قسمين رئيسيين : رجال الكنيسة من القساوسة والأساقفة الذين تزوجوا واختاروا حياة أقرب إلى حياة العلمانيين — وهؤلاء أطلق عليهم « رجال الكهنوت العلمانيون secular clergy » ؛ ورجال الهيئات والمنظمات الديرية المختلفة ، وهم الذين عاشوا عيشة دينية منتظمة أساسها العزوبة ومن ثم أطلق عليهم « رجال الكهنوت النظاميون regular clergy »^(١) . ومنذ بداية القرن الثالث عشر أخذ التقارب يزداد بين هذين الفريقين ، فاشتراط على القسيس والأسقف — مثلهما مثل الراهب — أن يحيا حياة العزوبة الدائمة . والواقع إن الآراء تباينت حول جدوى تطبيق مبدأ العزوبة على رجال الدين ومدى إمكان هذا التطبيق فى صورة عملية . وقد يبدو هذا الموضوع قليل الأهمية بالنسبة لدراستنا ، ولكن يجب أن نذكر دائماً أن أثر الكنيسة فى البناء الاجتماعى لاؤربا العصور الوسطى كان يتوقف إلى حد كبير على مدى النجاح فى تطبيق هذا المبدأ . وهنا نجد أن رجال الكنيسة فى عصرها الأول كانوا متزوجين لعدم وجود فروق واضحة فى ذلك الوقت المبكر بينهم وبين بقية الأفراد العلمانيين . وقد جاء على لسان القديس بولس نفسه نص يستفاد منه إباحة الزواج لرجال الدين ، إذ يقول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس « أعلنا ليس لنا سلطان أن نحول بأخت زوجة بباقي الرسل وأخوة الرب ، وصفاً^(٢) » . ولكن إذا كان البعض قد حاول أن يفسر هذا على أساس إباحة الزواج ، فإنه ورد فى هذه الرسالة نفسها للقديس

(١) Thompson : vol. 2, p. 649.

(٢) العهد الجديد، سفر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الخامس (٥) .

بولس مانعه «وأما من جهة الأمور التي كتبتكم لي عنها فحسن للرجل أن لا يس
امرأة. ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحد
رجلها... ولكن أقول هذا على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر، لأني أريد
أن يكون جميع الناس كما أنا... ولكن أقول لكم المتزوجين وللأرامل أنه حسن
لهم إذا لبثوا كما أنا...»^(١). ومن هذا يفهم أن بولس حبس أن يظن الجميع
... مثله - عزبا، لأن الزواج وعاشرة المرأة يرتبطان بالخطيئة الأولى أو الكبرى
التي هوت بأدم من الجنة. فإذا كان الأمر كذلك، فما المقصود بقوله «أن نؤمن
بأخت زوجة»؟ هنا حاول بعض الباحثين تفسير هذا المعنى في ضوء العادة التي
انتشرت بعد ذلك على نطاق أوسع، وهي أن يعيش الفرد عزبا في صحبة عذراء،
يعاشرها كأخت وتصاحبه كأنه لثمنه بشنونه وترفع عنه متاعب الوحده. ولكن
هل كان من الممكن أن يقنع جميع الناس... بما فيهم بطرس نفسه (صفا)
الذي كان متزوجا في حياته الأولى... بهذا النوع من الحياة البريئة والحب العزبي
والسلوك الأفلاطوني^(٢)؟ يبدو أن بولس أدرك استحالة هذه الحياة البريئة بين رجل
وعذراء يعيشان تحت سقف واحد، بدليل أنه عاد فقال في نفس الرسالة السابقة
«ولكن إذا كان أحد يظن أنه يعمل بدون لياقة لنمو عذرائه إذا تجاوزت
الوقت... وهكذا لزم أن يصير - فليفعل ما يريد. إنه لا يخطيء. فليتزوجا.
وأما من أقام راسخا في قلبه وليس له اضطراب، بل له سلطان على إرادته، وقد
عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراءه غسنا يفعل. إذا من زوج غسنا يفعل ومن
لا يتزوج يفعل أحسن»^(٣).

(١) نفس الرسالة السابقة، الإصحاح السابع (١ - ١٦).

(2) Howell-Smith : op. cit., 364.

(٣) العهد الجديد، سفر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح السابع.

ويبدون لنا مما سبق أن المسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين ، ولكنها فضلت لهم حياة العزوبة ، الأمر الذي لم يأخذ به كثير من رجال الكنيسة فصاروا يتزوجون ويكونون عائلات وروابط أسرية مثل العلمانيين^(١) . وقد أدركت الكنيسة منذ وقت مبكر ما ترتب على زواج رجال الدين من خطر لأنه يدفعهم إلى الانصراف نحو مباحج الحياة ومشاكل الأسرة ، ولذلك حرصت على أن تنص على مبدأ عزوبة رجال الدين في تشريعاتها وطلبت من جميع القساوسة أن يطردوا من منازلهم من يخلل لهم من النساء ، مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزواجهم ، بشرط أن يعاملوهن في هذه الحالة كأخوات ولا يعاشروهن كزوجات ! ثم كان أن حاول مجمع الفيرا Elvira الديني الذي عقد في أسبانيا سنة ٣٠٦ طرد جميع القساوسة المتزوجين من الكنيسة ، والقضاء على عادة الاحتفاظ « بأخت زوجة » بعد أن أصبح من الأمور الشائعة أن ينجب القساوسة أولاداً من هؤلاء الأخوات الزوجات ! . ولكن من الواضح أنه كان من الصعب أو المستحيل تنفيذ هذه الرغبات تنفيذاً عملياً ، حتى بعد أن أقرها مجمع نيقية سنة ٣٢٥ — وهو أول المجمع المسكونية في تاريخ الكنيسة^(٢) . وهكذا سارت الأمور حتى اشتدت الرغبة في إصلاح الكنيسة على عصر هلدبراند (جريجوري السابع) ، وعندئذ وضع المصلحون مسألة عزوبة رجال الكنيسة على رأس قائمة الإصلاح . والواقع أن البابوية لقيت في ذلك العصر معارضة شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ ، ليس فقط من رجال الدين الذين اعتادوا النظم القديمة وألفوا حياة الزوجية ، بل أيضاً من بعض بعيدى النظر الذين خشوا عاقبة انتشار الزنا والزواج العرفي بين رجال الدين . على أن البابوية لم تأبه لهذه المعارضة ومضت في طريقها جادة ، فعقدت مجامع في روما سنة ١٠٥٠ ، وسنة ١٠٥٩ ،

(1) Taylor : The Med. Mind, vol 1, p. 354.

(2) Howell-Smith : op. cit , p. 367.

وسنة ١٠٦٣ طلبت جميعها من العلمانيين قطع صلتهن بالقساوسة الذين يحتفظون بزواج أو محظيات . وأخيرا عقد البابا جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ ، أى بعد اعتلائه كرسى البابوية بعام واحد ، أصدر مرسوما بتحريم زواج رجال الدين تحريما تاما . وفى هذه المرة عزم جريجورى السابع على تنفيذ هذا القرار بكل ما أوتيته من عزم واصرار وعناد ، حتى أنه أمر المتزوجين من رجال الدين بطرد زوجاتهم فوراً^(١) . وقد قوبلت هذه القرارات بالمعارضة وعدم الرضا فى مختلف البلاد الأوروبية ، حتى أنه عقد مجمع فى ونشستر بإنجلترا سنة ١٠٧٦ قرر الموافقة على مبدأ منع رجال الدين من الزواج بشرط عدم إجبار المتزوجين منهم فعلا على هجر زوجاتهم . ومع ذلك فإن البابوية لم تهتم بهذه المعارضة ، ومضت فى طريقها حتى اتخذت خطوة أخيرة فى مجمع روما سنة ١١٣٩ الذى قرر أنه لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة ، وأن زواج أى واحد منهم يعتبر غير شرعى ، وبناء على ذلك تصبح ذرية رجال الكنيسة أبناء سفاح^(٢) . ولما كان مشروع إصلاح الكنيسة يمثل وحدة مترابطة الأجزاء ، فإن نجاح البابوية فى تحقيق مبدأ عزوبة رجال الدين كان مرتبطا إلى حد كبير بركن آخر من أركان هذه الحركة الإصلاحية وهو تحقيق سمو البابوية وسيادتها وسيطرتها على العالم المسيحى الغربى . وهكذا استطاعت البابوية بفضل نجاحها فى تحقيق سيادتها أن تنفذ مبدأ عزوبة رجال الكنيسة تنفيذا دقيقا شاملا حتى غدت أية مخالفة لهذا المبدأ تعتبر منذ منتصف القرن الثانى عشر خرقا لأحد مبادئ القانون الكنسى الأساسية^(٣) .

ولسنا فى حاجة إلى المبالغة فى أهمية هذا المبدأ وأثره فى الحياتين الدينية والاجتماعية . ذلك أنه كيف الوضع الاجتماعى لرجال الدين فى أوروبا منذ القرن

(1) Idem, p. 368

(2) Eyre & op. cit., p. p. 216-217

(3) Idem, p. 27,

الثاني عشر ، وزاد من قوة الرابطة بين رجال الدين بعد أن أوشكت حياة الأسرة ، والروابط العائلية أن تقضى على الرابطة الأساسية التي تربط رجال الدين بعضهم ببعض . هذا بالإضافة إلى أن بقاء رجال الكنيسة عزابا جعل لهم مكانة خاصة سامية في نفوس الأهالي وغير من نظرة الناس إليهم^(١) .

أما عن بناء الكنيسة العام فقد رأينا كيف كانت البابوية على رأس الكنيسة الغربية تحتل المكانة الأولى وتمتع بالسيطرة التامة على جميع رجال الكنيسة . ويأتى بعد البابا في الدرجة مجموعة الكرادلة ، الذين حدد « الدستور الروماني Roman Constitution » الصادر سنة ١٠٥٩ على عهد البابا نيقولا الثاني مهامهم الأساسية^(٢) . ويبدو أن هؤلاء الكرادلة كانوا مجموعة مختارة من كبار الأساقفة (episcopi cardinales) بدأت مهمتهم الأولى كمستشارين للبابوية ، ولكن نفوذهم أخذ يزداد تدريجيا نتيجة لكثرة اختصاصاتهم ومهامهم^(٣) . وهكذا إذا كان البابا قد أصبح ملكا في بلاطه بروما فإن الكرادلة كانوا بمثابة الأمراء الذين أحاطوا بزعيمهم وجاءوا بعده مباشرة في الدرجة من حيث المكانة والنفوذ^(٤) .

وقد انقسم العالم المسيحي الغربي إلى أسقفيات واسعة ، يرأس كل منها اسقف يشرف على شئون الكنيسة ورجال الدين في أسقفيته . ثم انقسمت كل أسقفية من هذه الأسقفيات إلى أبرشيات صغيرة بكل منها كنيسة يشرف عليها قس^(٥) . على أنه من الملاحظ أن مركز الأساقفة والقساوسة تطور في العصور الوسطى وفقا لعوامل متعددة ، كما يتضح ذلك بالكلام عن كل فريق على حدة .

(١) Ibid,

(٢) Howell-Smith : op. cit., 746.

(٣) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 320

(٤) Gam, Med. Hist, vol. 6; p. p. 4-5, p. 43.

(٥) Thompson : op. cit, vol. 2, p p, 652-651.

أما عن الأبرشيات فقد اختارت الأساقفة أن تربط نشأة كل منها باسم رجل من رجال الدين -- أو غير رجال الدين -- : وإن كان الواقع هو أن الأبرشيات أخذت تظهر وتنتشر تدريجياً في غرب أوروبا وفقاً لحاجيات الأهالي وانتشار المسيحية . وكان تأسيس الكنائس المحمية يتم إما بواسطة الأساقفة أو بواسطة الحكام العلمانيين الذين يهبونها للكنيسة . ولكن المهم هنا هو أن مؤسسى هذه الكنائس الجديدة -- سواء كانوا من رجال الدين أو العلمانيين -- اعتادوا أن ينظروا إلى مؤسساتهم على أنها ملك خاص بهم وبالتالي أصروا على الإشراف عليها^(١) . وهكذا كان مركز قسيس الأبرشية قلقاً في أول الأمر ، إذ توقفت حالته الاجتماعية على شخصيته من جهة وعلى نصيبه الثابت من غلة الحقول التي تنبع أبرشيته من جهة أخرى^(٢) . أما دخل الكنيسة نفسها فكان يستأثر به مالك الأبرشية أى مؤسسها ؛ ولم يكن ذلك إلا تدريجياً عندما سمح لقسيس الأبرشية بجزء من هذا الدخل . واستمر الوضع على ذلك حتى تقدمت النظم الإقطاعية ، فأصبح للكنيسة أملاكها الخاصة بها في كل أبرشية ، والتي آلت إليها عن طريق الهبة من السيد الإقطاعى صاحب الأرض . على أنه كان للكنيسة مورد هام آخر أخذ يزداد منذ القرن الثامن ، ونعني به ضريبة العشور التي تلزم جميع الأراضي بدفع عشر انتاجها لحفظ الكنيسة وصيانتها . وامتازت هذه الضريبة بأنها كنسية بحته ، ينتفع بها القساوسة ورجال الأكليروس وحدهم .

ومن هذا يبدو أن قسيس الأبرشية ظل يعمياً مثل الفلاحين المحيطين به ، على نصيبه من غلة أراضي القرية . وليس هناك ما يدل على أنه امتاز عن هؤلاء الفلاحين في مستواه الإقتصادى ، إذ كان من الناحية العلمانية يخضع للأمر الإقطاعى الذى تقع الأبرشية في أراضيه ، في حين خضع في الجانب الدينى للأستقف

(1) Eyre : op. cit. p. 218

(2) Cam Med Hist., vol. 6 p. 31.

الذى يتبعه^(١). ومع ذلك فإن قسيس الأبرشية احتل مكانة على جانب كبير من الأهمية في النظام الكنسى في العصور الوسطى . ذلك أن مهمة الربط بين الكنيسة من جهة والفلاحين وعامة الناس من جهة أخرى ، أقيمت على عاتقه بوصفه عضوا عاملا في مجتمع القرية فضلا عن كونه يمثل الكنيسة . هذا إلى أن تطبيق مبدأ عزوبة رجال الدين ، جعل لقسيس الأبرشية مكانة خاصة قائمة بذاتها في القرية . لذلك لا نعجب إذا أدركت التشريعات الكنسية أهمية هذا العضو ، فنصت المجامع المسكونية مراراً على ضرورة مراعاة الدقة في اختيار قسيس الأبرشية والتأكد من سلامة أخلاقه ، فلا يجوز لأسقف أن يرسم قساً غير متعلم ، وأن يتأكدمن استقامته وألا يقل عمره عن خمس وعشرين سنة^(٢) . ومع ذلك فقد ظل قساوسة الأبرشيات في انحاء كثيرة من أوروبا العصور الوسطى لا يرتفعون كثيراً في مستواهم الفكري عن عامة أهالى الأبرشية . فمعظمهم لم يكن على قسط كاف من التعليم ، مما أوقعهم في أخطاء كثيرة أثناء الصلاة والوعظ ، دون أن يتنبه مستمعوهم لهذه الأخطاء بسبب جهل الناس باللاتينية . كذلك وجد من هؤلاء القساوسة من عرف بسوء السيرة والادمان على شرب الخمر ، وإن اشتهرت قلة منهم بالصلاح والجد^(٣).

أما الأسقف فكان الرئيس المباشر للقسيس في الهيئة الكنسية . وكان للأسقف عادة كندرائية في المركز الرئيسى لا سقفيته يتخذها حاضرة له وقاعدة لنفوذه ، وسميت بهذا الاسم لأن بها كرسى (cathedra) الأسقف^(٤) . ويثبت الواقع أن الأساقفة تمتعوا بسلطان واسع في الاشراف على شئون اسقفياتهم وإدارتها وتوجيه القساوسة التابعين لهم ، مستلهمين واجباتهم من قول بولس

(1) Thompson : op. cit ; vol 2, p. 554.

(2) Eyre: op cit ; p 219.

(3) Thompson : op, cit vol. 2; p. 654.

(4) Howell-Smith : op. cit.; p 746.

« احترزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا^(١) كنيسة الله التي اقتناها بدمه »^(٢).

ويبدو من آراء كتاب المسيحية الأوائل — مثل القديس ارناؤس . St. Irenaus والقديس سيبريان St. Cyprian — أن المفروض في جميع الأساقفة أن يكونوا متساويين تماماً ، لأن الغرض من وجودهم واحد ، ونوع السلطة المزدوين بها واحدة ، مهما اختلفت مساحات اسقفياتهم . ولكن الواقع العملي أثبت غير ذلك ، إذ تفاوت شأن الأساقفة ونفوذهم تبعاً لتباين أهمية مراكزهم الأسقفية^(٣) . وكان ذلك في القرن السابع عندما اتضح ضرورة إيجاد حلقة في التنظيم الكنسي بين البابوية من جهة وأساقفة البلد الواحد من جهة أخرى ، مما أدى إلى قيام اسقفية كبرى في كل إقليم واسع يرأسها رئيس اساقفه Archbishop له حق الزعامة على أسقفيات ذلك الإقليم . فإذا تعدد رؤساء الأساقفة في الدولة الواحدة ، فإن العرف جرى على أن تكون الزعامة لأقدمهم . وهكذا وجد في إنجلترا العصور الوسطى رئيس أساقفه في كل من يورك وكانتربري ، يشرف كل منهما على عدد كبير من الاسقفيات التابعة له ، ولكن الزعامة الدينية في إنجلترا كلها كانت للأخير . ومثل ذلك يقال عن رئيس أساقفة مينز في ألمانيا ورئيس أساقفة ريتس في فرنسا . وهنا نلاحظ أن الأخيرة لم تكن أقدم اسقفيات فرنسا ، ولكنها وصات إلى مكانة الزعامة بفضل تشجيع ملوك الفرنجة^(٤) .

وتمتع الأسقف في أسقفيته بحقوق قضائية وسلطات واسعة باعتباره نائباً عن البابا في دائرته^(٥) . وهنا يلاحظ أن الأسقف كان مسئولاً أمام البابا عن أعماله ومقيداً في إدارته لشئون الاسقفية بالتشريع الكنسي العام والأوامر البابوية ؛

(١) العهد الجديد — سفر أعمال الرسل — الاصحاح العشرون (٢٨) .

(٢) Cam. Med. Hist. : vol. 1 ; 167.

(٣) Thompson: op. cit. : vol. 2 ; p. 650.

(٤) Ullmann : The Growth of Papal Government: p. 8.

وفما عدا ذلك كانت سلطته مطلقة على القساوسة داخل حدود أسقفية^(١). ولم يكن الأسقف ملزماً بدعوة مجمع محلي لإقرار تصرفاته ما دامت هذه التصرفات لا تتعارض مع قانون الكنيسة العام . والواقع أن وظيفة الأسقفية تمتعت بكثير من الضمانات، إذ كان لا يمكن عزل الأسقف ، من وظيفته إلا بأمر البابا وحده . ويتضح نفوذ البابوية على الأساقفة في عهد أنوسنت الثالث من قول رئيس أساقفة كانتربوري « إنني حر في أن اعتقد ما أشاء ، إلا إذا أصدر البابا أمراً مخالفاً لعقليتي فعندئذ يجب أن اعترف فوراً بأنني كنت على خطأ^(٢) » .

على أنه يلاحظ أن ساطة الأساقفة تناقصت إلى حد ما في الجزء الأخير من العصور الوسطى بعد أن تحررت الأديرة — عقب حركة الإصلاح الكلوونية — من سيطرة الأساقفة الذين تقع الأديرة داخل دوائر نفوذهم^(٣) . هذا إلى أن انصراف كثير من الأساقفة الأغنياء نحو المصالح الدنيوية وانطلاقهم في التيار الإقطاعي ، جعلهم ينصرفون إلى ما هو أجدي على نفوذهم وأنفع لهم^(٤) .

وإذا كانت الوظيفة الأسقفية تمثل ركنها ما في نظام الكنيسة الغربية ، فإن أثر الأساقفة الشخصي في تطور المجتمع الأوربي كان هو الآخر خطيراً . ذلك أن الأساقفة أصبحوا بعد انتهاء غزوات البرابرة حماة التراث الكلاسيكي القديم ؛ وسرعان ما صار لهم شأن كبير في توجيه سياسة ملوك البرابرة الذين أقاموا ملكيات قوية في غرب أوروبا ، مما جعل أثرهم يبدو خطيراً في التطور الاجتماعي بين القرنين السادس والثالث عشر^(٥) . هذا بالإضافة إلى أن الأساقفة صارت لهم ممتلكات واسعة من أراضى وعقار وغيرها ، الأمر الذي استلزم التفرقة بين وظيفة الأسقف

(1) 'Cam Med. Hist.; vol. 6; p. 523.

(2) Thompson : op cit ; vol 2; p. 649.

(3) Idem; p. 156

(4) Taylor : The Med. Mind; vol 1, p. p. 488-489

(5) Cam. Med. Hist. vol 6. P# 530, 545.

واختصاصاته الروحية (spiritualia) داخل نطاق أسقفيته ، وبين سلطاته واختصاصاته الزمنية (saccularia)^(١) .

ولم تكن هناك قواعد ثابتة في أول الأمر تحدد كيفية تعيين الأساقفة في مناصبهم؛ ففي عصر الغزوات الجرمانية كان لقساوسة الأسقفية ورعاياها حق انتخاب أسقفهم. على أن ملوك الفرنجة سرعان ما ادعوا لأنفسهم هذا الحق وصاروا يعينون من يختارونه في الأسقفيات الشاغرة^(٢) ، على الرغم من صيحات الاحتجاج التي صدرت ضد هذا الوضع من مجامع أورليان سنوات ٥٣٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩ ، وكليرمونت سنة ٥٣٥ ، وباريس سنة ٥٥٧ . وقد غالى شارل مارتل في هذه السياسة ، حتى أخذ ينعم بالوظائف الأسقفية على المخلصين من أتباعه وبذلك وضع أساس سابقة اتبناها بقية ملوك الجرمان في غرب أوروبا فيما بين القرنين السادس والعاشر . ففي ألمانيا دأب أوتو العظيم ثم ابنه وخفيده . من بعده على التحكم في شغل الأسقفيات الشاغرة في الإمبراطورية^(٣) . وفي إنجلترا جاء وقت أصبح معروفاً أن القصر الملكي هو أسهل طريق للوصول إلى كرسي الأسقفية . . . وهكذا في بقية بلاد الغرب .

على أنه لم يوجد في القانون الكنسي ما ينص على حق الملك في تعيين الأساقفة مما شجع رجال الدين المصلحين على معارضة هذا التقليد . وقد رأينا كيف وضع هلدبراند مسألة منع التقليد العلماني على رأس قائمة إصلاحاته ، الأمر الذي أوقع البابوية في صراع طويل مع الامبراطورية ، وهو الصراع الذي انتهى أخيراً بإقرار حق البابوية كاملاً في تقليد الأساقفة وحرمان الحكام العلمانيين من كل حق في هذا التقليد^(٤) . ولكن هذا الحل لم يضع نهاية لمشكلة تعيين الأساقفة ،

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government; p. 408.

(2) Cam. Med. Hist. I; p. 152 & Ullmann : op. cit.; p. p. 48-51.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale; p. p. 121-122.

(4) Ullmann : The Growth of Papal Government; p. p. 205-261.

لأنه بقي إشكال آخر هو تحديد الهيئة التي تقوم بانتخاب الأسقف ليعتمد البابا ذلك الاختيار ويقلد الأسقف مهام منصبه^(١). وكانت هذه الهيئة غير محددة عند بداية القرن العاشر، إذ تألفت من قساوسة الأسقفية ورعيته، حتى جاء البابا جريجورى السابع (هلبيراند) فأبجعت سياسته نحو الإبقاء على هذا العنصر الشعبى فى اختيار الأساقفة ليكون قوة مضادة لنفوذ الأمراء والحكام العلمانيين؛ واكتفى جريجورى السابع بأن يقسم الأساقفة للبابا يمين الولاء والطاعة^(٢). على أنه يبدو أن دائرة الأشخاص الذين لهق حق اختيار الأسقف ضاقت بعد ذلك فى القرن الثانى عشر، حتى أصبح هذا الحق مقصورا على القساوسة الذين يرتبطون بالكرسى الأسقفى ارتباطا مباشراً. ثم كان أن تم بعد ذلك — فى الجامع البابوية التى عقدت بروما سنة ١١٧٩، وسنة ١٢١٥ — تحديد قواعد اختيار الأساقفة، فنص المجمع الأول على ألا يقل عمر المعين فى هذه الوظيفة عن ثلاثين سنة وأن يكون متعاهداً وذو شخصية تتناسب مع جلال وظيفته^(٣). أما المجمع الثانى فقد حدد طرق انتخاب الأساقفة، واحتفظ البابا انوسنت الثالث للبابوية بحق رفض الاختيار إذا كان المرشح غير لائق للوظيفة. بل إن هذا البابا لجأ إلى تعيين بعض الأساقفة بطريق مباشر لإثبات حق البابوية فى اتخاذ مثل هذا الإجراء، وحسبنا ما فعله من رفض مرشح رجال الدين ومرشح ملك إنجلترا لشغل وظيفة رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧، واختار لذلك رجلاً ثالثاً هو ستفن لانجتون^(٤).

(1) Cam Med Hist, vol 6, p. 530

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government; p p. 296-297.

(3) Eyre : op. cit.; p. p. 224-225

(4) Adams : The Hist. of England; p 416.

التنظيمات الديرية :

ظهر الاتجاه نحو العزلة والانقطاع للعبادة في تاريخ معظم الأديان الكبرى التي عرفتها البشرية، ولكن هذا الاتجاه لم يترك أثرا في الحياة العامة مثلما ترك في العالم المسيحي الأوربي في المصور الوسطى^(١).

وقد سبق أن أشرنا إلى ظهور الديرية وانتشارها في غرب أوربا^(٢). وهنا نكرر أن القديس بندكت لم يكن مبتكر النظام الديرى في المسيحية، وإنما سبق أن ظهر هذا النظام في بلاد الشرق الأدنى المسيحية وانتشر بين ربوعها، ومنها انتقل بعد ذلك إلى الغرب. وقد اجمعت المراجع على أن مصر هي البلد الأول الذى طبقت فيه المسيحية نظام العزلة والانقطاع للعبادة^(٣). فعلى ضفاف النيل باشر أقباط مصر نهجين من الانقطاع للعبادة، يتمثل الأول في الرهبانية الانفرادية المطلقة التى باشرها القديس أنطون، والتى انتشرت بعد ذلك في مصر والشام وأسهمت إلى حد واضح في نشر المسيحية في الشرق؛ في حين يتمثل الثانى في الديرية الاجتماعية، التى ارتبطت بالقديس باخوم صاحب أول مؤسسة ديريه في مصر العليا، والذي نجح قبل وفاته سنة ٣٤٨ في تأسيس تسعة أديرة للرجال وواحد للنساء ضمت جميعها بضعة آلاف من الديرين^(٤).

وهذا النوع الأخير من أنواع الانقطاع للعبادة هو الذى قدر له البقاء والاستمرار، فانتشر إلى الشرق اليونانى حيث ظهرت الأديرة الباسلية نسبة إلى مؤسسها القديس باسل (٣٢٩ — ٣٧٩) اسقف قيصرية في كبادوكيا. وقد أسس باسل مؤسسة ديرية كبرى قرب قيصرية ضمت ملجئا ومستشفى

(1) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal; p. 1-5

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٤٦ وما بعدها.

(3) Workman : op. cit., p. 86.

(4) Howell-Smith : op. cit.; p. 070.

ومدرسة لتعليم الصغار . ولم يلبث أن انتشر نظامه ، حتى زاد عدد أتباعه قبل وفاته على ثمانين ألفا ، كما أصبح هذا النظام بمثابة حجر الزاوية في الديرية الشرقية . وهنا نلاحظ أن الديرية الباسلية غلب عليها طابع التأمل والعبادة والزهد فضلا عن قلة العمل وضعف الانتاج الحضارى ، بخلاف ما أصبحت عليه الديرية في الغرب^(١) .

أما في الغرب فإن الديرية لم تصبح قوة فعالة في المجتمع الأوربي إلا على عهد القديس بندكت في القرن السادس^(٢) . حقيقة إن غرب أوروبا عرف الرهبانية الانفرادية والديرية الاجتماعية قبل ذلك العصر ، بل منذ سنة ٣٤٠ عندما وصل أنثاسيوس إلى روما وبصحبه اثنان من الرهبان فرارا من الاضطهاد الأريوسى ، ولكن الديرية لم تصبح عندئذ قوة فعالة ذات شأن كبير في تطور الحياة الأوربية . وكل ما هنالك هو أن الحياة الديرية انبعثت من روما لتنتشر في جميع أنحاء إيطاليا بل غاليا وشمال أفريقيا^(٣) .

وعلى هذا الأساس لا يمكننا القول بأن القديس بندكت هو صاحب الفضل في تأسيس النظام الديرى في المسيحية ، وإن كان هو صاحب الفضل في التقدم بهذا النظام ووضع القواعد والأسس التي أثرت في مستقبله ، حتى أن حياته تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الديرية ونظمها^(٤) . ويمكننا إجمال ما فعله بندكت في أنه اقتبس من النظم القائمة ما هو صالح فعلا وما يلائم ظروف البيئة الغربية . وأول طابع للنظام البندكتى هو ما امتازت به الحياة داخل الدير من روح اجتماعية نتيجة لاشتراك مجموعة من الديرين في حياة منظمة أساسها الاشتراك والتعاون في العبادة والعمل والنشاط . فالنظام البندكتى ابتعد تماما عن فكرة

(1) 'dem, p. 677.

(2) Eyre : op. cit. p. p. 227-228.

(3) Howell-Smith : op. cit ; p. 678.

(4) Workman . op cit; p. 139.

الرهبانية الانفرادية التي عرفها الشرق ، وبذلك أصبحت الديرية الغربية لا تعرف إلا النظام الاجتماعي التعاوني، مما ترك أثراً بعيداً في المجتمع الأوربي^(١). أما الطابع الثاني للنظام البندكتي فهو أن أعضاء الدير كان عليهم أن يظلوا مدى الحياة مرتبطين بالمجتمع الديرى الذى دخلوه مختارين . وهذا النوع من الاستقرار جعل الدير البندكتي بمثابة مؤسسة مسئولة عن نزلاتها حتى مماتهم ، فتقوم هذه المؤسسة بالاعتماد على نفسها فى سد حاجاتها ورعاية شئونهادون أن ترتبط بغيرها من الهيئات أو الأديرة الأخرى . وقد تطالب هذا الوضع أن يكون للدير البندكتي رئيس يشرف عليه ويتمتع بالسلطة المطلقة العليا فى إدارة شئون الدير ، ويلتزم له بقية الأعضاء بالطاعة العمياء^(٢). لذلك نص النظام البندكتي على أن يختار أعضاء الدير رئيسهم ، ولهذا الرئيس أن يستشير هؤلاء الأعضاء فى مختلف المسائل التى تههم المجموعة ؛ على أن يكون له وحده رأى النهائى والقرار الأخير ليصبح المسئول الأول .. فى الدنيا والآخرة — عن صالح الدير ومن بداخله من أعضاء^(٣).

وهكذا يبدو الفارق واضح بين الدير البندكتي وبين بقية المنظمات الديرية السابقة. فالدير البندكتي كان مجتمعاً صغيراً مستقلاً ، ربطت أعضائه رغبة مشتركة فى تكريس أرواحهم وأبدانهم لنوع معين من الحياة . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية نبذوا الملكية الفردية نبذاً تاماً، ودانوا بالطاعة العمياء لرئيس الدير ، وعاشوا سوياً كأسرة واحدة حتى المات^(٤). وهنا نلاحظ أن النظام البندكتي لم يحاول مطلقاً أن يجعل من نفسه منظمة عسكرية ، وظل دائماً أقرب إلى الحياة الاجتماعية المعتدلة . كذلك نلاحظ أن الديرية البندكتية تجنبت التطرف وظلت بعيدة عن حياة الصرامة والخشونة التى اشتهرت بها الرهبانية الشرقية فى وقت ما ، بحيث

(1) Kire : op. cit ; p. 229.

(2) Workman : op. cit. p. p. 146-147.

(3) Kire : op. cit ; p. 229.

(4) Workman : op. cit ; p. 149.

أن الراهب البندكتي كان يحيا حياة لا تختلف كثيرا في مستواها عن حياته العادية لو قدر له أن يبقى خارج سلك الديرية^(١). والفارق الوحيد بين الحياتين هو الشعور الديني الذي سيطر على الحياة الديرية سيطرة تامة. ومع أن العبادة المشتركة تمثل المظهر الأساسي لحياة الرهبان داخل الدير البندكتي، إلا أن هذا النظام امتاز بمظهر آخر لا يقل أهمية، وهو اشتراك الرهبان في العمل الزراعي وغير الزراعي لاعتقاد بندكت في أن « الكسل عدو الروح »، حتى فاقت الساعات المخصصة للعمل تلك المحدودة للعبادة. ولعل خير ما قاله بندكت في هذه الناحية هو مثله المعروف « Laborare est orare عبادة العمل »^(٢).

وقد ظل النظام البندكتي يمثل أكبر قوة فعالة في الحياة الديرية في العصور الوسطى، بل إنه يمثل ثورة كبرى في تلك الحياة. ويكفي أن هذا النظام أعرض عن حياة الزهد والتعشف ونبذ مبدأ التطرف في حرمان الجسد، في الوقت الذي لم يجعل الرهبان يوجهون كل نشاطهم نحو التأمل والعبادة ويهملون العمل والإنتاج^(٣). وهكذا جاء هذا النظام ملائما من جميع الوجوه للحياة الغربية في العصور الوسطى، الأمر الذي أدى إلى انتشاره انتشارا سريعا واسعا في مختلف أنحاء الغرب الأوروبي^(٤). على أن نباح النظام البندكتي لا يرجع فقط إلى المزايا العديدة التي امتاز بها بالقياس إلى فوضى الحياة الديرية في العهود السابقة؛ وإنما يرجع هذا النجاح أيضا إلى ارتباط ذلك النظام الديرى بثلاث حركات كان لها شأن كبير في العصور الوسطى. أما هذه الحركات التي ربط النظام البندكتي نفسه بها فأولاها حركة نمو البابوية وتطورها، وثانيها الحركة التبشيرية الواسعة التي قامت بها الكنيسة الغربية، وثالثها حركة الإحياء الحضاري في أوروبا^(٥).

(1) Eyre : op. cit. ; p. 230 & Workman : op. cit., p. 160.

(2) Workman : op. cit., p. 156.

(3) Howell-Smith : op. cit. p. p. 660-661.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 658.

(5) Workman : op. cit., p. 162.

على أنه يلاحظ أن الفكرة الأساسية في التنظيم البندكتي قامت على أساس الاستقلال الذاتي لكل دير، فيكفى الدير نفسه بنفسه ويصبح مأوى دائماً لأعضائه، يعيشون داخله في شبه عزلة تامة عن غيرهم. ومن الواضح أن لهذا الاتجاه محاسنه وعيوبه، فهو من ناحية يكفل لأهل الدير قدراً كافياً من حرية التطور، ولكنه من ناحية أخرى يؤدي إلى الحد من نفوذ الحياة الديرية، ويجعل أثرها سلبياً في المجتمع الإنساني الكبير^(١)، هذا إلى أن عزلة الدير البندكتي عرضته في كثير من الأحيان للانحلال والتدهور، حتى يقال إن اثنين من رهبان دير فارفا Farfa قتلوا مقدم الدير سنة ٩٣٦ وفرضا سيطرتهم على الدير حيث عاشا عيشة أقرب إلى الأمراء، فصار لكل منهما زوجته وأولاده وأتباعه الذين ينعمون بخيرات الدير وضياعه^(٢). فإذا أضفنا إلى ذلك أن عزلة الدير البندكتي لم تمكنه من حماية نفسه واستقلالة ضد تدخل السلطة العلمانية، لا سيما في العصر المظلم الذي أعقب تفكك امبراطورية شارلمان؛ أدركنا في النهاية أن الحياة الديرية في غرب أوروبا أمست عند نهاية القرن التاسع مفتقرة إلى إصلاح شامل سريع يعالج هذه العيوب^(٣).

وكان أن تحققت حركة الإصلاح المنشودة في القرن العاشر، وهي الحركة العظيمة التي عرفت باسم حركة الإصلاح الكلوونية، والتي تمثل الدور الثاني في تاريخ الديرية الغربية. وقد انبعثت هذه الحركة الإصلاحية من غاليا، ثم أدخلت عليها تعديلات كثيرة في إنجلترا بعد أن أصبح لانفرانك Lanfranc — أستاذ دير بك Bec المعروف — رئيساً لأسقفية كانتربروري في القرن الحادى عشر^(٤). أما الأهداف الأساسية للحركة الكلوونية فكانت ترمى إلى فرض قسط أكبر من الرقابة على أهل الدير، ووضع حد للتهاون الذى ساد الحياة

(1) Eyre : op. cit., 231.

(2) Workman : op. cit., p. 233-234.

(3) Howell-Smith : op. cit., p. 684.

(4) Workman : op. cit., p. 220-223.

الديرية حينئذ ؛ وذلك عن طريق إخضاع جميع الأديرة التابعة للمنظمة الجديدة للإشراف موحد ، فضلا عن تحديد أعباء الحياة الديرية تحديدا واضحا^(١) .

وقد نسبت هذه الحركة الجديدة إلى دير كلوني في برجنديا ، وهو الدير الذي قام بدور هام في عملية الإصلاح الكنسي التي أنقذت غرب أوروبا من المصائب التي ألمت به في أشد سنوات العصور الوسطى حلكة وظلاما^(٢) . وكان الهدف الأول للزعماء الذين تولوا رئاسة دير كلوني هو إصلاح الكنيسة عن طريق تحريرها من سيطرة الحكام العلمانيين ونفوذهم . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، استطاع دير كلوني — الذي لم يكن يمتاز في أول الأمر عن غيره من الأديرة البندكية العادية — أن يتزعم شبكة مترابطة أو حلفا متماسكا من الأديرة ذات الطابع الخاص^(٣) .. وأول مميزات هذا الطابع هو أن الأديرة الكلوونية لم تكن هيئات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض ، وإنما كان يرأسها رؤساء يعينهم مقدم دير كلوني ويخضعون له خضوعا مباشرا ؛ وبعبارة أخرى أصبح دير كلوني بمثابة الدير الأم أو الدير الرئيسي العام في هذا التنظيم الجديد^(٤) . وثمة ميزة أخرى امتاز بها النظام الكلووني وهي أن جميع الأديرة الكلوونية نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين لتصبح المنظمة الديرية الكلوونية تحت سيطرة البابا المباشرة^(٥) .

أما عن آثار الحركة الكلوونية فكانت عظيمة فيما يتعلق بإصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية في شئونها^(٦) . على أن الذي يهمننا في هذا المقام هو أثر الحركة الكلوونية في الحياة

(1) Eyre : op.cit ; p 232 .

(2) Fliche : L'Europe Occidentale ; p p. 121-124.

(3) Cam. Med. Hist, vol 5; p, p. 662-664

(4) Howell-Smith : op. cit.; p. 685.

(5) Cam. Med. Hist 5; p 667.

(6) Fliche : L'Europe Occidentale ; p, p. 124-127.

الديرية ونظمها . وهنا نجد أن هذه الحركة نفخت في الحياة الديرية روحا قوية أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة بفضل الشخصيات الممتازة التي تولت رئاسة دير كلوني مثل القديس أودو (ت ٩٤٣) من ناحية ، وبفضل حماسة الرهبان الكلونيين من ناحية أخرى^(١) . ولم تلبث هذه الأديرة أن انتشرت في شمال غرب أوروبا وفي إنجلترا نفسها بعد الغزو النورمانى في القرن الحادى عشر^(٢) ، بحيث لم يقل عددها عن مائتى دير خضع رؤساؤها خضوعا مباشرا لمقدم دير كلوني . ولا شك في أن هذه الرابطة القوية بين الأديرة الكلونية تركت أثرا عميقا في الحياة الديرية في الغرب . ذلك أن النظام الكاونى اهتم اهتماما خاصا بأن يحيا الديرىون حياة زهد ، وأن يحذوا جميعهم حذو أهل دير كلوني فيقللوا من أهمية العمل والساعات المخصصة له داخل الدير ويضاعفوا عنايتهم بالتعبد . وجميع هذه الاتجاهات كان لها أثر فعال في الحياة الديرية في غرب أوروبا ، حتى في الأديرة التي لم تدخل دائرة النظام الكلونى^(٣) .

على أن عوامل الانحلال والفساد سرعان ما تطرقت إلى الحياة الديرية مرة أخرى ، فأخذ الديرىون يحيون حياة مترفة ويسرفون في تناول الفاخر من الطعام والشراب وارتداء الثمين من الملابس ، في الوقت الذى جنحوا إلى حياة البطالة والكسل^(٤) . هذا فضلا عن أن النظام الكاونى كانت تكمن فيه نقطة ضعف خطيرة هى إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة التابعة لهذا النظام على كاهل مقدم دير كلوني^(٥) . ومعنى هذا التركيز أنه إذا حاد الأخير عن جادة الصواب فإن ذلك يؤدى إلى انحراف بقية الأديرة الكلونية هى الأخرى عن الطريق السوى . وفعلا حدث ذلك في أوائل القرن الثانى عشر ، عندما انتهت سلسلة مقدمى دير كلوني

(1) Cam Med. Hist; vol. 5, p p. 662-663

(2) Eyre : op. cit.; p. p. 232-233.

(3) Idem; p. 233.

(4) Howell-Smith : op. cit; p, p 685-686 .

(5) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p 164.

المهزين وبدأت سلسلة أخرى من الرؤساء الضعاف ، فاحل دير كلوني نفسه وتبع ذلك انحلال بقية الأديرة التابعة له^(١) .

ولم تلبث هذه الأوضاع أن دفعت فئة من الساخطين المرغبين في الإصلاح إلى البحث عن حياة أكثر بساطة من حياة الدير الكلوني ، مما أدى إلى مولد أنظمة ديرية جديدة . ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولي Camaldoli^(٢) الذي اعترفت به البابوية سنة ١٠٧٢ . وفي هذه المنظمة الديرية كان الرهبان يجهون حياة نساك في خلايا منفصلة يقضون وقتهم في التأمل ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة المشتركة^(٣) . وهناك نظام ديرى آخر أكثر أهمية ظهر في القرن الحادى عشر هو الكارثوسيان — نسبة إلى محراء كارتريز — حيث أسس برنونا الكولوني أول دير من هذا النوع سنة ١٠٨٤ . وقد امتاز هذا النظام الديرى بالصرامة والتطرف في حياة الزهد والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة الانفرادية^(٤) . ومهما كان أمر هذه المنظمات الديرية الجديدة ، ومدى انتشارها وأثرها ، فالمهم هو أنها تمثل رد فعل قوى للمبادئ والمثل الكلونية ، مما يجعلنا نقرر أن الطابع الغالب على الحياة الديرية في غرب أوربا طوال القرنين العاشر والحادى عشر كان الطابع الكلوني^(٥) .

والواقع أن نظام الديرية الكلونية ظلت له السيادة على الغرب الأوروبى حتى أوائل القرن الثانى عشر ، عند ما بدأ الدور الثالث في تاريخ تطور الحركة الديرية في غرب أوربا . وجاء هذا الدور الجديد أيضاً وليد رغبة خالصة في إصلاح الأوضاع القائمة ، وهى الرغبة التى انبعثت هذه المرة من دير سيتو Citeaux في

(1) Workman op. cit. ; p. p 236.

(٢) كامالدولى جبل منزى قرب أروزو Arozzo .

(3) Cam Med. Hist.; vol. 5; p 667

(4) Thompson op. cit. vol. 2; p. 667.

(5) Eyre : op. cit.; p. 233.

(م ٣ — اوربا المصور الوسطى ج ٢)

برجنديا^(١) . وكان دير سيتو هذا قد تم تأسيسه سنة ١٠٩٨ بواسطة جماعة من الرهبان البندكتيين الذين رغبوا في حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذ . ولم يلبث أن أخذ هذا الدير يرقى ويتقدم بسرعة بفضل العهد أو القانون (Gharta Charitati) الذي وضعه ستفن هاردنج (Stephen Harding) الأنجليزى ثالث رؤسائه ؛ واستمر ذلك حتى كانت سنة ١١١٥ عند ما التحق القديس برنارد العظيم بذلك الدير^(٢) .

ويمكن القول بأن هذا النظام الديرى الجديد الذى عرف باسم السسترشيان Cistercian كان محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال الحلى الذى تمثل في الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلوونية . لذلك أصبح مقدم دير سيتو هو الرئيس الأعلى لأديرة المنظمة الديرية الجديدة — السسترشيان — وله سلطة زيارة الأديرة التى تفرعت عنه لمراقبتها والتفتيش عليها^(٣) . ومن جهة أخرى فإن رؤساء هذه الأديرة كان لهم حق زيارة الدير الأم — سيتو — وتفقد أحواله . وهنا يلاحظ أن كل دير من أديرة السسترشيان كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالدير الذى تفرع عنه فقط دون غيره من بقية أديرة المنظمة^(٤) . وفي كل سنة يعقد مجمع عام في دير سيتو يحضره جميع مقدى أديرة هذه المنظمة ، ولهذا المجمع سلطة فعالة في المسائل التى تهتم هيئة السسترشيان^(٥) .

ومن هذا يبدو أن نظام السسترشيان خول لكل دير ساطة محدودة اختلفت عما تتمتع به مقدم الدير البندكتى من نفوذ مطلق ، كما اختلفت عما تعرض له مقدم الدير الكلوونى من تبعية تامة لرئيس المنظمة الأعلى^(٦) . ولم يابث نظام

(1) Cam. Med. Hist.; vol 5; p. 172.

(2) Workman ; op. cit.; p. 231

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 145

(4) Cam. Med. Hist; vol 5; P. 1. 673-674.

(5) Workman ; op. cit ; P. 243.

(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 145.

السستر شيان أن نما في سرعة فائقة وانتشر في جميع أنحاء غرب أوربا بفضل مميزاته الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد من ناحية أخرى . ولا غرو ، فإن هذا القديس (١٠٩١ — ١١٥٣) أضحى عند أواخر أيامه أعظم شخصية في أوربا ، كما كان المستشار والصديق الشخصي للبابا ايوجنيوس الثالث . وأهم القواعد التي اكتتمت لنظام السسترشيان على عهد القديس برنارد هي امتياز هذه الحياة الديرية بالبساطة المطلقة ، فروعى في الأديرة السسترشيانة أن تكون متباعدة وفي مناطق نائية ، وألا تمتلك حقولا آهلة بالافنان حتى ينصرف الديرىون لقلاحة الأرض بأنفسهم . وهكذا أدى الرهبان السسترشيان خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية في أوربا باستصلاح الأرض البور وفلاحتها فضلا عن العناية بتربية الخيول ، والمواشى ^(١) . وقد أحرز هذا الفريق من الديرين شهرة كبيرة في يوركشير بوجه خاص نتيجة لعنايتهم بأصواف الأغنام ، حتى أصبحت تجارة الصوف محور الحياة الاقتصادية في هذا الإقليم . أما في برجنديا — حول ديرهم الرئيسى فى سيتو — فقد أصبح السسترشيان يمتلكون أعظم مزارع الكروم وأشهرها . على أن هذا النشاط الاقتصادى وما تبعه من ازدياد ثروة السسترشيان ، سرعان ما أدى إلى تغلب الروح التجارية على هذا الفريق من الديرين ، حتى انساقوا في الطريق نفسه الذى انزلت إليه المنظمات الديرية السابقة ، وذلك منذ نهاية القرن الثانى عشر ^(٢) . وهكذا يمكن القول أنه بوفاة القديس برنارد سنة ١١٥٣ انقضى العصر الذهبى لمنظمة السسترشيان ونظامهم الديرى ^(٣) .

و بعد ، فاعلم من الواضح بعد هذا العرض السريع لتاريخ الديرية ونظمها في غرب أوربا ، أن الطابع الرئيسى للحياة الديرية يكمن فى أنها نبعت من مصدر

(1) Workman : op. cit. ; P. P 241-244.

(2) Idem; P. P. 245-246.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 5; P. 676-677.

واحد هو نظام القديس بندكت . وعن هذا الأصل تفرعت الغالبية العظمى من الأنظمة الديرية التي عرفت في أوروبا العصور الوسطى نتيجة للرغبة في الإصلاح والتعديل بين حين وآخر^(١) . ولا شك في أن اتساع مجال الحركة الديرية في أوروبا العصور الوسطى وسرعة انتشارها ، وتنوع صورها ، ترك أثراً واضحاً في جميع مناحي الحياة في تلك العصور . ذلك أن الديرين صاروا يكونون ركناً كبيراً في المجتمع الأوربي ، حتى أصبحت تعليمهم وأعمالهم تمثل جزءاً أساسياً من حياة المجتمع الغربي بأكمله . وحسب الديرين أنهم شاركوا مشاركة فعالة في عملية البناء والإنتاج التي حفظت للحضارة الغربية كيانها بعد غزوات البرابرة منذ القرن الخامس ، كما بذلوا جهداً مشكوراً في صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التي لحقت بغرب أوروبا في القرن التاسع . وإذا كان غرب أوروبا قد تمتع بنهضة حضارية كبرى في القرن الثاني عشر فالفضل الأول في ذلك يرجع إلى الديرين الذين مهدوا لهذه النهضة بمجهودهم ومساعدتهم^(٢) . ففي وسط مظاهر عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي سادت غرب أوروبا في السنوات المظلمة ، ظلت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد في المجتمع الغربي ، وتلا ذلك أن تنقل التراث الحضاري من السلف إلى الخلف . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الأديرة أمدت المجتمع الغربي « بنخبة حضارية » بين القرنين السادس والثاني عشر^(٣) . ذلك أنها أصبحت — بحكم استقرارها وسط مجتمع مذبذب متقلب — مركز العلم والدراسة مما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معاني الكلمة . حقيقة إن المقصود بالعمل الديرى الذى نص عليه نظام القديس بندكت هو الفلاحة والعمل الزراعى لالنشاط الثقافى والفكرى ، ولكننا إذا حاولنا وضع سجل لرجال المعرفة والأدب في العصور المظلمة ، وجدناهم — جميعهم تقريباً — من الديرين . وهكذا نستطيع

(1) Taylor : The Med. Mind; vol.1, P. 375.

(2) Eyre : op. cit ; P. 238.

(3) Workman : op. cit.; P.P. 158-162.

أن تؤكده حقيقة قاطعة، هي أن الأديرة في غرب أوربا كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة، فضلاً عن الفنون، فيما بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن الحادى عشر. وحسبنا أن جميع كبار المؤرخين في تلك الحقبة كانوا من الديرين، وعلى رأسهم بدى Bede الذى يعتبر بحق رائد فن التدوين التاريخى (historiography) وأبا للمؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى (٦٧٥-٧٣٥)^(١). أما التعليم في ذلك العصر فكان دبيرياً إلى مدى بعيد، حتى أن برامج الدراسات التى وضعها الديرين في العصور المظلمة ظلت باقية ليعتمد عليها رجال الجامعات الناشئة في القرن الثانى عشر. وهنا نشير إلى أن الأديرة البندكتية بوجه خاص كانت بمثابة مدارس عظيمة الأهمية، فدير مونت كاسينو نفسه أضجى في القرن الحادى عشر مركزاً أساسياً لدراسة اللاهوت والعلوم الكلاسيكية، فضلاً عن القانون والطب والأدب والنحو^(٢). أما دير بك Rec في غاليا فقد قام بدور في النشاط العلمى والحضارى يضيق المقام عن شرحه. وإذا كان هذا هو حال الأديرة في صلب القارة فإن الأديرة الأيرلندية (الكتلية) أصبحت هى الأخرى في العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب (سنة ٤٧٦) مركزاً للعلوم الكلاسيكية والمعارف اليونانية، ومنها امتد ضوء الحضارة إلى غرب أوربا ليثير ما يعرف باسم النهضة الكارولنجية^(٣). وقد ظل الوضع على ذلك حتى نشأة النظام الكلونى، وعندئذ بدأ التعليم في غرب أوربا ينتقل من أيدي الديرين تدريجياً لانصراف الأديرة الكلونية إلى العبادة وإهمال ماعداها، وهذا وإن ظل أثر التعليم الديرى قائماً مدة طويلة بعد ذلك. وخلاصة القول أنه لولا الأديرة لتناقص التراث الثقافى الذى خلفته لنا أوربا العصور الوسطى إلى حد كبير، لأن الديرين هم الذين حفظوا ذلك التراث من الضياع، واستمروا يضطلعون

(1) Poole : Illustrations of the Hist. of Med. Thought; P. 17-18.

(2) Taylor : The Med. Mind, P. 254.

(3) Workman : op. cit.; P. P. 190-200.

بمهمة تعليم غرب أوربا حتى مطلع النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، وعندئذ ظهرت الجامعات الأوربية لتحمل لواء العلم والمعرفة^(١) .

وهناك ميدان حضارى آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر فى أوربا : العصور الوسطى . ذلك أن مهمة نشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية ، لم يقيم بها كبار الفاتحين من أمثال شارلمان وألفرد العظيم (٨٤٨ — ٨٩٩) وحدهم ، وإنما كانت بعثات الديرين وجهودهم تساند جيوش هؤلاء الغزاة وتسير خلفها لتنشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية بين الشعوب الوثنية . وحسبنا أن نذكر أن البابا جريجورى الأول (العظيم) صاحب البعثات التبشيرية المعروفة — كان راهبا ، كما أن الأبحاث الحديثة تميل إلى تأكيد الحقيقة القائلة بأن القديس أوغسطين مبعوث جريجورى العظيم الذى حول انجلترا إلى المسيحية فى أواخر القرن السادس كان — هو ورفقاؤه -- من الرهبان البندكتيين^(٢) . هذا زيادة عما قامت به الأديرة الكاتبة فى ايرلند من جهود تبشيرية واسعة النطاق داخل جزيرتهم ثم خارجها منذ القرن السادس ؛ بل إن رسالة هؤلاء الرهبان لم تقتصر على صلب القارة وإنما امتدت إلى جزر فاروى وإيسلاند وغيرها من المناطق النائية^(٣) .

على أنه إذا كان الديرين قد عملوا جنبا إلى جنب مع الجنود فى الذود عن الحضارة الغربية ونشر هذه الحضارة بعيدا بين الشعوب الوثنية ، مما طبع حروب العصور المظلمة بطابعها الخاص المميز ، فإن الديرية كان لها أثرها أيضا فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى أصابته بلدان غرب أوربا فى تلك العصور^(٤) . وهنا نلاحظ أن المؤسسات الدينية — وبخاصة الديرية — كانت من أولى الهيئات التى منحها ملوك الغرب كثيراً من الإعفاءات والامتيازات ، حتى امتلكت

(1) Adamson : The Legacy of The Middle Ages; P. 258.

(2) Workman : op. cit.; P. P. 172-173.

(3) Idem; P.P. 199-201.

(4) Fyfe : op. cit.; P. 240.

الأديرة أكبر نسبة من الأراضي الزراعية في أوروبا العصور الوسطى . ولا شك في أن هذه الثروة المتزايدة التي هبطت على الأديرة جاءت متعارضة مع مثالية القديس بندكت وآرائه ، كما أنها كانت العامل الأول في تحريك الرغبة نحو إصلاح الحياة الديرية بين حين وآخر . على أنه إذا كان الدير يوقد قد استغلوا نفوذهم ومكانتهم للحصول على ملكيات واسعة من الأراضي ، فإنه ينبغي ألا يغيب عن بالنا أنهم كانوا في ذلك العصر يمثلون أقدر الملاك الزراعيين وأكثرهم خبرة وكفاءة^(١) .

و بعبارة أخرى فإن عناية الأديرة — وبخاصة البندكتية — بالعمل كانت في حد ذاتها عاملا من عوامل التمدن ومظهرا من مظاهر الانتاج الحضارى والاستقرار السلمى^(٢) . وتشهد سجلات الأديرة — وهى السجلات التى أصبحت فيما بعد مصدرا نفسيا من مصادر التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى — على مدى العناية والكفاية التى كانت تدبير بها الأديرة ضياعها وممتلكاتها الواسعة^(٣) . حقيقة إن الفلاح أو العامل الزراعى ظل يعانى فى غرب أوروبا حتى القرن الثانى عشر كثيرا من المتاعب التى يعانىها الفلاحون فى كل مكان ، ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع الحكم بأن الديرين فعلوا الكثير من أجل السمو بالعمل الزراعى وأضفوا على هذا النوع من العمل مكانة خاصة لم تنهأ له فى العصور السابقة^(٤) . هذا زيادة على أن الديرين فى العصور الأولى كانوا ينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع — بما فيها طبقة النبلاء — فكان منهم نسبة غير صغيرة تمتاز بالعلم وطيبة الأصل . ومثل هؤلاء عندما يسكنون القاس ويعملون فى الأرض كانوا يضررون لغيرهم من الناس فى البيئات المجاورة مثلا فريدا له أهميته فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية .

(1) Workman : op. cit ; P P, 155-158.

(2) Boissonnade : Life and Work in Med. Europe; P 69.

(3) Boissonnade : op. cit.; P. ٤6-69.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 149

أما في الميدان الصناعى ، فإن كثيرا من الأديرة أضحت مراكز صناعية روعى فيها التخصص في العمل ، ومن هذه الأديرة دير كوربي الذى كانت به أربع مصانع يدوية صغيرة (ورش) ، ودير سانت ركوير الذى قامت حوله مدينة صناعية تصنع فيها السروج والأسلحة والجلود وغيرها^(١) .

وهكذا يبدو لنا أن الدور الذى قام به الديرين في بناء مجتمع أوربي منظم خلال العصور المظلمة أعظم من أن يقدر في سهولة .

الحياة الديرية أواخر العصور الوسطى :

يمكننا أن نخرج مما سبق بأن مقدم الدير أو رئيسه أصبح شخصية هامة في المجتمع العلماني المعاصر نتيجة للدور الكبير الذى قامت به الأديرة في الحياة الإقطاعية من ناحية وللضياح الواسعة التي امتلكتها الأديرة من ناحية أخرى . ذلك أن مقدم الدير غدا عضواً بارزاً في الارستقراطية الإقطاعية ، أو بعبارة أخرى غدا سيداً إقطاعياً كبيراً بكل معاني الكلمة^(٢) . وعلى هذا الأساس اكتسب مقدمو الأديرة مكانة كبيرة في مختلف الممالك الغربية التي قامت فيها أديرتهم ، حتى أصبح الملوك يهتمون بأمر تعيينهم ، كما غدا تعيين هؤلاء الرؤساء محور خلاف وجدل وتنافس بين السلطين الزمنية والدينية . فإذا تم تعيين مقدم لأحد الأديرة الكبيرة فإنه كان يحكم مركزه وإمكانات ديره يقوم بدور هام في سياسة الدولة ، بل ربما أصبح من مستشاري الملك وعندئذ يزداد النفوذ الديرى في السياسة الزمنية . وهكذا أخذ يتحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية ، مبتعدين عن المثل والمبادئ الديرية ، مما أدى إلى فساد الحياة الديرية بأكملها في أواخر العصور الوسطى^(٣) .

(1) Boissonnade : op. cit.; P. 104.

(2) Eyre : op. cit.; P. 241.

(3) Idem; P. 242.

هذا بالإضافة إلى أن ازدياد الأراضى التى امتلكتها الأديرة أدى فى القرن الثانى عشر إلى تطور المركز الاجتماعى لرهبان الأديرة أنفسهم . ذلك أنه جرت العادة فى الأديرة الكبرى أن تقسم ممتلكاتها بين مقدم الدير وبقية رهبانه ، مما ترتب عليه تحول الديرين إلى أرستقراطية ممتازة من السادة الملاك دون أن يفتح الدير أبوابه إلا لطبقة معينة فقط خشية توزيع أراضيه بين عدد كبير من الأفراد . وقد أثار هذا الوضع شعور كثير من المسيحيين المخلصين الذين ساءهم ما أصبح عليه رجال الدين من ثروة وغنى ، مخالفين بذلك تعاليم المسيحية وبساطتها الأولى ، الأمر الذى ظهر صداه فى الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر من ناحية ، وفى ظهور منظمات الإخوان الرهبان (Frairs) أو الرهبان الفقراء Mendicant Orders من ناحية أخرى^(١) .

ويرجع الفضل فى تأسيس منظمات الإخوان الفقراء فى أوائل القرن الثالث عشر إلى اثنين من القديسين ، هما القديس فرانسيس والقديس دومنيك^(٢) . أما الأول فقد حاول مع أتباعه أن يقتدى بالمسيح فى بساطته ، فنبذوا جميع متاع الدنيا وأخذوا يتنقلون من مكان إلى آخر فى أوربا لوعظ الناس وتبشيرهم بالإنجيل معتمدين على ما يجود به عليهم الخيرون من فئات العيش^(٣) . ولم تلبث أن نجحت هذه الحركة التى تبلورت فى منظمة الإخوان الفرانسيسكان حتى اعترف بها البابا أنوسنت الثالث ؛ ثم كان التصديق على لائحتها سنة ١٢٢٣ . وفى نفس الوقت نشأت منظمة أخرى فى جنوب فرنسا من منظمات الإخوان الفقراء ، وهى الهيئة التى أسسها القديس دومنيك^(٤) . وقد حاول دومنيك هذا — وهو أسباني الأصل — أن يقنع المراهقة فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا بالعودة إلى داخل

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 6; P. 727.

(2) Workman + op. cit.; P. 271.

(3) Idem; P. P. 282-288.

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 6; P. 737.

حظيرة الكنيسة الغربية ، وذلك عن طريق الوعظ والتبشير^(١) . لذلك اتبع مع أتباعه أسلوب الفقر المطلق نفسه ، فاستقر جماعة منهم في تولوز سنة ١٢١٦ واعترف البابا هونوريوس الثالث بهيئتهم بعد قليل^(٢) .

ولكن لم تلبث هيئات الإخوان الرهبان — وبخاصة الفرانسكان والدومينكان — أن ازداد نفوذها ، وتكاثر مؤسساتها ، وتمحلت عن مبادئها الأولى في الفقر والتقشف^(٣) ، لتلعب دوراً عظيماً في الحياة الأوروبية أواخر العصور الوسطى ولا سيما فيما يتعلق بالنشاط الفكري المرتبط بنشأة الجامعات^(٤) فضلاً عن النشاط التبشيري بين المغول في آسيا^(٥) ؛ حتى أطلق على القرنين الثالث عشر والرابع عشر « عصر الإخوان الرهبان (الفرير) » .

(1) Eyre : op. cit.; P. 243.

(2) Workman : op. cit.; P. 276.

(3) Boissonnade : op. cit; P. 244.

(4) Taylor : The Med. Mind, vol. 2; P.P. 416-417.

وأشار كذلك كتاب الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى للدؤلف (تمت الطبع) .

(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 321.

الباب الثاني

النظام الاقطاعى

نشأة النظام الاقطاعى وتطوره :

رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ما كان من قيام امبراطورية شارلمان العظيمة ، ثم تنسكك هذه الامبراطورية فى القرن التاسع . والواقع أنه يمكن تفسير هذا التفسكك السياسى فى ضوء الانحلال الاجتماعى الذى أصاب جوف الامبراطورية من جهة ، ثم فى ضوء الهجمات الهدامة التى تعرضت لها الامبراطورية من الخارج من جهة أخرى^(١) . أما عن حركة الانحلال الداخلى فهى حركة معقدة ، جرى العرف على تسميتها التطور الإقطاعى ، وهو اصطلاح معقد مبهم ، بل هو أكثر تعقيداً وإبهاماً مما يظن الكثيرون .

ذلك أن التطور الإقطاعى يرتبط ارتباطاً قوياً بالحياة الأوربية فى العصور الوسطى من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل الدينية ، الأمر الذى يجعل علاج موضوع هذا التطور أمراً شائكاً عسيراً . ومهما كان الأمر ، فإن النظام الإقطاعى فى غرب أوربا بلغ فى القرن التاسع مرحلة حاسمة حرجة من مراحل نموه وتطوره ، جعلت بعض المؤرخين يعتبرونه مسئولاً عن سقوط امبراطورية شارلمان^(٢) .

ولكى نفهم نشأة النظام الإقطاعى فى الغرب ، يجب أن نذكر أن البناء

(١) Thompson : op. cit.; vol.; P.P. 279-280.

(2) Eyre : op. cit.; P. 100.

الاجتماعى لغرب أوروبا فى العصور المظلمة جاء نتيجة لتداخل شعوب قبلية — من الجرمان وغير الجرمان — فى محيط سياسى واجتماعى لا يقوم على أسس قبلية. وليس هناك من شك فى أن هؤلاء البرابرة الذين دخلوا الامبراطورية الرومانية جلبوا معهم كثيراً من عناصر التنظيم القبلى ، ولا سيما فيما يتعلق بتقديس رابطة الدم . وهنا نلاحظ أن المجتمع القبلى أبعد دائماً عن أن يكون ديمقراطياً ، لا لأنه يقوم على أساس احترام سلطة رئيس القبيلة أو العشيرة احتراماً مطلقاً فحسب ، بل لأن الفرد ذا العصبية القوية فيه يسود دائماً ويتغلب على ضعاف العصبية . هذا إلى أن استخدام العبيد كان أمراً مألوفاً عند شعوب الجرمان القبلية. ، وهذه كلها عناصر لها أهميتها وقيمتها فى التنظيم الإقطاعى ^(١) .

على أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الملكية تكون دائماً ضعيفة فى المجتمع القبلى ، لأن القوة الحقيقية فى ذلك المجتمع تكمن فى سلطة زعماء القبائل والعشائر . وإذا كانت بعض الملكيات الجرمانية — كالملكية الميروفنجية مثلاً — نمت فى غرب أوروبا ، فإن هذا النمو جاء نتيجة لتأثر هؤلاء الجرمان بروح الاستقرار والنظريات الرومانية السائدة فى البلاد التى استقروا فيها . ولم يابث هذا الاستقرار الذى نعمت به القبائل الجرمانية غداة اقتحامها العالم الرومانى أن أثر بدوره فى تنظيمها الاجتماعى ، لأن اتساع رقعة البلاد التى حكمها ملوك الجرمان ، مع انتشار عوامل الفوضى التى سادت ذلك العصر أدت إلى إفلات الزمام من أيديهم تدريجياً . وهكذا يبدو أنه فى الوقت الذى هيات بعض الظروف لملوك الجرمان قدراً متزايداً من السلطان والنفوذ ، اضطر هؤلاء الملوك — تحت ضغط ظروف أخرى — إلى التخلي عن هذه السلطة وذلك النفوذ وتفويضها لمن ينوب عنهم ^(٢) .

وقد يلاحظ القارئ أننا اخترنا فى الأسطر السابقة أن نضرب المثل بملوك دولة الفرنجة عند الكلام عن البذور الأولى للنظام الإقطاعى . والواقع أن هذه

(1) Idem; P. 101.

(2) Idem; P. 102.

الإشارة المقصودة جاءت لأن تاريخ دول الفرنجة في غالبا يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التي يمكن تسميتها إقطاعية والتي تعتبر جذوراً للنظام الإقطاعي^(١). فمن المعروف أن محاربي الفرنجة كانوا من المشاة بوجه عام ، وإن اعتاد الملوك والنبلاء أن يمتطوا صهوة جيادهم في وقت الحرب^(٢). واستمر الوضع على ذلك حتى حاول شارل مارتل أن يتوسع في نظام الخيالة ليجعل جيشه قوة فعالة في ميدان الحرب ، وعندئذ استكشف أن تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج إليه الفارس من حصان ودرع وسلاح ، فضلا عن أن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشئون الحرب والقتال^(٣). ولما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة في القرن الثامن بحيث لا تفي بكل هذه المطالب ، فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر ؛ فسجل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء ثم أعطي كلا منهم إقطاعا يكفي لسد مطالب معيشته على أن يبقى هذا الإقطاع في حوزته مادام يقوم بالخدمة العسكرية^(٤). وعندما وجد شارل مارتل أنه من الصعب توافر الأرض اللازمة لهذا العدد الكبير من الفرسان ، وأنه لا يستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الأراضي الملكية على الجند ، بدأ يتطلع إلى أراضى الكنيسة ليجبر رجالها على منح إقطاعات من الأرض لجنوده . وعن هذا الطريق تمكن شارل مارتل من التغلب على ما واجهه من صعاب ، فكون جيشاً قوياً من الفرسان استغله في طرد المسلمين من جنوب غالبا وفي محاربة السكسون في الشمال . والمهم في أمر هذا التنظيم الذي وضعه شارل مارتل لجيشه والذي اقتنى أثره فيه يبين القصير ثم شارلمان ، أنه قام على أساس إقطاعي واضح^(٥).

(1) Ganshof : Feudalism; P. 3.

(2) Painter : A Hist of the Middle Ages; P. 70.

(3) Painter : Med. Society; P. 14.

(4) Ganshof : op. cit; P. 16 ; 16-17.

(5) Stephenson : Med. Feudalism; P. 11.

وإذا كانت بذور النظام الإقطاعي قد ظهرت في دولة الفرنجة في القرن الثامن فإن الظروف التي تعرضت لها هذه الممالك بوجه خاص وغرب أوروبا بوجه عام في القرن التاسع ساعدت على نمو هذا النظام وتفرعه . ذلك أن الحروب العنيفة التي قامت بين لويس التقي وابنائيه ، والتي استمرت بين الأبناء بعد وفاته بينهم كانت في حد ذاتها كافية لأن تثير جواً من الفوضى أصبحت فيه السكامة الأخيرة لقوة السلاح وحدها . ثم جاءت الأخطار الخارجية لتزيد من اضطراب الأوضاع ، لأن إغارات الفيكينج والمساكين والمجريرين على غرب أوروبا ووسطها في القرن التاسع جعات أهالي القرى والمدن والمؤسسات الدينية لا يأمنون على أنفسهم إلا في ظل القوة المسلحة^(١) . وفي هذه الأوضاع القاتمة أصبح لزاماً على الرجل العادي الحر أن يختار أحد طريقتين ؛ إما أن يصبح جندياً ، إما أن يصبح قناً ، لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوى يحميه ويزود عنه . وهكذا أخذ الملوك وكبار الأسراء وملاك الأراضي يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدهم في التغلب على ما واجههم من أخطار ؛ وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته وحاجة أسرته إلى منح هذه الزيادة — على هيئة أقطاعات — لاتباع له من الجنود^(٢) . أما صفار ملاك الأراضي فقد دفعهم هذه الفوضى الشاملة التي تعرض لها غرب أوروبا في القرن التاسع إلى الدخول في حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الذود عنهم ، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى ، ثم يعود فيتسلمها منه كإقطاع ، وبذلك يصبح فصلاً أو تابعاً إقطاعياً له . وكان يحتفل عادة بقيام علاقة إقطاعية بين سيد وفصله في حفل بسيط ، فيركع الفصل أمام سيده الإقطاعي ويضع يده بين يديه ، ثم يقسم على أن يظل تابعاً أميناً له ويؤدي كافة الخدمات والالتزامات الإقطاعية المتنوعة المفروضة على الإقطاع ، ويسمى هذا القسم « تين الولاء homagium » . و بعد ذلك يناوله السيد الإقطاعي حفنة من التراب إشارة إلى

(1) Thompson : op cit. ; vol. 1 ; P. 279.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale ; P.P. 162-163.

أنه سلمه الإقطاع فعلاً^(١). كما يسلم لفصله علماً وعكازاً وبراءة تثبت أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها؛ وتسمى هذه العملية « التقليد investitura »^(٢).

وهكذا أخذت تتكون في القرن التاسع طبقة من السادة الإقطاعيين والأفصال، فأصبح المحارب أو الفارس الصغير الذي لا يمتلك من الأرض إلا قدرًا بسيطاً فصلاً لملك أكبر — ربما كان كونت الإقليم...، في حين صار هذا الكونت فصلاً لملك أعظم، قد يكون الدوق أو الملك. على أن هذا النظام الهرمي الذي كان الملك في قمته والفارس العادي في أسفله، لم يكتمل بناؤه بالصورة التي قد نتصورها في القرن التاسع، إذ ظلت هناك كثير من أراضي الملكيات الحرة (allods) التي لم تدخل ضمن التنظيم الإقطاعي منتشرة في غرب أوروبا حتى القرن الثاني عشر^(٣).

وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه لم تكن هناك أية غضاضة في تلك العصور في أن يكون الفرد فصلاً لغيره، لأن هذا الفصل كان بدوره سيداً لمن هو دونه في الدرجة فصلاً عن أن هذه التبعية الإقطاعية تعني أن صاحبها عضو في طبقة المحاربين، وتبعاً لذلك يتصف بأخلاق الشجاعة والكرم والمروءة وهي الصفات التي عرف بها فرسان العصور الوسطى^(٤).

ومن الواضح أن عملية التطور الإقطاعي تعني تنازل السلطة المركزية في الدولة عن حقوقها وواجباتها بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار المحيطة بها، مما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوى النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات في مناطق معينة مقابل شروط خاصة^(٥). لذلك لا ينبغي أن يقتصر تفسيرنا لهذه

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 112.

(2) Cam Med. Hist ; vol 3; P. 450.

(3) Ganshof : op. cit ; P. 115 & Painter : Med. Society; P. 16.

(4) Stephenson : Med. Hist ; P. 234.

(5) Fliche : L'Europe Occidentale; P.P. 162-163.

العملية على جانبها الإقتصادي لأنها تمس في الواقع جميع أركان النظام السياسي في الدولة . فإذا أعلن الملك مثلاً تنازله عن حق جباية الضرائب في منطقة معينة لسيد معين ، فليس معنى ذلك أن الفلاحين في هذه المنطقة استراحوا من عبء هذه الضرائب ، لأن الذي حدث فعلاً هو أنهم استمروا يدفعون الضرائب المقررة نفسها ولكن للسيد الذي عينه الملك . وهكذا أصبح هذا السيد صاحب السيادة المباشرة وصاحب الحق في الحصول على الالتزامات المفروضة على هؤلاء الفلاحين^(١) . ومثل هذا الوضع يمكن أن يقال عن العدالة والقضاء ، لأن تنازل الملك عن حقوقه القضائية في منطقة معينة من بلاده لفرد من أفضاله ، يعنى قيام هذا الفرد بما كان ينبغي أن تقوم به السلطة الملكية في هذا الميدان ، فضلاً عن قيامه بجمع الرسوم القضائية من المتقاضين ؛ بمعنى أن الإقطاع كان يمثل أيضاً وحيدة قضائية يتمتع فيها السيد الإقطاعي بحقوق قضائية واسعة على أفضاله^(٢) . أما في الجانب الحربى فإن المنح الملكية الإقطاعية كانت تأتى مشروطة غالباً بأن يقوم الشخص المنعم عليه بمساعدة الملك ومناصرته في وقت الحاجة . ومعنى ذلك أنه إذا كان الملك ينتظر معونة أفضاله الكبار ، فإن هؤلاء الأفضال لا بد أن يعتمدوا بدورهم على أفضالهم في الحصول على هذه المعونة^(٣) .

وهنا نلاحظ أن الكنيسة قامت بدور كبير في هذه العملية الطويلة المعقدة . ذلك أن كبار ملاك الأراضي من الديريين ورجال الأسكروس كانوا يتمتعون بمكانة سامية فريدة في المجتمع ، الأمر الذي أحاط أشخاصهم وامتلاكاتهم بمسحة من القدسية . لذلك كان معظم المنح التي أنعم بها ملوك الجرمان من نصيب الأسقفيات الكبيرة ، ثم الأديرة العظيمة فيما بعد ، حتى يكتسب هؤلاء الملوك

(1) Lyre : op. cit.; P. 102.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 1, P 348.

(3) Ganshof : op. cit., P. 79.

تأييد رجال الدين وعطفهم^(١). ولكن يلاحظ فيما يتعلق بالإقطاعات الكنسية والديرية أنها كانت تعفى في معظم الحالات من الواجبات والالتزامات الإقطاعية ، ويكتفى بأن يقوم أفراد الهيئة الدينية المنعم عليها بالإقطاع بالدعاء للواهب أو الترحم عليه . هذا إلى أنه كان يحدث في كثير من الحالات أن يفى مقدم الدير أو الأسقف بالالتزامات العسكرية المفروضة على الإقطاع عن طريق توزيع جزء منه — أو كله — على أفصال جدد ينهضون بأعباء هذه الالتزامات^(٢).

وكانت أهم مظاهر تطور العلاقات الإقطاعية بين السادة الإقطاعيين وأفصالحهم هي تحول الإقطاع إلى منحة وراثية بعد أن كانت هذه المنحة في أول أمرها مؤقتة أو مرهونة بمدى الحياة . ومن الواضح أن هذه الخطوة جاءت نتيجة طبيعية لتعذر منع ابن الفصل من الاستيلاء على أقطاع أبيه بعد وفاته . وقد حدث عند ما أزمع شارل الأصغر السفر إلى روما ليتزوج امبراطوراً أن أصدر مرسوماً بأنه في حالة وفاة أحد أفصاله في غيابه فإن ابن ذلك الفصل له الحق في الاستيلاء على إقطاع أبيه^(٣). وهنا نلاحظ أن الالتزامات المفروضة على الفصل ظلت رهناً بمشيئة السيد الإقطاع طالما كان الإقطاع غير دائم ولا يورث ، أما وقد اتخذ الإقطاع صفة وراثية ، فإن هذه الالتزامات اتخذت شكلاً ثابتاً بموجب عقد عرفي حدد الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله . وثمة ملاحظة أخرى على مبدأ توزيع الإقطاع ؛ وهي أن الابن الأكبر وحده كان له حق الاستئثار بوراثنة الإقطاع. حقيقة إن الأرض يسهل تقسيمها ، ولكن الإقطاع كان وظيفة ، والوظيفة لا تقسم . فالإقطاع بمعناه وأهميته الحربية التي تقوم على أساس المسؤولية الشخصية ، يعتبر وظيفة ، ولذلك حرص القانون الإقطاعي — بخلاف القوانين الرومانية والجرمانية — على أن ينص على انتقال الإقطاع كاملاً في حالة وفاة صاحبه إلى أكبر أبنائه . ومن الواضح أن الذي كان يورث في هذه الحالة هو حق الحصول على الإقطاع تحت

(١) Eyre : op cit ; p p. 240-242.

(٢) Stephenson : Med Hist. ; p 237.

(٣) Painter : Med. Society ; p. p. 16-17.

(م ٤ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

شروط معينة . فالإبن الأكبر أو الوريث ليس له حق شرعى فى الحصول على إقطاع أبيه ، إلا إذا أدى فروض الولاء والتبعية للسيد الإقطاعى ^(١) .

الحقوق والواجبات الإقطاعية :

اختلف النظام الإقطاعى فى نشأته من مكان إلى آخر فى غرب أوروبا وفق الظروف والملابسات ، ولكنه قام فى جوهره على أساس العلاقة الشخصية التى ارتبطت بحيازة الأرض ^(٢) . ذلك أن المتمتع بالأرض كان يتعهد بالتزامات معينة لسيد الإقطاعى مقابل تعهد السيد بالتزامات أخرى لفصله ، وبعبارة أخرى فإن كلا من الطرفين كانت له حقوق وعليه واجبات قبل الطرف الآخر . وهنا نلاحظ أن النظام الإقطاعى لم يعترف فى بداية تطوره بملكية الأفراد للأرض ملكية مطلقة ، لأن الملك كان — من الناحية النظرية — هو المالك الفعلى لجميع أراضي المملكة ؛ وإن كان الثابت من الناحية العملية أن لكل أرض سيدها حتى قيل « لا توجد أرض بلا سيد *Nulle terre sans seigneur* » ^(٣) . ومهما كان الأمر ، فإن العلاقة المتتابة بين السادة الإقطاعيين وأفصالحهم لم تتطلب نوعاً من الالتزامات الشخصية فحسب ، بل ترتب عليها أيضاً حقوق عامة والتزامات سياسية ، لأنه إذا كانت الوظيفة الأساسية لحكومات العصور الوسطى هى القيام بأعباء الحرب والعدالة ، فإن هاتين المهمتين نظمتهما على أساس إقطاعى بحث فى أوروبا العصور الوسطى ^(٤) . وتتضح الحقيقة كاملة بشرح الحقوق والواجبات الإقطاعية .

أما السادة الإقطاعيون فكانت لهم حقوق على أفصالحهم ، وهى حقوق أصبحت بمثابة مهام أو التزامات ملقاة على عواتق الأفصال وتجب عليهم تأديتها والوفاء بها

(1) Stephenson : *Med Hist* ; p. 236.

(2) Ganshof : *op. cit.* ; p. XVI.

(3) Eyre : *op. cit.* ; p. 247.

(4) Flèche : *L'Europe Occidentale* ; p. p. 16h-16G.

في حدود ما قضى به العرف الإقطاعي . وقد تنوعت هذه الالتزامات المفروضة على الأفضال تجاه ساداتهم الإقطاعيين ، فظهر منها ما هو حربي وما هو مالي وما هو اجتماعي ... إلى غير ذلك من أنواع التكاليف التي نهض بها الأفضال مقابل ما حصلوا عليه من حماية^(١) .

ومن الطبيعي أن يكون التعاون في ميدان الحرب هو المحور الأساسي للعلاقات الإقطاعية بين السيد وأفضاله ، لأن المهمة الأولى للسيد الإقطاعي كانت حماية أفضاله وأراضيهم ، في حين كان الواجب الأول على هؤلاء الأفضال هو الخدمة في جيش سيدهم^(٢) . وهكذا أصبح المجتمع الإقطاعي يدور حول محور واحد هو الفارس المحارب ، فيتعهد الأمير الإقطاعي بالحضور فوراً على رأس عدد معين من الفرسان لمساندة الملك متى طُلب إليه ذلك ، وبالتالي يتعهد أفضال ذلك الأمير بمساندته وقت اشتباكه في حرب مع عدوه^(٣) . ومن السهل علينا أن نكشف مدى مافي هذا النظام من خطر لأنه يجعل كل عضو في المجتمع الإقطاعي يقدم خدماته العسكرية لسيدته المباشر ، حتى ولو قام هذا السيد بحرب تستهدف مصلحة خاصة أو ضد ماليك البلاد . ولم يتم التخلص من هذا الخطر نسبياً إلا في أواخر القرن الثاني عشر عندما نص القانون في إنجلترا ثم في فرنسا على أن يتعاون الفرسان مع أميرهم الإقطاعي في خدمة الملك ، ولا يساعدونه في أي حرب خاصة^(٤) .

والواقع أنه لم يكن هناك تحديد في أول الأمر لمدى الخدمة العسكرية التي يؤديها الفصل لسيدته ، وذلك في الوقت الذي اشتدت إغارات النيكينج وغيرهم من الغزاة على غرب أوربا ، فسادت التوضى وعظم الخطر وأصبح لزاماً على الأفضال

(1) Thompson : op cit. ; vol. 2; p. p. 701-702.

(2) Painter : Med. Society ; p. 18.

(3) Stephenson : Med. Feudalism ; p. p 27-28.

(4) Eyre : op. cit.; p p. 247-248.

أن يهبوا لحل السلاح دون قيد أو شرط وقتما يأمرهم سيدهم الإقطاعي^(١) . .
ولكن الأنفال أخذوا — بمرور الوقت — يميزون بين نوعين من الحرب :
الحرب الهجومية والحرب الدفاعية . فإذا أغار عدو أو اعتدى معتد على أملاك
السيد أصبح لزاما على أنفاله أن يقاتلوا معه حتى يردوا ذلك العدو . أما إذا قام
السيد الإقطاعي بحرب هجومية لتوسيع ممتلكاته أو للاعتداء على ضيعة مجاورة
أو حصن قريب ، فإن الأنفال اتجهوا في هذه الأحوال نحو تحديد التزاماتهم تجاه
سيدهم . وهناك شبه قاعدة عامة حددت الحد الأقصى للمدة التي يخدم فيها الفصل
سيده في حروبه الهجومية بأربعين يوما في السنة^(٢) .

ويرتبط بالخدمة العسكرية التي يؤديها الفصل لسيده قيام الأول بنصيبه
في حراسة قلعة السيد^(٣) . ولم تكن هناك حصون إقطاعية في غرب أور باقبل
القرن العاشر ، ولكن هذه الحصون أخذت تنتشر منذ ذلك الوقت حتى أصبح
لكل أمير إقطاعي — في القرن الحادى عشر — قلعة على الأقل يأوى إليها
أنفاله وذوهم وقت الخطر ، ويتناوب هؤلاء الأنفال حراستها على مدار السنة .
وكان السيد الإقطاعي يولى هذه القلاع اهتماما خاصا — سواء كانت خاصة به
أو بأنفاله — فلا يسمح لأحد من هؤلاء الأخيرين بهدم قلعة أو بناء أخرى
إلا بإذن خاص منه^(١) . أما المدة التي فرض على الأنفال قضاؤها في حراسة
قلعة سيدهم فقد تراوحت بين ثلاثين وأربعين يوما في السنة .

وبالإضافة إلى هذه الواجبات الحربية وجدت واجبات أخرى اجتماعية
فرضتها طبيعة العلاقات الإقطاعية بين السيد وأنفاله . وكانت هذه الواجبات
كثيرة ومتنوعة ، أولها التزام الفصل بالحضور على نفقته الخاصة إلى مقر السيد
الإقطاعي عند ما يطالب إليه ذلك . وكانت هناك أغراض متعددة تستدعى توجيه

(1) Painter ; Med. Society ; p. 18.

(2) Ibid.

(3) Ganshof ; op. cit ; p. p. 80-81.

هذه الدعوة ، أهمها رغبة السيد في استشارة أفضاله فيما يهم مجتمعهم الصغير من مصالح مشتركة^(١) . ويبدو أن مبدأ الشورى هذا كان من المبادئ الأساسية التي سادت المجتمع الإقطاعي ، إلى درجة أن السيد الإقطاعي كان يجمع أفضاله لياخذ رأيهم في اختيار زوجة لنفسه أو لابنه أو زوجاً لابنته ، هذا فضلاً عن استشارتهم قبل الإقدام على حرب خارجية أو المشاركة في حملة صليبية مثلاً . ومن هنا كان لزماً على الفصل أن يقدم مشورته لسيده عند طلبها^(٢) .

على أنه إذا كان للسيد أن يستشير أفضاله قبل الإقدام على عمل هام ، فإن الفصل كان ملازماً بالحصول على موافقة سيده الإقطاعي قبل أن يزوج ابنته لأن هذا الزواج قد يترتب عليه انتقال جزء من إقطاع والد الزوجة — أو الإقطاع كله . - إلى زوجها ، مما يجعل موافقة السيد أمراً ضرورياً لازماً^(٣) . فإذا مات الفصل وترك ابناً صغيراً لا يستطيع النهوض بمهام الإقطاع والتزاماته ، أو ابنة لم تتزوج بعد ، ففي هذه الحالة يعين السيد الإقطاعي أحد أقارب الفصل المتوفى ليقوم بمهمة الوصاية وينهض بمسئوليات الإقطاع . وقد جرت العادة أن يفضل في القيام بالوصاية أكبر خال للوريث أو الوريثة نظراً لأنه لا يمتلك أى حق وراثي في الإقطاع ، بعكس العم ، الذي ربما حاول التخلص من الورثة لتنتقل إليه حقوقهم في الإقطاع^(٤) . وفي كثير من الأحيان كان يتولى السيد الإقطاعي نفسه الوصاية على الوريث وأرضه . فإذا كان الوريث ذكراً ظلت وصاية السيد عليه فائمة حتى يبلغ سن الرشد ، وإذا كانت الوريثة أُنثى أصبح واجباً على السيد أن يبحث لها عن زوج مناسب يستطيع أن يفي بكافة الالتزامات المفروضة على الإقطاع^(٥) . ولا شك في أن السيد الإقطاعي كان يرحب كثيراً بهذه الفرصة

(1) Stephenson : Med. Feudalism ; p. p. 30-31.

(2) Painter : Med. Society ; p. p. 21-22.

(3) Idem : p. 24.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 111.

(5) Ganshof : op. cit., p. p. 128-129

الأخيرة ، وذلك لأن كل واحد من السادة الإقطاعيين التفت حوله عادة بعض الفرسان الشباب الذين يتوقون للحصول على إقطاعات خاصة بهم ، فلم يكن هناك طريق أمام السيد أيسر من أن يزوج أحد هؤلاء الشبان بإحدى وريثات الإقطاع . وقد أصبح هذا الطريق في الواقع المخرج الوحيد أمام أى فارس بدون إقطاع ليصبح ذا مكانة في المجتمع الإقطاعي ^(١) .

أما إذا مات الفصل دون أن يترك وريثاً يخلفه ، فإن إقطاعه ينتقل في هذه الحالة إلى سيده الإقطاعي عن طريق الاستيراث (escheat) . وعلى الرغم من أن عملية الاستيراث هذه لم تكن شائعة إلا أنها تكررت كثيراً في العصور الوسطى ^(٢) .

فإذا تركنا الواجبات الحربية والاجتماعية المفروضة على الأنصال تجاه سادتهم الإقطاعيين ، فإننا نجد أنفسنا أمام عبء ثقيل من الالتزامات المادية أو المالية ^(٣) . ذلك أنه صار لازماً على الفصل أن يؤدي لسيدة عدة مقررات ومكوس إقطاعية أصبحت بمثابة حقوق ثابتة للسيد . ومن هذه ضريبة الحلوان (relief) ، وهي أشبه شيء بضريبة الميراث أو التركات في عصرنا الحديث ، وكانت تدفع كلما تولى على الإقطاع وريث جديد من سلالة صاحب الإقطاع المتوفى . ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لتحديد قيمة المبلغ الذي يدفعه الفصل في هذه الحالة ، وإن دلت بعض الشواهد على أن هذا المبلغ كان يساوى — في معظم الحالات — دخل الإقطاع عن عام كامل ^(٤) .

وهناك أيضاً ضريبة المعونة (aid) ، وهي في الواقع أموال يقدمها الفصل لسيدة في مناسبات خاصة . ذلك أنه كان مفروضاً أن يحصل السيد الإقطاعي

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages ; p. 111.

(2) Stephenson : Med. Feudalism, p.24

(3) Fyfe ; op. cit , p. 248.

(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. p. 702-703

على ما يحتاج إليه من نفقات إضافية أو استثنائية من أفضاله. فإذا وجد وريث الإقطاعي نفسه عاجزاً عن دفع ضريبة الحلوان لسيد الأمير الإقطاعي ، فإنه لن يجد أمامه في هذه الحالة غير أفضاله ليجمع منهم المبلغ المطلوب . وإذا أسر السيد الإقطاعي في حرب ، وجب على أفضاله أن يجمعوا الغداء اللازم لإطلاق سراحه . هذا فضلاً عن المناسبات السعيدة التي يتكلف السيد الإقطاعي نفقات طائلة في إحيائها والتي وجب على أفضاله أن يعاونوه في سد هذه النفقات ؛ مثل تأهيل كبرى كريماته أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارساً^(١) . وكان المتبع في أول الأمر أن يسهم الأفضال في هذه النفقات بتقديم الخبز واللبيد ، ولكن استعاض بعد ذلك بالمال عن هذه المعونة العينية^(٢) . أما إذا أزمع السيد الإقطاعي القيام بمشروع باهظ النفقات ، مثل الشروع في حملة صليبية أو بناء حصن جديد ، فإنه لابد من أن يعتمد في هذه الأحوال على معونة أفضاله . فإذا كان السيد الإقطاعي من رجال الدين . مقدم دير أو أسقف مثلاً -- فإنه يجد مبرراً لجمع المعونة من أفضاله في الاحتفال بتقليد أحد رجال الدين وظيفة جديدة أو في القيام برحلة دينية إلى روما مثلاً^(٣) . وهكذا تنوعت المعونة التي يقدمها الأفضال للسيد الإقطاعي ، حتى انقسمت هذه المعونة في القرن الحادي عشر إلى قسمين أساسيين ، الأول يشمل المعونة التي يفرضها السيد الإقطاعي على أفضاله كحق ثابت له بمقتضى العرف والتقاليد ، والثاني المعونة التي يطلب السيد من أفضاله أن يمولها بها دون أن يكون فيها شيء من الإلزام^(٤) .

ولم تقتصر الالتزامات ذات الصبغة الاقتصادية التي فرضها العرف الإقطاعي على الأفضال على الحلوان والمعونة ، وإنما وجدت ضريبة أخرى هي ضريبة « الضيافة » . ولم تكن هذه الضريبة محدودة في أول الأمر ، إذ كان على

(1) Stephenson: Med. Feudalism ; p 30

(2) Painter : Med. Society ; 23.

(3) Stephenson : Med. History ; p. p. 237-238.

(4) Painter : Med. Society , p. 24.

الفصل أن يكرم سيده وحاشيته في أى وقت يختار ذلك السيد أن يزور فصله . ولكن ساد الاتجاه — بمضى الزمن — نحو تحديد هذه الزيارات ، فأصبح السيد لا يستطيع زيارة فصله أكثر من عدد معين من المرات في السنة ، على ألا يصطحب معه في هذه الزيارات إلا عدداً محدداً من الاتباع والخيول . وفي بعض الحالات حدد العرف الإقطاعي ألوان الطعام التي على الفصل أن يقدمها إلى ضيوفه في هذه المناسبات ^(١) .

وإذا كان النظام الإقطاعي يعتبر قبل كل شيء تعاقدًا بين السيد وأفضاله على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ، فإن هذه الفكرة تستلزم وجود حقوق للأفصال تجاه سادتهم الإقطاعيين أو بعبارة أخرى واجبات على هؤلاء السادة تجاه أفضالهم ^(٢) . حقيقة إن السيد الإقطاعي خرج من هذا التعاقد بنصيب الأسد نتيجة لأنه الطرف الأقوى صاحب النفوذ والسلطان ، ولكن هذا السيد كان مقيداً بقواعد وشروط خاصة والتزامات معينة يعيها ويدركها جميع الناس بحيث لا يستطيع أن يهرب منها دون أن يدفع ثمنًا غالياً . أما أهم الالتزامات التي ألقاها القانون الإقطاعي على كاهل السيد فكانت قيامه بحماية أفضاله ورعايتهم وتحقيق العدالة لهم ^(٣) . فإذا اعتقد الفصل أن سيده يسيء إليه ، فله أن يطلب عرض قضيته أمام محكمة من انداده ، هذا زيادة على أن الفصل كان يستطيع أن يفسخ العلاقة الإقطاعية ويتحلل من تبعيته إذا ثبت أن السيد الإقطاعي لا ينهض بمسئوليته الأساسية تجاهه ^(٤) . وبعبارة أخرى فإن الأفصال كانوا في حل من عدم التقيد بالعقد الإقطاعي والتنصل من التزاماتهم تجاه سادتهم ، مادام هؤلاء السادة قد خرقوا بالتزاماتهم وتجاوزوا الحدود التي يفرضها عليهم العرف الإقطاعي . وكانت هذه العملية — عملية سحب الثقة من السيد الإقطاعي (diffidatio) — وفسخ

(1) Stephenson : *Méd. Feudalism* ; p 30

(2) Eyre : *op. cit.* ; p. 247

(3) Glanvill : *op. cit.* ; 85.

(4) *dem.* ; p. 89-90.

العقد العرفي العقود معه إذا أخل بأصول واجباته — من المبادئ الأساسية في التنظيم الإقطاعي ، وبمقتضاها تنصل البارونات الانجليز من ولائهم وتبعيةهم للملك حنا (١١٦٧ — ١٢١٦) ^(١) . أما إذا حدث العكس وأدين الفصل بأنه أخل بواجباته والتزاماته تجاه سيده الإقطاعي ، فعندئذ كان يحق للسيد أن يجرمه من إقطاعه ويصادره . على أن هذه الحالة كانت قليلة ونادرة ، لأن الحكم بحرمان فصل من إقطاعه كان لا يصدر إلا من محكمة تتألف من أنداد الفصل المتهم ، الذين يجتمعون في دوار السيد الإقطاعي أو قلعتة للنظر في القضية ومن الواضح أنه لم يكن من السهل أن يصدر هؤلاء الأفضال مثل هذا الحكم على نذلهم ، إذ يخشى كل منهم أن يرى نفسه في يوم ما في موقف زميله المحكوم عليه . وهنا نسجل أن الأفضال كانوا في كثير من الحالات أرجح كفة من سيدهم الإقطاعي ، فإذا اتحدوا ضده فإنه يقف في هذه الحالة مكتوف اليدين لأنهم جنوده والمصدر الوحيد للقوة التي يستند إليها . هذا إلى أن عقوبة حرمان الفصل من إقطاعه كانت من العقوبات التي يصعب تنفيذها لأن الفصل كان في هذه الحالة يستमित في التمسك بإقطاعه ويحاول إلقاء تبعه الخلاف على سيده الإقطاعي ، حتى يحل الاشكال في النهاية بقوة السلاح ^(٢) . أما التهمة التي توجه إلى الفصل ولا يرجح له فيها شفاعاة أو غفران فهي أن يعتدي على سيده الإقطاعي فيجرحه أو يقتله ، أو يغري زوجته أو ابنته على المنكر . ذلك أن المفروض في الفصل أن يحمي سيده الإقطاعي ويذود عنه وعن غرضه ، كما يذود بالضبط عن نفسه وبيته ^(٣) .

خصائص النظام الإقطاعي وأثره :

من الثابت أن المجتمعات الإقطاعية تباينت في خصائصها وميزاتها نتيجة لمدى تركيز الحقوق والواجبات الإقطاعية ^(٤) . لذلك يبدو أنه من الصعب — في كثير

(1) Eyre : op cit.; p. 250.

(2) Stephenson : Med Hist.; p 238.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages ; p. 112.

(4) Eyre : op. cit.; p 246.

من الأحيان - إصدار أحكام عامة تشمل جميع المجتمعات القطاعية ، لاختلاف عدد الأفصال الذين يتبعون السادة الإقطاعيين من جهة ، واختلاف مدى اتساع دائرة الحقوق والواجبات القطاعية من جهة أخرى . ولكن إذا كان من الصعب التعميم في الأحكام التي تصدرها على النظام الإقطاعي ، إلا أنه الممكن أن نتتبع الخطوط العريضة لذلك النظام عند ما وصل إلى مرحلة النضج في القرن الثاني عشر .

وأول ما نلاحظه على النظام الإقطاعي أنه يعبر عن التطرف في اعتماد المجتمع على علاقة التبعية الشخصية التي ترتبط بمحيزة الأرض ؛ هذا مع ملاحظة أن العلاقات الإقطاعية بين الأفصال وسادتهم إنما هي روابط بين رجال أحرار بعضهم وبعض . فالفصل في ظل النظام الإقطاعي رجل حر يتمتع بحريته كاملة - مهما كانت درجته في سلم هذا النظام ؛ وكل ما هنالك هو أنه ارتبط بمقد عرف مع سيده الإقطاعي بحيث فرض عليه هذا الرباط مجموعة من الواجبات وحقق له في مقابلها مجموعة أخرى من الحقوق ^(١) .

ولم تلبث أحكام العرف القطاعي التي حددت العلاقات الشخصية بين الأفصال وسادتهم أن تبلورت في شكل قانون ثابت محدد ، وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عندما أصبح النظام القطاعي بمثابة المحور الأساسي الذي دارت حوله الحياة العامة في غرب أوربا ^(٢) . وكان أن أخذ يظهر هذا القانون القطاعي تدريجياً في كتابات كبار فقهاء الاقطاع أمثال جلاشيل (Glanvill) وبراكسون (Bracton) في إنجلترا ، وبومانوار (Beaumanoir) في فرنسا ، وحننا إيلين في مملكة بيت المقدس الصليبية ؛ وعندئذ أصبحت القوانين القطاعية بمثابة المرجع الأول الذي اعتمد عليه المعاصرون في حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية ^(٣) .

(1) Glanvill : op. cit.; p. p xv-xvi.

(2) Cam. Med. Hist.; vol.; 3; p. 458.

(3) Eyre : op. cit.; p. 250.

وكانت أهم مشكلة في القانون الإقطاعي حينئذ ، هي مشكلة تعدد السادة الإقطاعيين للفصل الواحد. فعلى الرغم من أنه كان مفروضاً في أوائل العصر الإقطاعي أن يكون للفصل سيد واحد ، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ؛ لأن زواج رجل من امرأة ورثت إقطاعاً يؤدي إلى استحواذه على ذلك الإقطاع فيصبح في هذه الحالة فصلاً للسيد الذي تتبعه أرض الزوجة فضلاً عن تبعيته الأولى لسيده الأصلي. كذلك إذا دخل ابن في تبعية سيد إقطاعي آخر غير الذي يتبعه أبوه ، ثم مات الأب وورث الابن إقطاعه فإنه يصبح فصلاً لسيدين في وقت واحد^(١). هذا إلى أن كثيراً من السادة الإقطاعيين لجئوا إلى شراء صداقة جيرانهم ومعونتهم عن طريق منحهم إقطاعات ، فيصبح المقطع في هذه الحالة فصلاً لسيد جديد علاوة على سيده الأول . وهكذا صار معنم أصحاب الإقطاعات في القرن الثاني عشر أفصالاً لأكثر من سيد واحد ؛ حتى أن كونت شامبني كان فصلاً لكل من ملك فرنسا ، ودوق برجنديا ، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ورئيس أساقفة ريمس ، زيادة على عدد آخر من كبار الأمراء الإقطاعيين^(٢). ولا شك في أن هذا التعقيد الذي أصاب العلاقات الإقطاعية أدى إلى كثير من الفوضى في أوروبا ، لا سيما عند ما نجد أحد الأفصال أن اثنين من ساداته الإقطاعيين التحما في حرب أحدهما ضد الآخر مما يتطلب منه تقديم المساعدة إلى الطرفين المتنازعين جميعاً^(٣).

وللتخلص من هذا الوضع أصبح الفصل الإقطاعي لا يقدم ولائه الشخصي إلا لسيد واحد يختصه بكل خدماته الشخصية ، في حين يكتفي بتقديم بقية الالتزامات المادية — غير الشخصية — لبقية ساداته الإقطاعيين ، إن وجدوا . وهكذا كان كونت أنجو — مثلاً فصلاً — لملك فرنسا وكونت بلوا Blois ، ولكنه اختص الأول بولائه الشخصي ؛ فإذا اشتبك ملك فرنسا مع كونت بلوا في حرب فإن

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 113.

(2) Ibid.

(3) Ganshof op cit.; p. 92 - 93.

كونت أنجو كان عليه أن يساعد ملك فرنسا مساعدة شخصية ، في حين يكتفى بإرسال معونة مادية لكونت بلوا^(١) .

كذلك يلاحظ على النظام الإقطاعي في القرن الثاني عشر أنه أخذ يربط عناصر كل مملكة من ممالك غرب أوروبا برباط تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلاً لقمة الهرم الإقطاعي . ذلك أن الملوك — بغض النظر عن الحقوق الكثيرة التي تمتعوا بها — أخذوا يفرضون حقوقهم الإقطاعية تدريجياً على أفعالهم ، ويتمسكون بهذه الحقوق ، مما زاد من قوتهم ونفوذهم وأدى بالتالي إلى نشأة ما يعرف باسم « الملكيات الإقطاعية »^(٢) .

وثمة ملاحظة أخرى على النظام الإقطاعي في غرب أوروبا ، هي أن الكنيسة كان لها أثر واضح في تطور هذا النظام ، لا سيما فيما يتعلق بالإقلال من الحروب والمنازعات بين الأمراء الإقطاعيين ، وتوجيه نشاط هؤلاء الأمراء وجهة أخرى تتفق وصالح المجتمع المسيحي . من ذلك ما نادى به الكنيسة من تحريم الحروب في أوقات معينة أطلق عليها « هدنة الله Treve de Dieu »^(٣) . ويبدو أن رجال الكنيسة آمنوا عندئذ بأن هدفاً واحداً هو الذي يجب أن يستأثر بمجهود أمراء أوروبا وفرسانها ، ولم يكن هذا الهدف سوى الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ثم في بلاد الشام^(٤) .

وأخيراً نلاحظ أن النظام الإقطاعي أدى إلى وجود وحدات اقتصادية تكفي نفسها بنفسها. فالضيعة الإقطاعية كانت في حد ذاتها وحدة مكتفية اكتفاء ذاتياً، الأمر الذي عاق تقدم الحياة الاقتصادية في بلدان غرب أوروبا^(٥) .

* * *

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. p. 113-114.

(2) Eyre : op. cit.; p. 250.

(3) Fliche : L'Europe Occidentale ; p. p. 184-189.

(4) Painter : Med. Society ; p. p. 34-35.

(5) Eyre : op. cit ; 251.

وبعد ، فإنه من حق النظام الإقطاعى علينا أن نؤكد حقيقة هامة ، هى أن هذا النظام لا يعنى بأى حال الفوضى أو التعنت الاستبدادى فى أوروبا العصور الوسطى . فالنظام الإقطاعى كان قبل كل شىء نظاما تعاقديا قام على أساس ثابت من الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفضاله . وإذا كان كثير من الكتاب قد فسروا النظام الإقطاعى على أنه اصطلاح مرادف للانحلال السياسى ومناقض للسلطة المركزية ، فإن هذا الحكم جائر وبعيد عن الحقيقة والتاريخ . حقيقة إن العصر الإقطاعى جاء مصحوبا بالتحلل الامبراطورية الكارولنجية وما تفرع عنها من أقسام وممالك كبرى ، ولكن هذا الانحلال لم يكن مصدره النظام الإقطاعى نفسه . وليس ذنب النظام الإقطاعى أن الملك الفرنسى كان ضعيفا بدرجة لم تمكنه من بسط نفوذه والتمسك بحقوقه حتى فى أراضيه الخاصة (الدومين)^(١) . وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نقرر أن النظام الإقطاعى نشأ كحل أو كإجراء لمواجهة الفوضى والأخطار التى واجهت أوروبا فى القرن التاسع ؛ وبعبارة أخرى فإن هذا النظام كان الوسيلة الفعالة التى توسلت بها أوروبا لايجاد نوع من الحكم يفي بحاجات البلاد الحربية والإدارية والقضائية وسط الأخطار الجسيمة التى أملت بالمجتمع الأوروبى منذ القرن التاسع^(٢) . وهنا نستطيع أن نقرر أن هذا النظام نجح فعلا فى مقاومة هذه الأخطار بقدر الامكان وفى تهيئة الوسائل السلمية لحل المنازعات والخسومات . ذلك أن النظام الإقطاعى — كما سبق أن رأينا — كان له جانبه القضاى إلى جانب جوانبه الحربية والاقتصادية ؛ فقامت بتنفيذ القانون الإقطاعى محاكم الملوك ومحاكم السادة الإقطاعيين ، ونجحت هذه المحاكم فى إقرار العدالة بصورة واضحة وفى حل المشاكل الناشئة بين السيد وأفضاله أو بين الأفضال بعضهم وبعض^(٣) . أما المنازعات التى نشبت بين أفضال متعددين لأكثر من

(1) Stephenson : Med. Hist., p. 252.

(2) Thompson : op cit , vol. 2, p. 699.

(3) Eyre : op. cit., p. 249.

سيد واحد ، فلم يكن هناك سبيل لحلها إلا المفاوضة أو الحرب . وهناك طريق آخر كثر الالتجاء إليه كوسيلة لحل الخلافات القائمة بين اثنين من أفعال السيد الواحد ، هو طريق المبارزة أو التقاتل دون تدخل من جانب السيد الاقطاعي ، إلا إذا تعرض أحدهما لخطر يخشى منه عدم تمكنه من النهوض بواجباته الاقطاعية . أما القاعدة التي قام عليها بناء المهرم الاقطاعي فكانت طبقة الفلاحين التي ظلت تشقى لتقدم ثمرة جهودها وكدها للاقطاعيين^(١) . وعلى الرغم من أن الفلاح المزارع كان أقل تأثراً بتطور النظم الاقطاعية من الفارس المحارب ، إلا أن حياته هو الآخر تأثرت إلى حد كبير بنظام الضيعة (manor) وهو النظام الذي تأثر بدوره تأثراً واضحاً بالأوضاع الاقطاعية^(٢) . وربما بدا ذلك في وضوح بدراسة أحوال المجتمع الأوربي في ظل النظام الاقطاعي .

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 239.

(2) Eyre : op. cit , p. 251.

الباب الثالث

المجتمع الأوربي

في ظل النظام الإقطاعي

انقسم المجتمع الأوربي في العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة الحارثين من النبلاء والفرسان ، وطبقة الفلاحين . أما الطبقتان الأولىان فكانتا تمثلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية ، والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، والفئة الثرية من وجهة النظر الاقتصادية ؛ في حين كانت طبقة الفلاحين تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم المحرومين من النفوذ والثروة . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث مكاتها ووظائفها المعروفة في المجتمع ، فرجال الدين كان عليهم أن يتعبدوا لله ويشبعوا حاجة الناس الدينية ، والنبلاء كان عليهم أن يحكموا ويحاربوا ، والفلاحون كان عليهم أن يعملوا ليسدوا الحاجات المادية للطبقتين السابقتين⁽¹⁾ . وقد سبق أن تعرضنا للوضع الاجتماعي لرجال الدين ، وبقى أن نتكلم عن النبلاء والفلاحين .

المجتمع الحربي والفروسي :

يلبس الدارس لأحوال أوربا في العصور الوسطى فجوة واسعة بين طبقتي الفرسان الحارثين والفلاحين المزارعين . ذلك أنه كان من الصعب النادر أن يستطيع رجل وضيع المولد أن يصبح صاحب إقطاع ولو كان حراً . وكان يحدث في بعض الأحيان أن يحصل مزارع على ثروة كبيرة ولكنه يظل مع ذلك وضيعاً في نظر

(1) Thompson : op. cit. vol 2, p. 721.

الخاصة بحكم أصله ، ولا سيما أن الفواصل الاجتماعية وشرف المولد لم تكن وحدها هي العقبان القائمة في وجه العامة ، وإنما وجدت لحقبة أخرى تمثلت في التدريب الذي كان لا يستطيع الفلاحون أن يمروا به . فالمفروض في أبناء النبلاء — إن لم ينخرطوا في سلك الحياة الدينية — أن يتدربوا تدريباً عسكرياً منذ حداثتهم فيتعلمون ركوب الخيل واستخدام السلاح ، حتى إذا ما شب الواحد منهم انخرط في سلك بلاط أحد الأمراء الاقطاعيين كتابع صغير (valet) أو سيد صغير (damoiseau) ليتعلم آداب السلوك في المجتمع^(١) . وفي بداية مرحلة الشباب يمكن أن يرتقى الفتى إلى مرتبة مساعد فارس ، وعندئذ يسمح له بالاشتراك في المعارك مع الفرسان الذين يكبرونه سنّاً ليتعلم منهم فن الحرب . فإذا أثبت كفايته وصلاحيته ، احتفل في سن العشرين أو الواحد والعشرين بتدشينه فارساً ؛ فيتم ذلك في حفل كبير أصبح منذ النصف الأخير من القرن الحادى عشر بمثابة « تعميد » آخر للفارس يكتسب به مكانته في المجتمع الإقطاعي^(٢) .

وكانت الفروسية تعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك يجب أن يتحلى بهما أفراد هذه الطبقة من المحاربين في علاقتهم بعضهم مع بعض . فالفارس ينبغي أن يكون شجاعاً إلى درجة المجازفة والتهور ، ويقاقل وفقاً لقواعد خاصة دون أن يلجأ إلى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه . هذا بالإضافة إلى ما يجب أن يتحلى به الفارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد ، وإذا انتصر على خصمه عاملة معاملة كريهة^(٣) . على أنه يلاحظ أن هذا السلوك اقتصر على معاملة الفرسان والنبلاء بعضهم لبعض ، وعبارة أخرى فإنهم لم يشعروا بضرورة اتباع هذا الأسلوب المهيذب نفسه تجاه غيرهم من أبناء الطبقات الدنيا^(٤) .

(1) Stephenson : Med. Feudalism, p. p. 45-46 & Cam. Med. Hist , vol 6, p. 802.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 625

(3) Stephenson : Med. Feudalism, p. 46.

(4) Stephenson : Med. Hist., p. p. 239-240 .

ويمكن أن نخرج من شعر الملاحم Epic Poetry وأغاني المآثر Chansons de geste بصورة واضحة عن حياة النبلاء الإقطاعيين وأحوالهم في العصور الوسطى . ومن أمثلة هذه الأشعار أغنية رولان التي كتبها قسيس نورمانى من وحى الحروب التي دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا فى أواخر القرن الحادى عشر^(١) . وتدور قصة هذه الأغنية حول شخص رولان — كونت ماركيه بريتون — الذى خر صريعا فى ممرات البرانس عند عودة شارلمان من حملته الأسبانية ، وما تحب هذه العودة من تعرض مؤخرة جيشه لهجمات جماعة الباسك ؛ وإن كانت الملحمة تصور المسلمين فى صورة الخصم لتبرز رولان فى هيئة البطل الصليبي المدافع عن المسيحية وكيانها^(٢) . وترجع أهمية هذه الأنشودة التى ذاع صيتها من ايرلند حتى بيت المقدس إلى أنها تمدنا بكثير من المعرفة عن المثل الإقطاعية فى العصور الوسطى . ذلك أن الفكرة الأساسية التى سيطرت على أغنية رولان هى فكرة التبعية الإقطاعية ، وارتباط الفصل بسيده وإخلاصه له ، فيبدو رولان مخلصا لسيده شارلمان يحارب من أجله فى الوقت الذى يحارب أيضا من أجل نفسه ومن أجل الحصول على الشهرة والمغانم . وفى خلال حوادث القصة يبدو رولان قاسيا على خصومه ، شديد الرفق بأصدقائه^(٣) .

على أن هناك مصدراً آخر هاماً يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن الحياة الاجتماعية للطبقة الحربية فى مجتمع أوربا الإقطاعى . ونقصد بهذا المصدر مطرز بايو Bayeux المحفوظ فى متحف بايو حتى اليوم والذى صنع من أجل تلبية كئندراية المدينة . ويباغ عرض هذا المطرز عشرين بوصة وطوله أكثر من مائتين وثلاثين قدما ، وهو يحلى برسوم ملونة تصف الغزو النورمانى لآنجلترا فى

(1) Pirenne; Cohen; Focillon ; La Civilisation Occidentale; p. 212.

(2) Painter : Med. Society; p. 41.

(3) Stephenson : Med. Feudalism; p. p. 50.51.

(م ه — أوربا العصور الوسطى ج ٢)

القرن الحادى عشر . وترجع أهمية هذه الرسوم إلى أنها تعطينا صورة واقعية عن الحياة الاجتماعية فى القرن الحادى عشر ، سواء فى الملابس أو النشاط الحربى أو العادات المنزلية^(١) .

أما عن الملابس فكان النبلاء والفرسان يرتدون عادة القميص والجوارب الطويلة ؛ الأول مبراة عن صدر يربطه حزام من الوسط ، والثانية أشبه شىء بسر اويل مشدودة على الساقين والفخذين بأحكام . وأحيانا فى حالات البرد أو الاحتفالات يرتدى الرجل معطفا يربط من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف . وكان الرجال يقصرون شعور رؤوسهم ويحلقون ذقونهم . أما المرأة فكانت ترتدى ثوبا بسيطا يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض وتربط شعرها بعصابة بعد تصفيفه . وكثيرا ما كان الرجال والنساء يلبسون عباءة فى الشتاء يطوى طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد . ومن هذا يبدو أن ملابس طبقة الحاربيين — حتى الأغنياء منهم — كانت بسيطة^(٢) .

أما رداء الحرب ، فكان أيضا بعيدا عن التعقيد والتأنق ، فالفارسيكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة إلى أسفل الساق لتقوم مقام الجر موق (الألسين أو التزلك) فى الأزمنة الحديثة^(٣) . أما الجزء الأعلى من جسم الفارس فكانت تكسوه صدرية مزودة (hauberk) تتألف من حلقات متداخلة من المعدن^(٤) . ويراعى فى هذه الصدرية أن تكون مشقوقة طويلا من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه . وأخيرا كان يلبس الفارس على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل يمتد مقدمها إلى أسفل ليحمى

(1) Stephenson : Med. Hist ; p. 263.

(2) Stephenson : Med Feudalism; p p. 61-62.

(3) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 714

(4) Cam. Med. Hist; vol. 6; p. 808.

أنف الفارس . هذا كله عدا الدرع الذى يحمله الفارس فى ذراعه الأيسر ، وهو مستطيل الشكل ويبلغ طوله أربعة أقدام تقريباً .

ومن الواضح أن الرداء السابق دفاعى الغرض منه حماية الفارس وصيانة جسده . ولذلك كان لابد من أن يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحة هجومية يستخدمها فى مقاتلة خصومه . أما هذه الأسلحة فكان أهمها سيف صليبي المقبض مربوط بحزام على الجانب الأيسر ، ثم حربة يمسكها الفارس بيده اليمنى طولها ثمانية أقدام ، هذا عدا البلطة التى كثيراً ما استخدمها الفرسان ولاسياً فى إنجلترا وفرنسا^(١) . ولم يكن من الضروري أن يتقيد الفارس بلبس الرداء السابق فى حله وتراحله بسبب ثقله ، ولذلك جرى العرف على أنه لا يجوز مهاجمة فارس إلا بعد إعطائه فرصة ليرتدى رداءه الحربى^(٢) .

أما الفرس الذى يمتطيه الفارس فكان مطهياً مزوداً بالسرج والركاب واللبام . ولعله من الواضح أن الفرس كان يمثل الجهاز الأساسى للفارس وبدونه لا يعتبر الفرد فارساً^(٣) ؛ كما أن المجتمع الإقطاعى ظل ينتظر شذراً إلى المحارب الذى يقاتل راجلاً^(٤) .

ولعل هذه الحقائق السابقة تساعدنا على فهم طبيعة الحروب الإقطاعية . فالخدمة العسكرية كانت تتطلب من فارس العصور الوسطى نفقات باهظة ، إذ ينبغى أن يكون لديه طاقم كامل من الملابس الحربية الثقيلة ، وفرس مطهم ، وتابع أو مساعد بمطيته ، وعدد من الخدم ، فضلاً عن قدر كاف من الطعام يكفى هذه المجموعة وحيواناتها طيلة مدة القتال . وهكذا هياً هذا النظام للحاكم أو للسيد الإقطاعى جيشاً قوياً بأقل قدر من النفقات . أما روح النظام فكانت ضعيفة

(1) Stephenson : Med. Feudalism; p.p. 63-64.

(2) Painter : Med. Society; 32.

(3) Stephenson : Med. Feudalism; p. 41.

(4) Idem; p. 43.

فى الحروب الإقطاعية ، إذ اعتقد كل فارس أنه زميل وحليف للقائد أكثر منه مرءوساً له^(١) . هذا إلى أن الحرب من أجل السيد الإقطاعى كانت لا تمنع الفارس من الحرب من أجل نفسه . والواقع أن الحرب الإقطاعية كانت عبارة عن مناوشات بين فريقين ومحاولة لتدمير أراضى العدو ، أكثر منها حرباً منظمة بالمعنى الذى نعرفه . وقد دار الجزء الأكبر من هذه الحروب الإقطاعية فى الحصون أو حولها^(٢) .

ومن الواضح أن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا الحرب . لذلك ابتكر فرسان العصور الوسطى تقليد المبارزة لمقاومة الملل الذى قد يعتريهم فى حالة عدم وجود حرب حقيقية . وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية تستهدف إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات والدماء . وفى اليوم والوقت المحدود يلتقى فريقان من الفرسان ينتمون عادة إلى بيتين أو إقليمين متنافسين^(٣) . وبعد ذلك تبدأ المبارزة بين الفريقين وفقاً لقواعد معلومة ثابتة ، حتى ينتهى الموقف بإعلان فوز أحدهما على الآخر . ويحصل الفارس الفائز فى هذه الحالة على نصر معنوى ومادى كبير ، لأنه علاوة على ما يصيبه من صيت ذائع وشرف عريض ، يستولى أيضاً على فارس خصمه وأسلحته أو على مبالغ من المال مقابل هذه الأشياء^(٤) .

أما الحصون الإقطاعية ، فكانت فى أول الأمر بمثابة المعاقل التى يلوذ بها أهل المنطقة فراراً من هجمات الأعداء وبخاصة الفيكنج . ولكن هذه الحصون تطورت مع تطور النظم الإقطاعية حتى غدا الحصن الإقطاعى مقر السيد وحاميته ، كما أصبحت الحصون تشيد منذ نهاية القرن العاشر من السكتل الحجرية الضخمة

(1) Stephenson : Med. Hist. ; p. 241.

(2) Idem: p. 242,

(3) Painter : Med. Society; p. 28.

(4) Stephenson : Med. Feudalism, p. 74.

لتستطيع الثبات في وجه المهاجمين . وهكذا صارت الحصون الاقطاعية مسرحاً لجزء كبير من النشاط الاجتماعي لطبقة الفرسان في العصور الوسطى ، إذ لم يعد الحصن معقلاً فحسب بل أضحي المقر الطبيعي لإقامه الأمير الاقطاعي وأتباعه^(١) .

وكان الطابق الأسفل من الحصن أو القلعة الاقطاعية يحوى الآبار ومخازن الطعام والأسلحة والعدد الحربية الثقيلة اللازمة لمقاومة حصار طويل ؛ والطابق الأعلى من القلعة مخصص لقذف السهام وغيرها على العدو المهاجم ؛ في حين استخدم الطابق الأوسط منزلاً لإقامة السيد الاقطاعي وأسرته . وفي هذا الطابق الأوسط وجدت قاعة فسيحة وكنيسة صغيرة وعدد من الغرف المنفصلة^(٢) . أما الطعام فكان يطهى في مطابخ خارجية ثم يحمل الخدم مطبياً إلى الداخل . وهنا نشير إلى أن الأمير الاقطاعي كان يقضى وقت السلم عادة في التنقل بين ضياعه الواسعة المجهز كل منها بدوار (manor-house) مشيد من جذوع الأشجار أو الحجارة . وعلى الرغم من أن كل دوار كان مزوداً عادة بما يكفى من أثاث وحاجات أساسية ، إلا أن الأمير كان يجلب معه عند حضوره إلى إحدى ضياعه ، كثيراً من اللوازم الاضافية . هذا إلى أن كثيراً من السادة الاقطاعيين كانوا لا يمتلكون حصوناً ، ومن ثم اتخذوا الدوار مقراً دائماً لهم^(٣) .

ومهما كان الأمر فإن مركز الحياة المنزلية عند النبلاء الاقطاعيين كان القاعة الكبيرة التي توجد في الحصن أو في الدوار^(٤) . ومن الواضح أن هذه القاعة كانت جبهة وسريحة بالقدر الذى يتفق ومستويات العصور الوسطى ، ففيها شموع للإضاءة ومراقد مكشوفة للتدفئة ، وعلى حيطانها علق بعض الأسلحة والأعلام ونحوها ، في حين فرشت أرضها بالحصر . وفي هذه القاعة كان

(1) Evans : La Civilisation en France, p. 48.

(2) Stephenson : Med. Feudalism; p. 70.

(3) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 57.

(4) Painter : Med. Society, p. 30

يجلس السيد الاقطاعى ليتقبل التبعية والخضوع من أفصاله أو ليعقد معهم مجلساً قضائياً أو غير قضائى^(٢). أما سهراته فكان يقضيها فى لعب الشطرنج والاستماع للرواة والقصاصين الذين يقومون بسرد بعض المنظومات القصصية القديمة أو التمثيليات الدينية^(٣). وفى نهاية الليل يأوى السيد وأسرته إلى غرفهم المخصصة للنوم ، وعندئذ يحضر الخدم والحاشية وسائدهم المصنوعة من القش ليناموا فى هذه القاعة حتى الصباح .

أما الطعام والشراب فكانا بعيدين عن الاعتدال . ومن المعروف أن الشراب المفضل فى جنوب أوربا — حيث تكثر مزارع الكروم — هو النبيذ، فى حين تسود الجعة فى الجهاب الشمالية الغربية . وقد تألف طعام السيد الإقطاعى من لحوم الصيد — الغزال أو الخنزير البرى — مشوية ، وبجانها لحوم الحيوانات المألوفة كالضأن ولحم البقر ، هذا عدا الطيور والفطائر والخضر والفاكهة^(٤). أما فى أيام الصيام — حيث المفروض أن تحتجب اللحوم عن مائدة الطعام — فكانت الصحن تكتظ بالأسمك والبيض . ومن الطبيعى أن يكون الخبز والجن من الأصناف المألوفة ، وعلى العكس كانت الحلوى نادرة لأن أوربا لم تعرف قصب السكر حينئذ ، فاعتمدت فى تحلية الطعام على عسل النحل وحده . أما التوابل المستوردة من الشرق — كالفلفل — فكانت لا تتوافر إلا فى طعام كبار الأمراء^(٥). والارجح أن أمراء أوربا وفرسانها لم يعرفوا الكثير من آداب تناول الطعام فى تلك العصور .

وفى عدا المبارزة ، اعتاد الأمراء أن يقتلوا الوقت أيام السلم بالتلهى بالصيد أو غيره من وسائل التسلية . لذلك احتفظ الأمراء بعدد من طيور وحيوانات الصيد، كما اعتادوا أن يصطحبوا معهم نساءهم عند خروجهم للصيد .

(1) Evans : La Civilisation en France Au Moyen Age, p. 48.

(٢) محمد مصطفى زيادة : الاقطاع والعصور الوسطى بفرى أوربا من ٣٢ — ٣٣ .

(3) Painter : Med. Society, p. 30.

(4) Stephenson : Med. Hist., p. 267-268.

أما إذا تطالبت الظروف أن يبقى السيد الإقطاعى داخل منزله أو قلعتة ، فإنه فى هذه الحالة كان يقضى شطراً كبيراً من وقته فى معاورة الخمر والمقامرة ولعب الشطرنج الذى عرفته أوربا عن طريق الحروب الصليبية . ومن الطبيعى ألا يكون لأفراد المجتمع الحربى من الإقطاعيين ولع بالقراءة والاطلاع ، بل إن أكثرهم جهلوا القراءة والكتابة واحتفظوا ببعض الكتب الذين لا يعرفون أكثر من المبادئ الأساسية لضبط حسابات المزارع والضياغ الخاصة بالأمر^(١) .

المجتمع الزراعى ونظام الضيعة :

ذكرنا أن المجتمع الإقطاعى قام حول ثلاث شخصيات هامة : رجل الدين المتعبد والفارس المحارب والفلاح المزارع . وعلى الرغم من أن الفلاح كان أقل تأثراً بتطور النظم الإقطاعية من الفارس ، إلا أن حياته تكيفت إلى حد كبير بثلاث النظم وتطورها^(٢) .

وإذا كان النظام الإقطاعى هو الذى حدد وضع طبقة المحاربين ونظم حياتهم العامة ، فإن هناك نظاماً آخر هو النظام السنيورى أو نظام السيادة Seigneurial System حدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين والعمال ، مع ملاحظة الرابطة الوثيق الذى يربط النظامين ويصل بينهما وهورباط الأرض^(٣) . فالنظام السنيورى الخاص بالفلاحين وتنظيم العلاقة بينهم وبين الملاك الإقطاعيين لا يدخل فى صلب التنظيمات الإقطاعية وإنما يأتى على هامشها . ذلك أن النظام الإقطاعى قام على أساس العلاقة بين حر وحر وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه ، وذلك فى ظل اطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة . أما النظام السنيورى فعلى العكس

(1) Stephenson : Med. Hist., p. p. 269-270.

(2) Eyre : op. cit., p. 251.

(3) Painter : Med Society, p. 43.

يمثل علاقة سيد حر يمتلك الأرض بمزارعين مستعبدين مرتبطين بالأرض^(١). فالعلاقة هنا بين سيد حر وقرن خاضع مقيد بالأرض غير حر، لا بين تابع حر ومتبوع حر^(٢). أما لماذا ارتبط القرن بالأرض، فإنما كان من أجل القيام بخدمات معينة ودفع ضرائب معاومة للسيد الاقطاعي المالك. فإذا عجز القرن عن الوفاء بهذه الخدمات والأموال — مهما كانت شاقة وباهظة — فإنه في هذه الحالة يكون عرضة لأن يافظه المجتمع الذي يعيش فيه عن طريق البيع أو الاستبدال أو الطرد. وكانت العقوبة الأخيرة أشدها جميعاً وأقساها لأن معنى طرد القرن أنه سيصبح دون سيد يحميه مما يعرضه لأخطار بالغة في عصر عرف بالفوضى وعدم الاستقرار^(٣).

والواقع أن الفلاحين كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحفظها قدراً في أوروبا العصور الوسطى. ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا إلى حد كبير في ظروفهم وأحوالهم إلا أنهم تفاوتوا إلى درجة ما في أصولهم وفي مدى الحرية التي تمتعوا بها^(٤). وتكونت طبقة الفلاحين في أساسها من العبيد Slaves والأقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعاً فاختلطوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الأقنان^(٥). ثم كانت فترة الظلام الذي سادت أوروبا في القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية من جهة والإغارات الخارجية العنيفة التي تعرض لها الغرب من جهة أخرى؛ مما جعل الضعيف يبحث عن حماية القوى حتى ولو كلفه ذلك أن يضحي بحريته الشخصية في سبيل سلامته، مما ساعد على ظهور طبقة جديدة من الأقنان يرجع أفرادها إلى أصل حر، واسكن الظروف التي أحاطت بهم

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : La Civilisation Occidentale au Moyen Age, p. 16

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 722.

(3) Idem, vol. 2, p. 726.

(4) Cam. Med. Hist.; vol 7., p. 719.

(5) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 71

أجبرتهم على قبول هذا الوضع الجديد . وقد سرّد أحد كتاب العصور الوسطى الطرق المختلفة التي أصبح بها الحر عبداً فقال إن أولها استعباد الفرد عقاباً له لعدم تلييته داعى الحرب ، وثانيها أن يهب الفرد نفسه للكنيسة أو للدير ليصبح عبداً مرتبطاً بهذه الهيئة الدينية ، وثالثها البيع إذ تدفع الحاجة فرداً إلى أن يبيع نفسه لسيد غنى مقابل مبالغ من المال ، ورابعها أن يضطر الضعيف إلى التنازل عن حريته لسيد قوى يخميه من الأخطار التي تهدده^(١) . ومهما كان الأمر ، فإن هذه الفئة الجديدة من الأقنان لم تلبث أن اختلطت بفئة العبيد القديمة لتنشأ منها جميعاً طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضع اجتماعى ثابت فى الحياة الأوربية^(٢) .

وإذا كان النظام الإقطاعى لم يتحدد شكله ويتم تكوينه فى الغرب إلا فى القرنين التاسع والعاشر ، فإن الفضل يرجع أيضاً إلى هذين القرنين فى تحديد نظام الضيعة Manorial Rgime أو النظام السنيورى . وفى القرنين التاسع والعاشر ازدادت أعداد من فقدوا حريتهم حتى دخلت قرى حرة بأكملها فى دائرة العبودية وأخذت ملكيات صغار المزارعين تتشكل فى أيدي كبار الإقطاعيين^(٣) . حقيقة إن النظام الضيعى نفسه قديم ، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية بل ربما كليته أيضاً ، ولكن الجديد هو أن أوروبا العصور الوسطى اتخذت هذا النظام أساساً للحياة الاقتصادية فى الوقت الذى تلاشت أهمية المدن وضعفت التجارة . فإذا كان الرومان قد عرفوا نظام الضياع ، فإنهم عرفوه على أساس اعتماد هذه الضياع على التبادل التجارى مع المدن الزاهرة التى اشتهرت بها الحضارة الرومانية ، فتصدر الضياع إلى المدن إنتاجها الزراعى وتستورد منها إنتاجها الصناعى . أما فى أوروبا العصور الوسطى ، فقد أصبحت الضيعة وحدة اقتصادية

(1) Coulton . The Med. Scene, p. 26.

(2) Cam Med. Hist., vol. 7, p. p. 719--720.

(3) Thompson: op. cit , vol. 2, p. 722.

قائمة بذاتها لا تربطها روابط تجارية بغيرها ، وعلى أهلها أن يعتمدوا على سواعدهم في كل ما يحتاجون إليه^(١) .

على أنه يجدر بنا أولاً أن نتساءل عن ماهية الضيعة (Manor) التي تقصدها في هذا البحث ، هنا نستطيع القول بأن الضيعة كانت وحدة نظام الملكية الزراعية في تلك العصور ، بالضبط كما كان الإقطاع وحدة النظام الإقطاعي ، بمعنى أن الإقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع . وكانت الضيعة أشبه شيء بمملكة أو عالم صغير ، يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة ، ويمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتي ، بحيث يشبع إنتاج الضيعة السيد والمسودين جميعاً^(٢) . فالضيعة في أوروبا العصور الوسطى كانت تكفي نفسها بنفسها إلى حد كبير ، وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها ، ما عدا بعض الكماليات كالتوابل التي يمكن لصاحب الضيعة أن يستوردها إذا أراد أن يستخدمها^(٣) . أما الصوف فكانت النساء تقمن بصباغته وغزله في فصل الشتاء في حين قام الرجال بدبغ الجلود وصناعة النعال والسروج . وفيما عدا ذلك كان لكل ضيعة حدادها ونجارها^(٤) . وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت غالبية ألقان الضيعة قد اشتغلوا بفلاحة الأرض ، فإن هناك جزءاً من هؤلاء الألقان اشتغلوا بسد حاجة الضيعة من مختلف المصنوعات اليدوية^(٥) .

وهكذا ظلت الضيعة في أوروبا العصور الوسطى تتبع نظام الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، بمعنى أنها ظلت — حتى القرن الثاني عشر على الأقل — في غير حاجة ملحة إلى شيء من التبادل التجاري مع العالم الخارجي ، الأمر الذي

(1) Pirenne, Cohen, Foellon. op. cit , p. p. 12-13. & Pirenne : Economic and Social Hist., p. p. 8-9.

(2) Boissonnade; op. cit ; p. 85.

(3) Eyre loc. cit; p. 252.

(4) Coulton : The Med. Scene; p. p. 32-33.

(5) Boissonnade; op. cit ; p. 179.

ترتب عليه عدم وجود أسواق كبرى للمنتجات القروية في ذلك العصر^(١). هذا مع ملاحظة أن الضيعة لم تكن وحدة اقتصادية فحسب ، بل كانت أيضا وحدة اجتماعية ودينية ، فاشترك أهلها في إحياء حفلاتهم وتزاجروا — عادة — بعضهم من بعض ، كما كان لكل ضيعة كنيستها وقسيسها^(٢). وخلاصة القول أن الضيعة كان الطريق الذي توصلت به الغالبية العظمى من أهالي غرب أوروبا في القرن الثاني عشر للحصول على لقمة العيش^(٣) ، كما أن سياسة الاكتفاء الذاتي التي اتبعتها الضيعة تطلبت من أهلها أن ينصرف بعضهم إلى توفير مطالب الغذاء والكساء والمأوى ، في حين انصرف البعض الآخر للنواحي الدفاعية والإدارية والروحية^(٤).

ولم يكن نظام الضيعة بسيطا بالدرجة التي قد يتصورها البعض ، بل بلغ هذا النظام درجة من التعقيد تجعلنا نكتفي باستعراض معاملة الرئيسة . وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الضيعة قد تألفت في العادة من قرية وأراضيها ، إلا أننا نجد زمام القرية الواحدة — في بعض الحالات — مقسما بين عدد من السادة الملاك ، وكل منهم يطلق على الجزء الخاص به اسم « ضيعة » ، كما نجد في حالات أخرى تجمع بعض القرى المتقاربة لينشأ من تجمعها ضيعة واحدة . ولعل هذه الاستثناءات هي التي دفعت بعض الكتاب المحدثين إلى تفضيل اسم « القرية » للدلالة على الوحدة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الريفي في أوروبا العصور الوسطى ، بدلا من اسم « الضيعة »^(٥). أما كولتون فيقول بأن القرية كانت الوحدة السياسية والكنسية في حين كانت الضيعة الوحدة الاقتصادية . حقيقة إن الضيعة والقرية كثيرا

(1) Painter : Med. Society; p. 46-47.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; p. 59.

(3) Eyre : op. cit., p. 252.

(4) Cam. Med. Hist.; vol 3; p. 473.

(5) Painter : Med. Society; p. 54.

ما يستخدمان في معنيين مترادفين ، ولكننا نجد في حالات أخرى عديدة أن القرية ضمت داخل زمامها ضيعتين أو أكثر^(١) .

وكانت هذه الضياع مملوكة بالواحدة أو بالجملة ، فامتلك الدير الفلاني عشرين ضيعة ، وامتلكت الأسقفية الفلانية أربعين ضيعة وامتلك الأمير الفلاني خمس ضيعات . وربما بعدت هذه الضياع -- المملوكة لفرد واحد أو هيئة واحدة -- بعضها عن بعض خمسين أو مائة ميل ؛ مما يدل على أن نظام الضياع قام من الوجهة الاقتصادية على أساس مجتمعات قروية مبعثرة ترتبط بـمالك معين ، قد يبعد عنها في كثير من الأحيان^(٢) . ومن الواضح أنه إذا كان المالك يمتلك ضيعة واحدة ، فإنه كان في هذه الحالة يعيش في دواره القائم بهذه الضيعة معتمدا على ماتدره ضيعته من إيراد وخيرات . أما إذا امتلاك أكثر من ضيعة ، فإنه كان يختار إحداها لأقامته ، ويعين مشرفين أو وكلاء ينوبون عنه في بقية الضياع . وفي معظم الحالات كان المشرف (bailiff) الذي ينوب عن صاحب الضيعة في إدارتها يقيم في دوارها الرئيسي (manor-house)^(٣) .

وكان هذا الدوار يمثل قسما وافرا من الثراء والترف بالنسبة لمستويات ذلك العصر. وجرت العادة أن تحيط به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة وخلايا النحل والحماز التي يخزن فيها انتاج الضيعة، فضلا عن الآلات والعربات والعديد المستخدمة في فلاحه أراضيها^(٤) . وعلى مقربة من الدوار قامت كنيسة شالية ملحق بها منزل قسيسها . وفي كثير من الأحيان كان الدوار والكنيسة هما المبنى الوحيدان من الطوب في الضيعة . أما الحقل الخاص بالقسيس فيكون بعيدا عادة عن أراضي السيد التي يقوم الأقنان بفلاحتها ، وإن كان الأقنان هم الذين يقومون

(1) Coulton : The Med. Scene; p. 24.

(2) Gras : The Lagacy of the Middle Ages, p. 435.

(3) Cam. Med. Hist., vol 7, p. 719.

(4) Stephenson : Med. Hist., p. 259.

أيضا -- في غالبية الأحيان -- بفلاحة أرض القسيس^(١). ومن مجموع الضياع التي يمتلكها السيد الإقطاعي تألف ما يعرف باسم الدومين ، الذي يمثل المصدر الحقيقي لقوته ونفوذ^(٢).

أما الفلاحون فكانوا يعيشون في أكواخ من جذوع الأشجار وفروعها ، غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ . وامتازت هذه الأكواخ بالقذارة وحقارة أثاثها ، الذي تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبي عليه وسادة ممشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة ، ومنضدة صغيرة ، وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاثة الأرجل ، وصندوق وقليل من الآنية الحديدية والفخارية^(٣). ولم تستخدم أية وسيلة صناعية لإضاءة هذه الأكواخ ، لأن الشموع اقتصر استعمالها على السكنايس ودوار السيد صاحب الضيعة ؛ هذا فضلا عن خطر الحريق في قرية من هذا النوع القابل للاشتعال . وبالإضافة إلى ذلك فإن الفلاح لم يكن لديه ما يعمل به بعد غروب الشمس ، فهو لا يعرف القراءة والكتابة ، وعليه أن ينهض صباحاً مع شروق الشمس ويأوى إلى فراشه مبكراً مع غروبها^(٤). وعند طهي الطعام أثناء النهار ، كان الدخان يتصاعد من فتحة صغيرة في سقف الكوخ ، ولكن المطر كثيراً ما صار يتسرب من هذه الفتحة ليجمل أرضية الكوخ في حالة زلقة موحلة . أما في الصيف فكان يتم طهي الطعام خارج الأكواخ في مكان عام بالقرية مخصص لذلك ، حيث تعلق قدور الطهي في قضبان عالية فوق النار . وكان الفلاح هو الذي يبنى كوخه ويصنع أثاثه ، في حين تقوم زوجته وبناته بعمل الخبز والطعام وغزل الصوف وصناعة ما يتدثرون به من ثياب بحيث لم يكن في حاجة إلى شراء شيء من غيره^(٥). وهكذا عاش

(١) Thompson : op cit , vol 2, p. p 723-724.

(٢) Boissonnade op. cit , p, 85

(٣) Idem, p 98

(٤) Thompson : op cit , vol 2, p 723

(٥) Boissonnade : op. cit , p 102

الفلاحون في أوربا العصور الوسطى في ظروف صعبة غير صحية مما أدى إلى انتشار كثير من الأوبئة والأمراض بين حين وآخر^(١).

وكانت الضيعة الواحدة تضم أنواعاً مختلفة من الأقدان على درجات متفاوتة من العبودية، واختلفت أعمالهم والواجبات المفروضة عليهم باختلاف درجاتهم. وباستثناء العبيد الذين قد يكونون بالضيعة، والذين اقتصر عملهم على الخدمة المنزلية داخل دوار السيد الإقطاعي دون أن تكون لهم وظيفة خارجية، حتى أخذوا ينقضون من المجتمع الأوربي منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الثاني عشر^(٢)؛ فإنه وجد داخل الضيعة أحياناً بعض الملاك الأحرار الذين يمتلكون مساحات من الأرض مقابل دفع رسوم معينة، ولهم حرية بيعها أو شرائها^(٣). وكان أهم ما يميز هؤلاء المزارعين الأحرار حقهم في حمل السلاح، وفي تزويج بناتهم أو إلحاق أبنائهم بسلك الكهنوت دون التقيد بموافقة السيد الإقطاعي، زيادة على حريتهم في بيع مواشيهم وفق ما تطلبه مصالحهم الخاصة^(٤). على أن معظم فلاحى الضيعة كانوا من الأقدان المرتبطين بالأرض، والذين يولد الواحد منهم ليجد أباه مرتبطاً بأرض معينة فيرتبط هو الآخر بنفس الأرض ولا يستطيع تركها متحملاً ما يفرض عليه من أعباء ومهام شاقة^(٥). ومهما اختلفت أصول هؤلاء الأقدان فإن تفاوت أنصبتهم من الحرية كان ضئيلاً لأنهم كانوا جميعاً مقيدين بقيود شديده تجعلهم غير أحرار^(٦). فالقن في الضيعة كان يتحتم عليه خلق شعر رأسه، لأن الشعر القصير أو الطويل من مميزات

(1) Eyre : op. cit., p. 254.

(2) Heaton : Economic Hist., of Europe, p. 90.

(3) Eyre : op. cit., p. 251.

(4) Heaton : op. cit., p. 91.

(5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 58.

(6) Stephenson : Med. Hist.; p. p. 255-256.

الأحرار^(١)، كما كان لا يستطيع أن يدعى حق الملكية الشخصية ، لأن كل ما يمتلكه يعتبر خاصاً بالسيد الإقطاعي صاحب الضيعة . ولكن يلاحظ في الوقت نفسه أن هذا القن لم يكن عبداً بمعنى الكلمة ، لأن سيده كان لا يستطيع التصرف فيه بالبيع مثلاً أو أذيته جثامياً دون ذنب أو محاكمة^(٢) . وعلى هذا نستطيع القول بأن القن لم يكن عبداً ولا حراً ، وإنما كان بين هذا وذاك ، فهو لا يتمتع إلا بقليل من الحقوق المدنية قبل سيده ، ولكنه — خارج نطاق علاقته بسيده — يعتبر في نظر الدولة والكنيسة حراً ، له ما للأحرار من حقوق وإرادة وحرية في عقد أى اتفاق مع غيره^(٣) . ثم إنه من الخطأ أن نظن أن مصالح الغالبية من أقتان الضيعة كانت تهدر في سبيل مصلحة السيد الإقطاعي صاحب الضيعة ، لأن الواقع هو أن الضيعة تألفت من مجتمع ريفي له حكومة ذاتية وإدارة إقطاعية تنظمه وتسيطر عليه لتحقيق الخير لجميع أهاليه وتنظيم أسباب العيش لهم ، فضلاً عن تزويد السيد الإقطاعي بما يطعم فيه من أرباح^(٤) .

وقد تفاوتت الضياع ، واختلفت بعضها عن بعض في المساحة وعدد السكان ، فالضيعة الصغيرة ضمت حوالى خمس عشرة أسرة في حين ضمت الكبيرة نحواً من خمسين أو ستين أسرة . واختصت كل أسرة من هذه الأسر بحصة ثابتة ، أو نصف حصة أو ربع حصة أو ثمن حصة تبلغ مائة وعشرين فدانا أو ستين أو ثلاثين أو خمسة عشر . كذلك اختلفت الحقوق والواجبات التي تحققت أو التزمت بها هذه الأسر وفق مساحة حصتها^(٥) . على أنه يلاحظ أن هذه الأراضي كانت توزع على الفلاحين بشروط وقيود ، لأنها في الحقيقة ملاك للسيد الذي يمتلك الضيعة

(1) Boissonnade : op. cit., p. 99.

(2) Painter : Med. Society; p. 55.

(3) Cam. Med. Hist., p. 479.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 474.

(٥) محمد مصطفى زيادة : الاقطاع والعصور الوسطى ص ١٠٤ .

ومن فيها من اثنان ، ولذلك سميت (tenures)^(١) بمعنى القابض أو المسك لأن الأرض هي التي تمسك بالقرن وتربطه بها ، وليس هو الذي يمسك بالأرض ويربطها بشخصه^(٢) .

على أنه من المهم أن نلاحظ أن الضيعة لم تكن مجرد مجموعة من الأكواع يتوسطها دوار السيد الإقطاعي ، وتحيط بها الأراضي الزراعية والمراعي والغابات ، وإنما كانت الضيعة في حقيقة أمرها اتحاداً أو هيئة متعاونة من الفلاحين تعمل سوياً في فلاحة الأرض واستغلالها وسد كفايتهم من حاصلاتها . فزارعوا الضيعة الواحدة كانوا يشتركون بعضهم مع بعض في تحديد موعد حرث الأرض و بذر البذور فيها وجمع المحصول منها بل في تقرير أنواع المحصولات التي يزرعونها^(٣) . وبالإضافة إلى الأراضي الزراعية المقسمة إلى حصص بين الفلاحين وجدت أرض مشاعة تشمل مراعى لرعى الماشية ومروجاً تهبها لها طعاماً في الشتاء ، فضاءً عن الغابة التي يحصل منها أهل الضيعة على ما يلزم لهم من أخشاب^(٤) . ولم تكن هذه الأرض المشاعة مقسمة إلى حصص مثل الأرض الزراعية ، وإنما كانت من الوجهة القانونية تابعة للسيد ، ومن ناحية العرف حقاً مشاعاً لجميع أهل القرية^(٥) . ومع ذلك فقد وضعت عدة قيود تحدد أوقات الرعى ونوع الماشية وعددها ، بحيث تتمتع كل أسرة بنسبة ما لها من أرض زراعية ، وذلك مراعاة للعدالة من ناحية وضماناً لحماية المرعى من سوء الاستهلاك من ناحية أخرى^(٦) . وثمة ملاحظة أخرى على توزيع أراضي الضيعة واستغلالها ، وهي أن السيد

(١) من اللفظ اللاتيني (tenere) بمعنى يمسك .

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 726.

(3) Painter : Med. Society, p. 47.

(4) Heaton : op. cit., p. p. 103-104.

ومحمد مصطفى زيادة . الاقطاع ص ١٠٥ - ١٠٩ .

(5) Painter : Med. Society, p. p. 44-45.

(6) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 174.

الإقطاعى كان لا يقسم جميع أراضيها الزراعية بين الفلاحين إلا بعد أن يحتفظ لنفسه بمزرعة مناصبة (demesne) ، تبلغ مساحتها عادة ثلث الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة^(١) ، وتمتد السيد الإقطاعى بكل ما يحتاج إليه من ضروريات الحياة^(٢) .

أما الطريقة التى اتبعت فى فإراحة أرض الضيعة فتتمثل دورة زراعية محكمة تعرف بالحقول الثلاثة (Three Fields) . ذلك أن جميع الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يزرع فى الربيع ، وقسم يزرع فى الخريف ، والقسم الثالث يترك مراحا بغير زرع . وفى كل سنة يحدث تبادل بين هذه الأقسام فأرض الخريف تترك فى العام التالى مراحة بغير زرع ، وأرض الربيع تزرع فى الخريف ، والأرض التى كانت مراحة فى العام السابق تزرع فى الربيع . وهكذا اتبعت أوروبا العصور الوسطى نظام الدورة الثلاثية فى الزراعة لعدم إجهاد الأرض من ناحية والحصول على محصول طيب من ناحية أخرى^(٣) . على أنه يبدو أن نظام الدورة الثلاثية هذا لم يستخدم فى أوروبا العصور الوسطى إلا فى المناطق الخصبة الأكثر تقدماً ؛ أما غيرها من المناطق فقد شاع فيها نظام الدورتين فتقسم الأرض إلى قسمين أحدهما يزرع والآخر يترك مراحا بالتناوب^(٤) . وقد فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحها ، وبخاصة أيام الحرث والحصاد لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات المادية التى تمكنه من العمل بمفرده فى هذين الموسمين^(٥) . فإذا فرض أنه امتلك محراثاً فإنه كان لا يمتلك الثيران اللازمة لسحبه ، ولا سيما أنه كان من العسير شق الأرض الصعبة

(1) Painter : Med. Society; p 50

(2) Boissonnade : op. cit. : p.p. 85 87.

(3) Heaton : op cit ; p p. 101-102.

(4) Painter : Med. Society; p, 44.

(5) Pirenne , Cohen, Focillon ; op. cit.; p. 113.

(م ٦ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

بالحرث البدائي المعروف حينئذ. هذا إلى أن الثيران التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى لم تكن سمنا قوية كالتي تعرفها اليوم ، وإنما كانت عجافا هزيلة ، بحيث أثارت تغذيتها بالكلأ والحشائش مشكلة دائمة في ضيعة العصور الوسطى^(١) . لذلك كانت تربط جميع ثيران الضيعة — وهي عشرون أو أكثر — في الحرث لتعمل سويا في حرث الأرض ، الأمر الذي تطلب من الفلاحين تعاوناً واشتراكاً في حرث جميع أراضيهم^(٢) . وهذا التعاون نفسه كان مطلوباً أيضاً في وقت الحصاد ، لأن الشيلم والحنطة والشوفان وغيرها كان لا بد من تخزينها بسرعة عند تمام نضجها خوفاً من تساقط حباتها وضياعها^(٣) . لذلك كان الحصاد موسم نشاط كبير ، إذ يشترك في العمل بالحقول جميع من بالضيعة من رجال ونساء وأطفال حتى يتم تخزين الحبوب في أسرع وقت ممكن . وهنا يصح أن نلاحظ أن هذا النظام الذي سارت عليه الضيعة الأوربية في العصور الوسطى كان تعاونياً لا شيوعياً ، لأنه بعد أن يتعاون جميع فلاحى الضيعة في إعداد الأرض وزرعها وجمع المحصول ، كان هذا المحصول يقسم في النهاية بنسبة الحصص التي في حيازة كل أسرة من أسر الضيعة^(٤) .

أما الماشية الموجودة في الضيعة من ثيران وخنازير وأغنام وغيرها ، فكانت المتقدمة منها في السن تذبح قبل حلول الشتاء وتقود لحومها وتملح ليُرسل نصيب الأسد منها إلى دوار السيد المالك . كذلك كان يذبح ما لا تدعو الحاجة إلى بقاءه من صغار الماشية في الخريف في حين تبقى البقية الباقية لتتقضى فصل الشتاء على الدريس والحشائش الجففة التي كثيراً ما كانت تنفذ قبل حلول الربيع فتسوء حالة الماشية

(1) Painter : Med. Society; p. 45

(2) Heaton : op. cit. ; p. 97.

(3) Thompson : op. cit. ; vol 2; p. 727.

(4) Stephenson : Med. Hist. ; p. 257.

حتى أنها لا تستطيع السير إلى المرعى في أوائل الربيع التالى إلا فى صعوبة بالغة^(١).

أما عن العلاقة بين السيد الإقطاعى صاحب الضيعة والأقنان المشتغلين بفلاحة أرضها ، فقد حددتها — فى ظل النظام السنيورى أو نظام السيادة — مجموعة من الحقوق والواجبات التى ألقت العبء الأكبر من المغارم على كواهل الفلاحين^(٢). وقد اختلفت الواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه سيدهم الإقطاعى من مكان إلى آخر نتيجة لاختلاف العادات والملايسات ، ولكنه يمكن مع ذلك تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الخدمات ، والمقررات ، والاحتكارات . أما الخدمات فكان أولها تسخير الأقنان فى فلاحة المزرعة الخاصة بالسيد الإقطاعى (demesne) فيحرقونها ويبدرون بذرها له بالتناوب^(٣) . ويسمى هذا النوع من السخرة الخدمة الأسبوعية (week work) لأن المقصود بها أن يرسل صاحب كل خصة فلاحاً ليعمل فى مزرعة السيد عدداً من الأيام فى الأسبوع يتناسب مع حصته . هذا فضلاً عن السخرة الفصلية (boon — work) التى تفرض على الفلاحين فى مواسم جمع المحصول وحصاده^(٤) . ومن الواضح أن هذه الخدمة النصليّة كانت مصدر متاعب للفلاحين لأنها تفرض عليهم فى الوقت الذى يكونون أحوج إلى ذلك الجهد والوقت لبذله فى جمع محصولاتهم الخاصة^(٥) . وهناك نوع آخر من السخرة كان يفرض على الأقنان عند ما يطلب منهم إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر ، إلى غير ذلك من الأعمال المرهقة ، التى كان السيد الإقطاعى يسخر فيها أقنان ضيعته .

(1) Painter : Med. Society; p. p. 45-46

(2) Heaton : op. cit.; P. 92

(3) Painter : Med. Society; P. 50.

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 3; p. 476 & Eyre : op. cit ; p. 253.

(5) Heaton : op. cit.; p. 93.

أما المقررات فتشمل عدة مكوس وضرائب ، أولاها ضريبة الرأس .
 (Consus, chefrage) التي يتعين على كل قن أن يدفعها سنوياً للسيد صاحب
 الضيعة إما نقداً أو عيناً من الزبد والشمع وغيرها . ويبدو أن هذه الضريبة كانت
 بسيطة وبسيطة ، ولكن الغرض الأساسي منها هي أن تظل رمزاً للعبودية^(١) .
 وهناك مكس آخر (Champart) تقرر على إنتاج الأرض والماشية ، ومقداره
 عشر ذلك الإنتاج . وكانت هذه الضريبة تتناول كل ما تخرجه الأرض من
 حبوب وخضر ، فضلا عن الماشية والدجاج والبط والاوز والبيض وغيرها^(٢) .
 وأخيراً تأتي مجموعة أخرى من الضرائب المتفرقة مثل ضريبة الولاية (Taille)
 وضريبة « الجبن » التي يدفعها الأبقار مقابل السماح لهم برعى ماشيتهم في مراعى
 الضيعة ، وضريبة الأسمك التي يدفعونها مقابل السماح لهم بالصيد في البركة
 أو النهر ... الخ^(٣) .

أما الاحتكارات فكانت عديدة ، ولا بد للفلاحين من قبولها صاغرين .
 فالسيد صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحياناً البئر
 الوحيد في الضيعة . وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً بإحضار غلاته إلى طاحونة
 السيد لطحنها ثم يحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتره وتفاحه
 إلى معصرة السيد لعصرها . . . كل ذلك مقابل أجر معين يقدمه الفلاح لسيد
 إما نقداً أو عيناً^(٤) . فإذا امتلك فرد طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التي
 من حق السيد الاقطاعي وحده أن يحتكرها اعتبر ذلك جرماً خطيراً يحاكم عليه^(٥) .

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit ; p. 62.

(2) Heaton : op. cit ; p. 95.

(3) Painter : Med. Society ; p. 50.

(4) Boissoande : op. cit ; p. 46.

(5) Painter : Med. Society ; p. 51.

وفيما عدا الالتزامات السابقة ، تعرض الأقنان لأعباء أخرى في حالة الوفاة أو الزواج أو الوراثة أو انتقال حق التمتع بالأرض من فرد إلى آخر^(١) . فالقن كان لا بد له من الحصول على موافقة السيد صاحب الضيعة إذا أراد أن يتزوج ، فإذا اختار امرأة من نفس الدومين كانت المسألة سهلة وبسيطة ، أما إذا رغب في الزواج من امرأة من دومين آخر — أى تنتمى إلى سيد آخر — فإن السيد الأول كان يخشى في هذه الحالة أن ينفق القن ولذلك يعارض في مشروع الزواج^(٢) . ولما كان من المستحيل منع زواج فرد من المرأة التي اختارها لنفسه ، فقد لجأ السادة الإقطاعيون في القرن الحادى عشر إلى فرض مبلغ كبير من المال (*Formariage*) على القن الذى يطلب الزواج من خارج الدومين^(٣) . فإذا استطاع القن الوفاء بالمبلغ فإنه يصعب في هذه الحالة أن يظل هو في ضيعة وزوجته في ضيعة أخرى ، لا سيما أن الكنيسة نفسها عارضت مبدأ تزيق الأسرة ، ولذلك كانت الزوجة تنتقل إلى الضيعة التي يعيش فيها الزوج مقابل بدل يرسله صاحب الضيعة الأخيرة إلى صاحب الضيعة التي أتت منها الزوجة . أما إذا أراد القن تزويج إحدى بناته فكان عليه أن يدفع لسيدة رسماً معيناً (*merchet*)^(٤) .

وإذا كان السيد الإقطاعي يحصل على جميع الضرائب والمكوس السابقة من الأقنان باعتباره مالك الأرض وحاميها ، فإن هناك نوعاً آخر من الحقوق القضائية حصل عليها بوصفه نائب الملك في ضيعته^(٥) . ذلك أن صاحب الضيعة باشر جميع ما كان الملك من حقوق قضائية ، كما صارت محكمته تعالج — في معظم الأحيان — مختلف أنواع القضايا ، وتوقع على المذنبين فيها شتى أصناف العقوبات بما فيها عقوبة الإعدام . ومن الواضح أن هذه الحقوق القضائية عادت بفوائد

(1) *Cam. Med. Hist* ; vol. 7,; p. 720.

(2) *Thompson* : op. cit.; vol. 2; p. 730.

(3) *Pirenne, Cohen, Focillon* : op. cit. p. 61.

(4) *Lyre* : op. cit.; p. 253 & *Heaton* : op. cit.; p. 95.

(5) *Pirenne, Cohen, Focillon* : op. cit.; p. 50.

على السادة الاقطاعيين ، لأنهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين في كثير من القضايا الصغرى ، في حين كان السيد يستولى على جميع ممتلكات الشخص الذى يحكم عليه بالإعدام . هذا بالإضافة إلى ما ترتب على مباشرة هذه الحقوق القضائية من ازدياد نفوذ السادة الإقطاعيين وسيطرتهم على الأقنان^(١) .

ويلاحظ أن الأقنان كانوا لا يمتلكون - في ظل هذا النظام -- شيئاً من الأرض التى يعملون عليها ، وبالتالي ليس لهم حق النزول عنها بالبيع أو تقسيمها بين ورثتهم ، ومع ذلك فإن ارتباطهم بهذه الأرض كان مدى الحياة ثم صار وراثياً . وقد لجأ السادة الاقطاعيون - عند وفاة أحد الأقنان --- إلى فرض ضريبة ميراث (Heriot) على أبنائه وورثته الذين سيحلون محله و يرثونه في الانتفاع بالأرض ، لافى ملكيتها . وكانت هذه الضريبة غالباً فرساً أو ثوراً قويا اعترافاً بما للسيد من حق في المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض^(٢) . هذا عدا ما كان للسيد من حق في أن يرث جزءاً من تركة قنة المتوفى ، أو التركة كلها^(٣) .

وبعد فإنه يبدو مما سبق أن القرن كان يحيا حياة شاقة مليئة بالمتاعب والآلام في ظل نظام السيادة أو النظام السنيورى . حقيقة إن العائلة التى تمتعت بثلاثين فدانا -- وما يتبعها من حصة في الغابة والمرعى -- استطاعت في السنوات العادية أن تحيا حياة مستريحة ، ولكن الفجوة بينها وبين الجوع لم تكن واسعة ، بحيث كان مألوفاً أن يتصور الجميع جوعاً في سنى الشدة .

وكان طعام القرن الأساسى يتألف من الخبز الأسمر والبيض وبعض الخضضر العادية كاللفت والفول والبازلاء . وربما أسعدته الظروف في إحدى المناسبات

(1) Painter : Med. Society; p p. 51-54 .

(2) Cam. Med Hist.; vol. 3; p. 478

(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; p. 61.

ياكل دجاجة أو غيرها من الطيور ، ولكنه كان لا يستطيع أن يتذوق اللحم
والسمك إلا نادراً^(١) . أما شرابه فكان النبيذ أو الجعة . ومع ذلك فإنه يبدو أن
القرن ظل قانعا راضيا بحياته ، ولا سيما أن هذه الحياة — مع ما فيها من ألوان
البؤس — لم تخل من بعض ضروب الترويح والتنفيس . فإذا حضر إلى الضيعة
أحد الحواة أو المهرجين ، استبقاه صاحبها ، وعندئذ يجتمع الفلاحون في الدوار
المشاهدة والترويح عن أنفسهم^(٢) . وهنا نلاحظ أن البارون أو السيد الإقطاعي
لم يختلف وقتذاك عن القرن في عقائده اختلافا واضحا ، إذ كان ما يدخل السرور
إلى قلب أحدها كفيلا بإدخال السرور إلى قلب الآخر^(٣) .

والواقع أنه على الرغم من قسوة الوضع الذي عاش فيه القرن ، إلا أنه — كما
سبق أن أشرنا — لا يمكن اعتباره عبدا من الناحية العملية ؛ لأن القانون حفظ
له بعض الحقوق تجاه أرضه وتجاه سيده ، بحيث أنه لم يكن غريبا إذا شب
خلاف بين قن وسيده أن تصدر المحكمة الإقطاعية حكمها في صالح الأول^(٤) .
حقيقة إن القرن بدا في كثير من الحالات عاجزا أمام استبداد سيده ، ولكنه
استطاع أن يضمن لنفسه في ظل هذا النظام — نظام السيادة (Seigniorial regime) —
نوعا من الحماية لا سيما ضد الخطر الخارجي . وبعبارة أخرى فإن هذا النظام لم
يسكن جميعا لا يطاق ، فقد فيه القرن كل أمل في الخلاص ؛ لأنه على الرغم من
قسوته وشدته ترك بعض الثغرات والمخارج أمام القرن ليحيا حياة أفضل^(٥) .

ثم كان أن أخذ نظام الأقطاع في الانهيار نتيجة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية
التي بدأت تجتاحها أوروبا منذ أواخر القرن الحادي عشر^(٦) . وقد أخذت هذه

(1) Painter : Med. Society; p. 40.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 732.

(٣) محمد مصطفى زيادة : الاقطاع والعصور الوسطى بفرن أوروبا ص ٣٢ .

(4) Eyre : op. cit.; p. 253.

(5) Boissonnade : op. cit; p.p. 143-144.

(6) Pirenne, Cohen, Fucillon : op. cit.; p p. 62-63.

التطورات في الظهور قبيل الحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب عجّلت بها نحو الأمام ؛ حتى أن الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قن تركوا أرضهم التي ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة الاشتراك في النشاط الصليبي . ثم كانت نشأة المدن وتطورها ، مما فتح بابا جديدا أمام الأتقان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن . ولم يلبث أن استكشف أصحاب الضياع أن نظام العبيد والأتقان غير اقتصادي^(١) ، وأنه من الأوفر لهم والأجدى عليهم استخدام عمال مأجورين من الأحرار في فلاحية أرضهم لأن هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى وبالتالي يأتون بإنتاج أوفر^(٢) . وهكذا أخذ كبار الملاك يهررون أقتانهم بالحملة يفتي شروط خاصة تصدر بها براءة من المالك^(٣) . وكان أن تلبّث في القرن الثاني عشر سرقة كبرى لآحياء الأرض البور وتطهيرها واستصلاحها (*grands défrichements*) نشأ عنها زيادة الانتاج والدخل ، وفي الوقت نفسه تمسين أحوال المزارعين^(٤) . ذلك أن كبار الأمراء والسادة المتطامعين اضطروا إلى عرض شروط مغرّبة تلبى الفلاحين ليقوموا بإحياء هذه الأراضي وفلاحتها ، مما ساعد على هدم النظم القديمة تدريجيا^(٥) . هذا إلى أن النشاط التجاري في القرن الثاني عشر وما ترتب عليه من التوسع في استخدام النقود ، أدى تدريجيا إلى أن أخذ الفلاحون يدفعون ما عليهم من التزامات نقدا لا عينا ، وإن ظلت بعض أسماء الضرائب والمكوس محتفظة بأسمائها القديمة^(٦) . وإذا كان نظام الأتقان قد ظل قائما في جميع أنحاء أوربا في القرن الثالث عشر ، إلا أنه كان آنذا حينئذ في الاحتضار السريع^(٧) .

(1) Coulton : The Med. Society p. 23.

(2) Cam Med Hist : vol 7 ; p p. 728-729.

(3) Painter : Med. Society ; p p. 50-60.

(4) Pirenne, Cohen, Poellon : op. cit. ; p. 65.

(5) Painter : Med. Society ; p.p. 57-58.

(6) Idem ; p. 59.

(7) Cam Med. Hist : vol. 7 ; p. 727.

مركز المرأة في المجتمع :

أما عن مركز المرأة في مجتمع أوروبا العصور الوسطى فكان ثانوياً بحتاً .
ويبدو أن المصالح العائلية أو المالية هي التي تحكمت دائماً في اختيار الزوجة ،
إذ كان يراعى فيها . . بقدر الإمكان — أن تكون وريثة إقطاع أو على الأقل
وريثة جزء كبير من الأرض . وبعد الزواج يصبح مطلوباً منها أن تضع مولوداً
ذكراً ، فإن اختفت في هذه المهمة كان من السهل على زوجها غالباً أن يغرى
الاستغف بفسخ الزواج^(١) .

وقد فرض النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى على المرأة أن تكون
دائماً تحت وصاية رجل ، أبوها في أول الأمر ثم زوجها بعد ذلك . أما الأرملة
فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها . حقيقة إنه كان من حق المرأة
أن ترث إقطاعاً ، ولكنها لا تستطيع أن تباشر حقها في حكمه إلا عن طريق
زوجها . ولعل من الواضح --- بعد عرضنا لقواعد النظام الإقطاعي --- تفسير هذه
الظاهرة في ضوء عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين
وهي الحرب^(٢) .

أما الكنيسة ، فالتحذت في العصور الوسطى موقفاً متناقضاً من المرأة ،
إذ اعتبرتها من ناحية شريكة آدم التي حرصت على المعصية والخطيئة وهي لذلك
لا تستحق إلا كل احتقار وامتهان ؛ كما نظرت إليها من ناحية أخرى على أنها
تمثل مريم العذراء أم المسيح وهي لذلك جديرة بكل احترام وتقدير^(٣) .
وإذا كانت النظرة الأولى جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج على أساس

(1) Stephenson : Med. Hist ; p. 268.

(2) Painter : Med. Society; p. 29.

(3) Crump, Jacob : The Legacy of the Middle Ages, 402.

أن المرأة عامل من عوامل الغواية ، فإن النظرة الثانية جعلتها تساعد في نشر فكرة سمو المرأة^(١).

على أن الفضل يرجع إلى الطبقة الأرستقراطية في تطور فكرة تبجيل المرأة في العصور الوسطى ، إذ أصبح هذا التبجيل صفة من الصفات الأساسية التي يجب أن يتحلى بها الفارس ، حتى قال بعض الكتاب « إن الفارس نصير الله والمرأة »^(٢). وتتضح هذه الفكرة واضحة في أشعار التروبادور ، التي تظهر كيف كان جمال المرأة ورقها وعقلها تستهوى قلب الرجل وحبها ؛ وأن الحب لم يستهدف شيئاً غير ادخال السرور على قلب محبوبته ، فلا يأبه بطعام أو شراب ولا يتأثر لحر أو برد في سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها^(٣).

ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأى حق قبل زوجها . حتى أن كتاب العصور الوسطى أيدوا حق الزوج في ضرب زوجته وإيذاها إذا خالفته . وكل ما فعلته الكنيسة لإزاء هذا الوضع هو تحديد حجم العصا التي يصح للزوج أن يستخدمها في ضرب زوجته^(٤).

ولكن على الرغم من أن المرأة كانت شريكة مغبوناً للرجل في ظل النظام الإقطاعي ، إلا أنها احتلت المكانة التالية له مباشرة في الحصن والضيعة . وبعبارة أخرى فإنها لم تتمتع بحقوق تجاه زوجها ولكنها تمتعت بكل ما لزوجها من حقوق تجاه غيرها^(٥). وهناك أمثلة كثيرة من العصور الوسطى لنساء حملن الرسالة أثناء غياب أزواجهن في الحرب أو بعد وفاتهم ، فقمين بإدارة الضياع والدفاع عنها أو بجمع الأموال لفدية الزوج الأسير^(٦).

(1) Coulton : Life in the Middle Ages, vol. 4; p. 23.

(2) Grump, Jacob : The Legacy of the Middle Ages; p.p. 405-416.

(3) Painter : Med. Society; p. 36.

(4) Idem. P. 29.

(5) Idem. p. 30.

(6) Stephenson : Med. Hist.; P. 268.

وإذا كانت سيدات الطبقة الارستقراطية والطبقة البورجوازية قد تتمتعن بقسط من الراحة والتسلية ، فإن الفلاحات وزوجات الأثنان حرمن من هذه النعمة ، لأن قسوة الحياة كثيراً ما أجبرتهن على مشاركة أزواجهن في الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش . لذلك أسهمت الفلاحة بسهم وافر في الحياة الأوربية في العصور الوسطى ، وقامت في داخل المنزل بكل ما احتاجت إليه الأسرة من طعام وشراب ومابس ، فعملت في جز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها ، وتربية الدواجن ، وصناعة مستخرجات الألبان ؛ هذا كله زيادة على تربية أولادها . أما خارج المنزل فقد أسهمت في بناء الأكواخ وقطع الأعشاب وجمع المحصول وتخزينه^(١) . ومع ذلك فإن العرف الإقطاعي شمل زوجة القن بشيء من الرعاية ، إذ جرت العادة على اعفائها — وهي في حالة الوضع — من ضريبة الدجاجة التي عليها أن تقدمها سنوياً قبل الصيام الكبير ، فضلاً عن حصولها في هذه الحالة على بعض المساعدات المادية^(٢) .

أما في المدن فقد اشتغلت المرأة بصناعة الجعة والنبيد بالإضافة إلى غزل الأصواف . ويبدو أن هذه الحرف فتحت باباً للعمل أمام غير المتزوجات من الأرامل والعانسات ، على الرغم من حرص بعض النقابات على تحريم اشتغال النساء بأعمال معينة حتى لا ينافسن الرجال بسبب رخص أجورهن^(٣) . وهناك فريق آخر من النساء أقبلن على الحياة الديرية وانخرطن في سلكها لاشباع الناحية الدينية في نفوسهن ، فضلاً عن أن هذه الحياة هيأت لهن قسطاً من الثقافة الراقية والعمل المنتج^(٤) .

(1) Coulton : Life in the Middle Ages; vol 1, P. 217.

(2) Crump, Jacob : The Legacy of the Middle Ages, P. 428.

(3) Boissonnade : op. cit.; P. 221.

(4) Coulton : Life in the Middle Ages; vol 4; P.P. 5-22 & Crump, Jacob : op. cit ; P.P. 412-413.

الباب الرابع

المدن والتجارة

إحياء المدن والتجارة :

كانت المدن بمثابة المكان المختار الذى أخذ الأفتان ينزحون إليه عندما انحل النظام الزراعى القائم على أكتافهم . والواقع إن نشأة المدن فى العصور الوسطى جاءت ثورة بالغة الخطورة ، لافى الميدانين السياسى والإقتصادى فحسب ، بل فى الميدان الاجتماعى أيضاً . ولم تكن هناك ثمة علاقة تربط المدينة الأوربية التى ظهرت فى العصور الوسطى بالمدن القديمة التى عرفها العصر الرومانى ؛ والتى بلغت أقصى درجات التقدم والنشاط فى القرنين الأول والثانى للميلاد^(١) . ذلك أن المدن القديمة أصابها الذبول نتيجة للأخطار التى تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية ، فتناقصت مساحتها وقلت أهميتها ولم تعد منذ القرن الخامس مركزاً للنشاط الحيوى فى أوربا^(٢) . وإذا كانت هذه المدن قد احتفظت بشيء من الأهمية فى العصور المظلمة ، فرجع ذلك أنها أصبحت مراكز أسقفية ؛ وبعبارة أخرى فإن أهميتها أصبحت تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى بعد أن فقدت مكاتها فى التنظيم الإدارى^(٣) . أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد أصبحوا أقناناً ، وأن استمر كثير منهم يعملون كعمال وصناع وبخاصة فى الأديرة . وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين ، أكثر من مركز

(1) Painter : Med. Society; p. 63.

(2) Eyre : op cit, p. 256.

(3) Cam Med Hist., vol. 6, p. 507.

دينى لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى إلا القدر الذى يكفى حاجة المؤسسات الدينية ورجال الدين وأتباعهم^(١).

ومن الثابت أن الإقتصاد الأوروبى اتخذ طابعاً زراعياً بحثاً منذ نهاية القرن الثامن ، فأصبحت الأرض المصدر الرئيسى للثروة ، واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات ، وبذلك انعدمت التجارة أو كادت تنعدم ، وأصبحت الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الإقتصادية والإجتماعية فى أوروبا^(٢). أما النشاط التجارى الذى وجد فى أوروبا بين القرنين الثامن والعاشر ، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة ، والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية ، ثم على النشاط التجارى الذى قام به الفيكينج فى بحر الشمال والبحر البلطى وسهول روسيا من جهة ثالثة . وربما ساعد على انحطاط التجارة فى هذه الفترة موقف الكنيسة نفسها التى ظلت تنظر إلى الكسب التجارى على أنه غير حلال ، وأن الأرض الزراعية وحدها هى المورد الطيب الذى يمكن أن يعيش عليه الإنسان^(٣).

ثم كان أن ظهرت فى العصر الإقطاعى مجتمعات من الأقنان ، اختاروا العيش بخوار القصور والحصون والأديرة للاحتماء بها^(٤). وقد أدت كثافة هذه المجتمعات فى بعض الجهات وتمتعها بالسلم والحماية إلى تمكينها من القيام بنشاط صناعى محدود ؛ حتى أن الأقنان الذين كانوا يعملون صيفاً فى فلاحة الأرض ، أخذوا يشغلون وقتهم فى الشتاء بالتجارة وصناعة الجلود أو الأوانى الفخارية ليبيعوا إنتاجهم فى أقرب سوق محلى^(٥). وهكذا بدأت هذه المجتمعات الجديدة تعتمد

(1) Pirenne ; Economic and Social Hist. of Med. Europe, p. ٦

(2) Pirenne, Cohen, Focillon ; op cit., p p 10-12

(3) Ibid; p. 2٩

(4) Pirenne; Medieval Cities; p. p. 72-76.

(5) Cam Med. Hist. vol. 6; ps; 477,514

شيئاً فشيئاً على القرى والمناطق الريفية المجاورة في الحصول على قوتها وفي تصريف إنتاجها الصناعى البسيط^(١). أما النشاط التجارى فإن الفضل في إحيائه لا يرجع إلى هذه المجتمعات بقدر ما يرجع إلى التجار الجائلين وبخاصة اليهود، الذين قاموا باستيراد الساع والبضائع لبيعها للتبلاء وأتباعهم^(٢). وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوربية في ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى أن لفظ يهودى Judaeus أصبح مرادفاً للفظ تاجر mercator^(٣). وكان هؤلاء التجار في أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الإستقرار في منطقة بعينها، ولكنهم أخذوا يستقرون تدريجياً بعد ذلك ليجعلوا من بيوتهم مخازن تجارية حقيقية^(٤).

ولم يلبث الأمراء المحليون أن سمحوا لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم نظراً للفائدة التي تعود عليهم من وراء فرض ضرائب على تجارتهم من ناحية وإثارة نوع من النشاط والحركة في المنطقة من ناحية أخرى^(٥). وكان أن أقام التجار في القرن الحادى عشر شبه حظائر مسورة متاخمة لحصون الأمراء، تمتعوا فيها بقسط من الحرية الشخصية لم يتوافر للأقنان في الضياع المجاورة^(٦). وهكذا أخذت هذه المجتمعات التجارية تتطور سواء كانت مرتبطة بإحدى المدن الأسقفية أو خارج سور دير من الأديرة أو بالقرب من بعض الحصون الاقطاعية — لتنشأ منها مدن العصور الوسطى؛ كما تطورت الحقوق المحدودة التي حصل عليها تجار هذه المجتمعات من الأسقف أو مقدم الدير أو السيد الاقطاعى لتصبح نواة للعهود والبراءات الاعفائية التي تمتعت بها المدن فيما بعد^(٧).

(1) Pirenne : Economic and Social Hist; p. p. 42-44

(2) Cam. Med. Hist; vol. 6; p. p. 509-511.

(3) Pirenne, Cohen, Foëx : op. cit.; p. 15.

(4) Idem; p. p. 40-41.

(5) Painter: Med. Society; p.p. 72-73 & Cam. Med. Hist., vol 6. p. 510

(6) Cam. Med. Hist.; vol. 6; p. 477.

(7) Pirenne : Economic and Social Hist., p. p. 71-74.

وإذا كانت الفترة الواقعة بين سنتي ٥٠٠، ١٠٠٠ تقريباً تمثل عهداً مظلماً في تاريخ المدن الأوروبية ، إذ اختفت فيها الحياة المدنية من أوروبا وصحب ذلك ذبول التجارة والصناعة^(١)؛ فإنه يمكن تلخيص العوامل الرئيسية التي أدت إلى مولد مدينة العصور الوسطى في القرن الحادى عشر في إحياء التجارة ، وظهور طبقة التجار وقيام المجتمعات التجارية البدائية التي سبقت الإشارة إليها^(٢) . ومعنى ذلك أن المدينة الأوروبية مرت بأدوار شاقة قبل أن تصبح مركزاً تجارياً وصناعياً واضح المعالم ، لأنها ظلت أمداً طويلاً تصور الطابع العام للمجتمع الزراعى الذى ساد العصور الوسطى^(٣) . هذا إلى أن سكانها ظلوا قلة صغيرة لا يتصورها العقل ، حتى أن المدن الكبرى — مثل مينز وكولونيا فى ألمانيا ، وميلان وباثيا فى إيطاليا وباريس وليون فى فرنسا — لم يزد سكان إحداها فى القرن الحادى عشر على بضعة آلاف نسمة على أقصى تقدير^(٤) . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن العامل الجغرافى لعب دوراً هاماً فى نشأة المدن وتطورها ، فبعضها مثل البندقية وبيزا استمدت أهميتها من كونها موانئ تطل على البحر ، والبعض الآخر — مثل كريمونا — كانت ملتقى عدة روافد هامة لنهر معين ، ونوع ثالث — مثل فيرونا وسينا وبولونيا — كانت تتحكم فى ممرات أو طرق رئيسية ... وهكذا^(٥) . هذا إلى أن الإقليم بأجمعه كانت له فى بعض الأحيان ظروفه التى ساعدت على نشأة المدن وازدهارها . فإيطاليا تقع عند منتصف الطريق بين الشرق والقسطنطينية من جهة والغرب من جهة أخرى، مما شجع مدها على القيام بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . ومثل ذلك يقال عن فلاندرز وشامبني فى الوساطة بين جنوب أوربا وشمالها^(٦) .

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. p. 209-210.

(2) Cam. Med. Hist; vol 6, 477.

(3) Pirenne : Med. Cities; p p 60-76.

(4) Boissonnade : op cit , d. 203.

(5) Cam. Med. Hist., vol. 5; p. 208.

(6) Idem; p. p. 208-209.

ثم كان أن وجدت حالة من السلام والاستقرار في القرن الحادى عشر مكنت
التجار من مباشرة نشاطهم ، وبالتالي ساعدت على ازدهار المدن . هذا بالإضافة
إلى ما كان من حركة الإصلاح الكنسية التى ترتبط فى التاريخ باسم ديركلوفى ،
وما ترتب على كل ذلك من إقبال على إزالة الغابات وتجنيف المستنقعات .
وأخيراً جاءت الحروب الصليبية لتضيف عاملاً قوياً إلى العوامل التى أدت إلى تخليص
نظام الضياع (manorial-system) ، وتشجيع التجارة والصناعة ، بحيث لم تعد
الأرض المصدر الوحيد للثروة (١) .

وهنا نلاحظ أن التوسع الإسلامى فى حوض البحر المتوسط منذ القرن
السابع حطم وحدة ذلك البحر وأضعف النشاط التجارى فيه ، ولكنه لم يقص
على ذلك النشاط تماماً . ذلك أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية
ترك الباب مفتوحاً أمام التبادل التجارى بين المدن الإيطالية — وبخاصة البندقية —
من ناحية ، وأراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى (٢) . ومع هذا فإنه يمكن
القول بأن النشاط التجارى فى غرب أوروبا انحط إلى أسفل درجاته فى القرن
العاشر ، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر ،
لتضعف من النشاط التجارى للمدن البحرية (٣) فظهرت أمالفى وجنوا وبيزا ومرسيليا
وناربون وبرشلونة لتنافس البندقية فى ذلك النشاط . وكان البنادقة بوجه خاص
يحملون إلى أسواق مصر والشرق الرقيق والجوارى من الصقالبة المجلوبين من شاطئ
دالماتيا فضلاً عن الأخشاب والحديد ؛ ويستوردون بدلاً منها مختلف الحاصلات
الشرقية (٤) .

(١) Pirenne, Cohen, Foellon : op. cit., p. 31 & Cam Med. Hist.,
vol. 5, p. 636.

(٢) Pirenne, Cohen, Foellon : op. cit., p. 19-21 .

(٣) Painter : Med., Society ps., 64, 69.

(٤) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 18.

وعندما تكدست البضائع المستوردة من الشرق في هذه الموانئ ، أخذت تسقى سبيلها نحو وسط أوروبا وغربها عن طريق السهل المباردي وممرات جبال الألب وطريق الراين ، مما أثار نشاطاً كبيراً في المدن الواقعة على هذا الطرق . على أن هذا النشاط التجاري في جنوب أوروبا ووسطها صحبه نشاط مماثل في شمالها ، حيث غدا إقليم فلاندرز في القرن الثاني عشر ، مركزاً رئيسياً لهذا النشاط ، بفضل انهاره وموانيه التي جعلته على اتصال بشمال أوروبا ووسطها وجنوبها^(١) . ومن المعروف المسلم به أن الدافع الرئيسي للنشاط التجاري يرجع إلى وجود مجتمعين أو أكثر ينتج كل منهما نوعاً خاصاً من المنتجات التي يحتاج إليها غيره ، مما يحتم على كل مجتمع مبادلة الفائض من إنتاجه بما هو في حاجة إليه من إنتاج المجتمع الآخر^(٢) . وفي ضوء هذا الاعتبار — زيادة على أهمية الموقع الجغرافي — يمكننا أن نفسر انتماش مدن لمبارديا وفلاندرز في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، إذ تقع الأولى بين الشرق والغرب ، في حين تقع الثانية بين الشمال والجنوب^(٣) . وهكذا أخذت تزداد قوافل التجار المسافرين بطريق البر أو النهر أو البحر ، ولم يعد هؤلاء التجار من اليهود وحدهم ، وإنما شاركهم المبارديون والتسكانيون والبنادقة والجنوية والفلمنكيون والبروفنساليون^(٤) . كذلك استتبع هذا النشاط التجاري كثرة المعارض والأسواق الكبيرة في مختلف أنحاء أوروبا ، بعد أن اختفت الأسواق المحلية الصغيرة لا يمكنها النهوض بمطالب المستهلكين والتجار . ويختل القرن الثالث عشر أهمية كبرى في التاريخ التجاري لأن طرق

(١) انظر إقام فلاندرز في العصور الوسطى بصناعة الأجواخ والمنسوجات الصوفية ونحوها ، من أن شارلمان لم تبد شيئاً يهديه إلى مأسره الخليفة هارون الرشيد أجل وأمن من بس مـه الأمانة الصوفية التي ينتجها إقليم فلاندرز .

(أنظر : Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit., p. 70.)

(2) Painter : Med. Society; p. 66.

(3) Idem; p p. 66—69.

(4) Boissonade : op. cit.; p p. 162—163.

(م ٧ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

التجارة القديمة استبدلت بها أخرى جديدة^(١). فاستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ عطل طريق القسطنطينية التجارى ؛ كما اتاحت الحرب الصليبية ضد المراتقة الألبينجسيين فرصة للملك فرنسا للحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر المتوسط ؛ فدخلت مرسيليا و برشونة فى دائرة النشاط التجارى مع الشرق . أما فى شمال أوروبا فإن الفرسان التيتون نهضوا بتجارة بروسيا ليتسع نطاقها شرقا على شاطئ البحر البطلى ، كما أسسوا موانى لياو وميميل وريفال^(٢) . ثم كان أن دمر المغول مدينة كييف سنة ١٢٤٠ وبالتالى قطعوا الطريق التجارى بين البحر ين الباطلى والأسود ، فأخذت نوفجود فى أقصى الشمال تعمل على توطيد علاقاتها التجارية مع موانى استوانيا وشمال ألمانيا واستفادت فعلا من ذلك^(٣) . ولم يقف تأثير المغول فى طرق التجارة عند هذا الحد ، بل إن استيلاءهم على العراق و بغداد سنة ١٢٥٨ أدى إلى تركيز التجارة بين الشرق والغرب فى طريق البحر الأحمر وموانى مصر المملوكية من ناحية وطريق طرابيزون من ناحية أخرى^(٤) . ومن الواضح أن هذه التغييرات وغيرها أثرت فى النشاط التجارى للمدن الأوربية الناشئة تأثيراً بالغاً ، حتى بلغت قيمة ما تستورده البندقية سنوياً من بضائع الشرق عن طريق دولة المماليك وحدها مليون دوكلات^(٥) .

ويمكن القول بأن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ - وهى السنة التى نجحت فيها ثورة كولونيا ضد أسقفها - وسنة ١١٨٣ - وهى السنة التى حصلت فيها مدن الحلف اللباردى على حقوقها فى الحكم الذاتى من الامبراطور فردريك بربروسا

(1) Cam. Med. Hist; vol. 6; p.p. 478 - 479.

(2) Pirenne, Cohen, Foellon : op. cit.; p.p. 128-129.

(3) Rambaud : Hist de la Russie; p.p. 126-131.

(4) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 737.

(5) Boissonnade : op. cit.; p. 289.

تصور دور البطولة في تاريخ نشأة المدن في أوروبا العصور الوسطى^(١) . ولم تلبث أن أصبحت المدن الإيطالية بوجه خاص مثلاً احتذته بقية المدن الأوروبية في بروفانس وحوض الراين وفلاندرز للحصول على سيادتها . وعلى ذلك فإن نشأة المدن جاءت بطيئة وتدرجية ، على الرغم مما نسمع به من ثورات قامت بها بعض المدن مثل ميلان وكامبراي وكولونيا وغيرها^(٢) . وبفضل هذه الخطوات التدرجية أخذت المدن تنزع من سادتها الاقطاعيين اعترافات بحقوقها ، فازداد عدد البراءات والعهود الاعفائية التي حصلت عليها تدريجياً^(٣) . ومع أن هذه البراءات اختلفت كثيراً في تفاصيلها ، حتى أنه ليصعب العثور على براءتين متشابهتين لمدينتين مختلفتين ، إلا أنها اتفقت جميعاً في روحها وفي خاتمها التي تنص على حرية الأرض التي قامت عليها المدينة وأن كل من يعيش في هذه المدينة سنة ويوما واحداً يعتبر حراً^(٤) . وهكذا أخذت قبضة الأسراء تخف عن المدن في النواحي الإدارية والقضائية والمالية ، وكلما تنازل أمير عن حق من حقوقه تلقفته المدينة في صورة إعفاء ، حتى تكتمل جميع هذه الإعفاءات في البراءة التي تعبر عن سلطة المدينة ودستورها والتي حرصت كل مدينة على حفظها في أرشيفها .

على أنه يلاحظ أن هذه البراءة التي حصلت عليها المدينة بعد جهد شاق ، لم تكن امتيازاً عاماً تمتع به جميع سكانها ، وإنما قصدت بها فئة محدودة فقط من هؤلاء السكان اختلفت باختلاف ظروف المدينة ، فربما كانت مجموعة التجار أو الصناع أو غيرهم^(٥) . وكانت هذه الفئة المحدودة تمثل الهيئة الممتازة التي يختار منها محافظ المدينة وموظفوها والتي تتمتع بالامتيازات المدنية كاملة . وفي بعض

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 737.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p.p. 218-219.

(3) Idem; p. 231 & vol. 6; p. 59.

(4) Painter : Med. Society; p. 72

(5) Pirenne, Cohen, Focillon ; op. cit ; p p. 48-49.

الأحيان لجأ أفراد هذه الأقلية الممتازة إلى التوسع في منح الامتيازات التي يتمتعون بها لغيرهم من سكان المدينة لاسيما القادرين الأثرياء ، في حين ظلت بقية الطبقات محرومة من هذه الامتيازات ومن الاشتراك في الحكم . وهكذا ظلت مدينة العصور الوسطى أرستقراطية في جوهرها وحكومتها ، على الرغم من أنها بدت ديموقراطية عند الموازنة بينها وبين الهيئات الإقطاعية الممتازة^(١) . ولعل هذا الانقسام السيامي والاقتصادي والاجتماعي بين سكان المدينة الواحدة هو السر في اضطراب تاريخ المدن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، إذ ظل الصراع مستمراً بين البورجوازية والطبقات الدنيا ، وبين أصحاب العمل والطبقات الكادحة . ومن ذلك أن نقابات التجار والصناع التي بدأت في شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافئين لم تلبث أن تحولت إلى هيئات احتكارية تتحكم في رموس الأموال وفي الأسعار وفي تنظيم الأجور وساعات العمل^(٢) .

ولم تكن نشأة المدن في أوروبا العصور الوسطى ظاهرة محلية ، وإنما اتخذت هذه النشأة طابعاً عالمياً ، فبدأت واضحة في لمبارديا وفلاندرز ، ثم أخذت تنتشر بسرعة في بقية بلاد الغرب . ومن الطبيعي أن تختلف المدن في تاريخ نشأتها . ولكنها اتفقت جميعاً في العوامل والظروف الأساسية التي صهبت هذه النشأة وأدت إليها^(٣) . ففي جميع الحالات جاءت نشأة المدن نتيجة لانتعاش التجارة والصناعة ، أما الخلاف بين المدن بعضها وبعض فمرجه اختلاف الظروف السياسية المحلية أو تباين الأوضاع الاقتصادية والجغرافية^(٤) . وهنا نلاحظ أن عنصر التقاليد والمحاكاة كان قوياً واضحاً في نشأة المدن ، فتستعير مدينة ناشئة دستور مدينة أخرى تكبرها عمراً وتأخذ عنها نظمها ؛ مما جعل المدن تتخذ شكل مجموعات

(1) Boissonnade : op. cit , p. 205

(2) Thompson : op. cit. vol., 2, p. 733

(3) Pirenne : Med. Cities; p. 74.

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. 208.

أو عائلات تضم كل مجموعة أو عائلة المدن المتشابهة في نظمها أو التي أخذت هذه .
النظم عن مصدر واحد^(١) .

وكانت كل مدينة عندما يتم تأسيسها تحيط نفسها بسور يحدها ويحميها .
ولم يلبث أن تطلب نمو المدينة واتساعها قيام ضواحي حولها تسكنها الطبقات
الفقيرة ، حتى تزداد أهمية هذه الضواحي فيقام سور جديد خارجها بعد هدم
السور الأول وتضم الفئات الجديدة من سكان الضواحي إلى صلب المدينة^(٢) .
وفي خارج البوابة الرئيسية للمدينة كانت تقام المشانق العمومية لشنق من يستحق
الإعدام . كذلك جرت العادة بخفر خندق عميق حول سور المدينة الخارجى ،
وعلى هذا الخندق يقام جسر متحرك أمام البوابة ، يرفع ويدلى حسب الحاجة .
وإذا كانت مداخل المدينة متسعة لتسمح للعربات للحملة بخيرات المناطق الريفية
المجاورة بدخولها في سهولة ، فإن شوارع المدينة الداخلية كانت ضيقة ، يبلغ
عرضها عشرة أقدام أحيانا ، كما امتازت بالقذارة نتيجة لإلقاء القمامة والفضلات من
نوافذ المنازل دون اكتراث بمن في الطريق من المارة^(٣) . ولما كانت هذه المدن
تعتمد في الغالب على مياه الآبار لا الأنهار ، فإن الأمراض كانت كثيرة الانتشار
فيها ونسبة الوفيات عالية بين سكانها نظرا لسهولة تلوث مياه الآبار من جهة ،
وإهمال العناية بالقواعد الصحية من جهة أخرى . فإذا ما أقبل الليل ، فإن الظلام
الدامس كان يعم شوارع المدينة ، وعندئذ يكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق
بحيث يصبح الخروج إلى الطريق العام ليلا أمرا مخفوا بالخاطر .

وكانت المدن الإيطالية من أولى المدن الأوروبية التي قامت برصف طرقها ،
وسمها انتقل هذا التقليد إلى غيرها من المدن ، وإن ظلت الغالبية العظمى لا تحاول

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 739.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit ; p. 51.

(3) Painter : Med Society; p. 82.

وصف طرقها بسبب ارتفاع النفقات^(١). ولما كانت مساحة المدينة محدودة بأسوارها العالية، فإن أراضي البناء داخلها صارت باهظة القيمة، مما دفع الملاك إلى إنشاء المباني العالية ذات الطوابق المتعددة، والحصول على إيجارات مرتفعة من السكان^(٢). وقد لجأت حكومات المدن إلى تحديد ارتفاع المباني لمنع ازدحام السكان من جهة وحتى لا يصل أى مبنى إلى مستوى ارتفاع كتندرائية المدينة أو مبناها الحكومى من جهة أخرى. وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يشترك عدة أفراد فى امتلاك مبنى أو منزل واحد بحيث ينفرد كل منهم بملكية عدة غرف فى المنزل. وهكذا يبدو أن أهم ما يميز منازل المدن الأوربية فى العصور الوسطى هو اكتظاظها بالسكان، حتى أن الغرفة الواحدة — مع ضيقها — كانت تضم أحيانا أكثر من ثلاثة أشخاص. أما سوق المدينة فكان فى ميدانها الرئيسى العام، وهو الميدان الذى تطل عليه أيضاً كنيستها ومبناها الحكومى.

وقد رحبت المدن عادة بنزلاء جدد من الأقنان يسهمون فى توفير الأيدي العاملة اللازمة، ويعيشون فى الضواحي القريبة خارج أسوارها. وشجع على هجرة الأقنان إلى المدن أن الفرد كان يتمتع بحريته كاملة داخلها، فيتخلص من كل أثر للعبودية التى لا زمته فى حياة الضيعة، حتى قيل، «إن جو المدينة يخلق الحرية»^(٣). ولكن تساهل المدينة فى هذه الناحية كان لا يعنى بأى حال تساهلها فى منح حقوق المواطنة لغير أهلها. فالأفراد الذين لا ينتمون إلى المدينة يعتبرون أغراباً أو أجانب، ليس من اليسير عليهم أن يصبحوا مواطنين فيها^(٤). وقد اشترطت معظم المدن على من يريد أن يتمتع فيها بحقوق المواطنة أن يعيش فيها مائة يوم ويوم وأن يدفع مبلغاً كبيراً من المال، أو يشتري عقارا فيها ضمنا

(1) Ibid.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 740.

(3) Pironno : Med. Citios; p. 193.

(4) Boissonade : op. cit.; p. 201.

لحسن إتيواياه ، و بعد ذلك يقسم على احترام نظم المدينة وقوانينها ويضمنه بعض المسئولين من أهل المدينة حتى لا يخرق قوانينها^(١) . وقبل هذا وذاك يجب أن يثبت أن حالته المالية مرضية وأنه مستعد لخدمة المدينة والدفاع عنها إذا حاق بها خطر . فإذا تم كل ذلك وحصل على حقوق المواطنة ، أصبح من حقه استخدام مراعى المدينة وصيد السمك فى مياهها ، كما تقوم المدينة من جانبها بحمايته وحماية تجارتها من المنافسة الأجنبية ، وتسمح له بشراء لوازمه بسعر سوق المدينة ، هذا كله بالإضافة إلى إعفائه من الخدمات الشخصية وتخويله حق المحاكمة أمام جماعة من زملائه المواطنين ، إذا حدث منه ما يستوجب ذلك .

و بعد ، فإنه يلاحظ أن مدن العصور الوسطى لم تكن بالإتساع والعظمة وكثرة السكان التى قد تتصورها . فبالرمو بلغ عدد سكانها نصف مليون فى القرن الثانى عشر ، وفلورنسا بلغ سكانها مائة ألف فى القرن الثالث عشر ، فى حين زاد سكان البندقية قليلا عن مائة ألف ، ومثلها باريس وميلان^(٢) . على أن صغر مدن العصور الوسطى نسبياً لا ينبغى أن يجعلنا نقلل من أهميتها السياسية والإقتصادية فقد سبق أن رأينا كيف كانت مدن العصبة الهانزية تنازل الملوك وتحتفظ بأسطول ضخم لمقاومة القرصنة فى بحر الشمال^(٣) . أما البندقية فقد أُنشئت فى أواخر العصور الوسطى أعظم قوة بحرية فى أوروبا ، وصار لها مستعمرات ومراكز وأحياء تجارية على البحر الأدرياتي وفى بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن البندقية استطاعت أن تحارب بمفردها الإمبراطورية العثمانية (١٤٦٦ — ١٤٧٥) ، كما حاربت الإمبراطورية العربية والغربية وأسبانيا وفرنسا^(٤) .

أما فى الناحية الإقتصادية فإن نشأة المدن فى القرن الحادى عشر ، جاءت

(1) Idem; p. 197.

(2) Idem; p. 203.

(3) Eyre : op. cit.; p. 727. و هذا كتاب من ٥٥٤

(4) Lodge : The Close of the Middle Ages; p.p. 512-513.

إنقلاباً إقتصادياً شاملاً ، إذ جعلت المدينة من نفسها سوقاً مركزياً محلياً يتعارض مع الفكرة التي قامت عليها التكتلات الإقطاعية للضياع ، مما ترتب عليه إنهيار نظام الاكتفاء الذاتي للضيعة وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة ، فيرسل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليبيع فيها بدلاً من إرساله إلى مقر المالك الإقطاعي^(١) . هذا بالإضافة إلى أن إقتصاد المدن إستتبع التوسع في نظام الأجر النقدي بدلاً من نظام الخدمة الإقطاعية . حقيقة إن التقدم في استعمال النقود سار سيراً حثيثاً ، بحيث لم يكن هناك حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى القليل من النقود الفضية في غرب أوربا^(٢) ، ولكن الفضل يرجع إلى مدن العصور الوسطى في إبتداع كثير من العملات الأوربية الحديثة مثل الجنيه والشلن والبس . أما النقود الورقية -- في صورة تعهدات أو كبيالات -- فيرجع إستخدامها في المدن إلى القرن الثالث عشر حتى عودت بالنقود المعدنية في مدينة كومو حوال سنة ١٢٥٠^(٣) .

وقد امتازت مدن العصور الوسطى بنوع من التخصص التجاري أماته الملبسات والعوامل الجغرافية . فمدن العصبة الهانزية في الشمال عرفت بتجارة الجلود والفراء والشمع والقمح ، وهي المنتجات الواردة من روسيا ، وبالحديد والنحاس والأخشاب والأسماك واللحوم المقددة ، وكلها من ورايات سكندناوه^(٤) . أما المدن الإيطالية فكان نشاطها الأساسي مركزاً في حاصلات الشرق ، إذ قامت باستيراد التوابل والعاج والحرير والبخور والعطور والمصنوعات الزجاجية وغيرها لتصديرها إلى مختلف البلاد الأوربية^(٥) . وأما مدن فلاندرز فكانت بحكم موقعها بين الشمال والجنوب تنجز في حاصلات الجهتين بالإضافة إلى صناعة الأصواف وغزلها^(٦) .

(1) Graus : The Legacy of the Middle Ages; p. 436.

(2) Painter : Med. Society; p. 91.

(3) Graus : The Legacy of the Middle Ages; p. 441.

(4) Pirenne, Cohen, Focillon; op. cit.; p.p. 130—131.

(5) Pirenne : Economic and Social Hist.; p.p. 143—145.

(6) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit ; p.p. 126—127.

والخلاصة أن المدينة الأوروبية في العصور الوسطى اشتملت على مختلف العناصر الكفيلة بالتقدم ، والتي بشرت بما سوف يتمخض عنه المستقبل من آمال في خلق نظام إقتصادي جديد ، وأهم هذه العناصر هي التنظيم التجارى والنمو الرأسمالى وحب المغامرة والبعد عن تزمّت رجال الدين^(١) .

القومونات :

وثمة ظاهرة واضحة في نشأة المدن ، هي الاختلاف فيما بينها في مقدار ما حصلت عليه من حريات . فهناك فريق من المدن لم يكتف بالحريات العادية التي حصلت عليها بقية المدن ، وإنما استطاعت بفضل تضافر مختلف العناصر داخل المدينة أن تحصل على سيطرة سياسية عائلية ، وهذه المدن هي التي نعرفها باسم القومونات (Communes)^(٢) . وقد ظهرت هذه القومونات أول الأمر في إيطاليا ، وبصفة خاصة في لمبارديا وتسكانيا ، في الوقت الذي كانت السلطة السياسية في المدن الإيطالية في أيدي الأساقفة الذين اعتمد عليهم أباطرة الدولة المقدسة في توطيد نفوذ الإمبراطورية . ولكن حدث قرب نهاية القرن الحادى عشر أن أخذت العناصر الأساسية من سكان هذه المدن تتبرم من حكم الأساقفة ، فاتفق التجار والصناع والنبلاء وشيوخهم ... في بعض هذه المدن — على تأليف اتحاد أو تحالف (قومون commune) الغرض منه تحطيم نفوذ أسقف المدينة^(٣) . وكان أن ظهر عجز الأساقفة أمام ذلك التحالف المسلح بين مختلف العناصر التابعة لهم داخل المدينة وخارجها ؛ فساءوا لهم بطلبهم ، وسمحوا لهم — مجبرين — بكل ما يطمعون فيه من نفوذ سياسى ، وبذلك ظهرت هذه القومونات في صورة قوة سياسية عظيمة في إيطاليا . وقد رأبنا أثناء الكلام عن النزاع بين البابوية والإمبراطورية

(1) Gras : The Legacy of the Middle Ages; p. 460.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p.p. 220—223.

(3) Pirenne : Med. Cities; p.p. 177 . 178.

كيف حاول الأباطرة إخضاع هذه القومونات في شمال إيطاليا ، وكيف استماتت القومونات بدورها في الدفاع عن حرياتها واستقلالها ؛ الأمر الذى أدى — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — إلى صراع طويل بين الأباطرة من جهة والقومونات الإيطالية من جهة أخرى^(١) . وكان أن خرجت القومونات ظافرة من هذا الصراع فى النهاية ، مما حقق لها استقلالاً سياسياً تاماً^(٢) .

وقد أدى الاستقلال السياسى الذى أحرزته هذه المدن الى تقدم سريع فى الميادين الاقتصادية والحضارية . ذلك أن أهل القومونات أخذوا يهجمون على أمراء المناطق المجاورة الذين لم يتضامنوا معهم وأجبروهم على الخضوع لسلطة القومون . وبعد ذلك بدأت المدن الكبرى تسعى لفرض سيطرتها على المدن الصغيرة المجاورة حتى انتهى الأمر أخيراً بأن دخلت القومونات فى صراع بعضها مع بعض سببه التنافس السياسى والاقتصادى^(٣) . هذا إلى أن بعض القومونات أخذت تعمل على تأمين نفسها وإقرار النظام فيها عن طريق تفويض شئون الحكم فيها لفئة من أفرادها الأقوياء ، مما أدى إلى قيام بعض الأسرات التى استبدت بالحكم والى ارتبطت أسمائها بأسماء المدن التى قامت فيها^(٤) .

على أن ظاهرة قيام القومونات لم تقتصر على تسكانيا ولبارديا فى إيطاليا ، وإنما أخذت تمتد هذه الحركة منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى فرنسا وفلاندرز ثم ألمانيا وإنجلترا ، حيث اجتمع فى كثير من هذه البلاد التجار والصناع والنبلاء ضد الاساقفة وانتزعوا منهم السلطة والنفوذ . وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبى للحركة القومونية فى غرب أوروبا امتد بين سنتى ١١٠٠ ، ١٤٠٠^(٥) .

(١) أنظر الجزء الأول من هذا كتاب ص ٣٤٣ وما بعدها .

(2) Eyre : op. cit. p.p. 345—346 & 165—166.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. 224.

(4) Stephenson : Med. Hist; p. 322.

(5) Cam. Med.; vol. 5; p. 624.

وليس هناك من شك في أن نجاح هذه الثورات ضد اساقفة المدن إنما يرجع إلى موقف الملوك والأمراء الاقطاعيين الذين رحبوا بإضعاف نفوذ الأساقفة السياسي .

ومع أن اصطلاح « قومون » يعنى المدينة التى ارتبطت عناصر سكانها فى حلف ، وحصلوا على استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة^(١) ، إلا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على كافة المدن التى تمتعت بنفوذ سياسى واسع . على أننا نستطيع أن نحدد القومون بأنه المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة ، بمعنى أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجي يتحكم فيها . أما التزامات القومون نحو السلطة السياسية العليا فى الدولة — كالامبراطور أو الملك — فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنوياً وقسط معلوم من الخدمة العسكرية^(٢) .

النقابات :

نصت البراءات التى حصلت عليها المدن على حق تجارها فى تأليف نقابات أو اتحادات ، فإذا لم تنص البراءة على ذلك فإن السبب يرجع قطعاً إلى قيام النقابة فعلاً قبل حصول المدينة على براءتها ؛ لأن الذى كان يحدث فى كثير من الحالات هو أن يبدأ التجار بتأليف نقابة لهم لتقوم هذه النقابة بمفاوضة السيد الإقطاعي للحصول على براءة تضمن للمدينة حريتها^(٣) .

وهكذا ارتبط تجار المدن فى العصور الوسطى فى هيئة نقابات الغرض منها حماية أنفسهم من اعتداء الأمراء ونهبهم من ناحية ورعاية مصالحهم فى الأسواق البعيدة من ناحية أخرى .^(٤) ثم كان أن أخذت نقابات التجار هذه فى تنظيم

(1) Painter : Med. Society; p. 74.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 5; ps. 223, 234.

(3) Painter : Med. Society, p. 73.

(4) Pirenne : Med. Cities; p.p. 186—188.

شئون التجارة داخل المدينة ذاتها، وفرضت على كل فرد خارج النقابة يريد مباشرة نشاط تجارى فى المدينة أن يخضع لتعاليم النقابة وأن يدفع رسما معيناً مقابل السماح له بمباشرة نشاطه .^(١) كذلك حرصت نقابة التجار على حماية مستوى الإنتاج والبضائع والتمسك بمبادئ الكنيسة الخاصة بالإمانه وعدم الغش^(٢) . وهكذا ظلت نقابات التجار تنظم الحياة التجارية فى العصور الوسطى طالما كانت هذه الحياة بسيطة وخالية من التعقيد ؛ فلما أخذت الأمور تتبدل ظهرت نقابات أصحاب الحرف ، الأمر الذى يعنى الفصل بين التجارة والصناعة^(٣) .

وكان الغرض الأساسى من قيام النقابات الأخيرة هو رعاية المصالح الإقتصادية لأعضائها ، فلا يسمح لصانع أن يباشر حرفة فى مدينة إلا إذا كان عضواً فى النقابة التى تضم المشتغلين بهذه الحرفة ، كما حرصت النقابة على عدم إستيراد بضائع تضر الإنتاج المحلى للمدينة . وهكذا كانت كل نقابة تتمسك بسوق المدينة فى دائرة اختصاصها ، فى الوقت الذى تمرص على عدم قيام منافسة بين أعضائها^(٤) .

وقد قامت نقابات أصحاب الحرف على أساس اختيار الأعضاء وانتقائهم ، فكان لا يسمح لفرد بعضويتها إلا بعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الدينى وإخلاصه السياسى ، فضلاً عن مهارته الفنية . وكانت النقابة الواحدة تضم عدة فئات من الصبيان والعمال والأسطوات^(٥) . أما الصبي فكان يدفع رسماً ليقتبل فى الحرفة ، ويتعهد بطاعة أستاذه وتنفيذ تعاليمه والحرص على مصالحه ورعاية أمواله وأسراره^(٦) . وفى مقابل ذلك يمدد الأسطى بالمسكن والملبس والمأكل ،

(1) Henton; Economic Hist. of Europe; p.p. 201—252.

(2) Painter : Med. Society; p.p. 80—81

(3) Grae : The Legacy of the Middle Ages; p. 445.

(4) Painter : Med. Society, p.p. 80—81.

(5) Boissonnade : op. cit., p.p. 212 - 214.

(6) Henton : op. cit., p. 205.

فلا يستطيع الصبي أن يبيت خارج منزل أستاذه الذى له حق الإشراف على سلوكه وأخلاقه ؛ زيادة على الإشراف المهني . وبعد أن يقضى الصبي في الحرفة مدة تتراوح بين عامين وسبعة يصبح عاملاً يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومي زهيد^(١) . أما العامل فمن الممكن أن يصبح أستاذاً أو أسطى^(٢) عندما يثبت إجادته لصنعتة وتفوقه فيها ، كأن ينتج قطعة فنية تشهد على براعته ، وعندئذ يستطيع أن يشتغل لحسابه الخاص إذا توافر لديه رأس المال اللازم لذلك^(٣) . على أن الرغبة في الاحتكار والاستئثار بأرباح المهنة لم تلبث أن جعلت أعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم إشراك منافس جديد معهم حتى جاء وقت أصبح من الصعب على العامل أن يصبح أسطى إلا إذا كان ابناً لأسطى أو زوجاً لابنته^(٤) . وهنا نلاحظ أن جميع الإنتاج الصناعي كان منزلياً ، بمعنى أن الصبي والعامل والأسطى كانوا يعملون جميعاً في منزل الأخير أو في دكان ملحق به ، ويبيع الأسطى إنتاجه من نافذة منزله أو في سوق المدينة على أقصى تقدير^(٥) . ولم تلبث النقابات أن تكاثرت في كل مدينة وتفرعت ، حتى شملت جميع الصناعات والحرف فوجدت نقابات لكل من القاشين والسيارة والأطباء والقصابين وصناع الأحذية والسروجية ، فضلاً عن الخبازين والزيتين والتجارين والحلادين وأصحاب الفنادق وغيرهم^(٦) . وبازدياد التخصص في الصناعة أو التجارة ازداد عدد هذه النقابات ، مما أدى إلى كثير من الخلافات بين بعضها وبعض حول حدود كل منها وتخصصها^(٧) . ومن الأمثلة المعروفة جيداً عن العصور

(1) Painter : Med. Society: p.p. 81—82.

(٢) استاذ كلمة دأرسية معناها معلم عربى إلى أستاذ بمعنى معلم الثقافة واسطى بمعنى

معلم الحرف .

(3) Stephenson : Med. Hist., p.p. 560—561.

(4) Painter : Med. Society, p. 82.

(5) Boissonnade : op. cit., p. 722.

(6) Gras : The Legacy, p. 445 & Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 237.

(7) Boissonnade : op. cit., p. 215.

الوسطى أنه حُرِّم على صانع الأحذية أن يصلح حذاء مستعملاً ، كما حرم على الاسكافي أن يصنع حذاء جديداً ، وذلك من باب احترام التخصص^(١) .

على أنه يلاحظ أن النقابات كانت أعظم من مجرد تنظيمات اقتصادية تستهدف الربح وترعى مصالح أعضائها ، إذ أنها حرصت دائماً على اتقان الصناعة ورفع مستواها بحيث أصبح من الممكن تحديد متوسط لأسعار الإنتاج تتفق مع مستوى ذلك الإنتاج^(٢) . حتى طريقة البيع وتحديد المقاييس والمساكن والموازن المستعملة عيبتها النقابة بطريقة تضمن حقوق كل من البائع والمشتري . كذلك حرصت النقابة على أن يراعى أعضاؤها حقوق بعضهم بعضاً فحرمت على الاسطوات الاستغناء عن العمال وطردهم دون مبرر ، وفي الوقت نفسه أجبرت العمال على البقاء في عملهم مدداً معينة يتفق عليها . هذا بالإضافة إلى ما لجأت إليه النقابات من تحديد تكاليف الإنتاج من جهة وأسعار البيع من جهة أخرى^(٣) . ثم إن أهمية النقابة لم تقتصر على الجانب الاقتصادي فحسب ، وإنما بدت أيضاً واضحة في الجانب الاجتماعي . فأعضاء النقابة الواحدة كانوا يشتركون جميعاً في إحياء الأعياد العديدة فضلاً عن الحفلات الخاصة بهم^(٤) . كذلك قامت النقابة بخدمة أعضائها اجتماعياً عن طريق تحقيق نوع من التضامن الاجتماعي وتقديم المساعدة إلى من يصاب منهم بمرض أو عجز^(٥) . فإذا مات أحد أعضاء النقابة ، اشترك بقية الأعضاء في تشييعه واهتموا بأمر أسرته وأولاده^(٦) . أما في الجانب السياسي فإن النقابات غدت على جانب كبير من النفوذ وبخاصة في المدن الحرة حيث نجحت النقابات فعلاً في السيطرة على الأداة الحكومية ، بعد سلسلة من الثورات

(1) Grau : *The Legacy*, p. 446

(2) Boissonnade : *op. cit.*, p.p. 202—208.

(3) Irenne : *Economic and Social Hist.*, p. 186.

(4) Boissonnade : *op. cit. Hist.*, p. p. 223 - 224.

(5) Heaton : *op. cit.*, p. p. 208—209.

(6) Painter : *Med. Society*, p. 83.

امتاز بها تاريخ المدن الأوروبية وبخاصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر^(١) . ولكن يبدو أن ازدياد نفوذ النقابات وسلطانها سرعان ما أدى بالتالى الى التعسف فى استخدام ذلك النفوذ والسلطان^(٢) . ذلك أن النقابات لجأت الى حماية أعضائها من المنافسة عن طريق تحديد عدد الصبيان الذين يقبلون للاشتغال بالحرفة من جهة ، وعن طريق مطالبة السلطة الحاكمة فى المدينة بفرض ضرائب على البضائع الأجنبية المستوردة من الخارج من جهة أخرى^(٣) . ولم يلبث أن ازداد تعسف النقابات ، حتى غدا من الصعب على العامل العادى أن يدخل دائرتها^(٤) . وهكذا بعد أن كان الصبى يعمل فى منزل الأسطى ، أصبح يتسلم المواد الخام اللازمة لعمله من رئيس النقابة ليصنعها فى منزله . وفى هذه الحالة أصبح العامل أكثر تعرضا للبطالة ، فأنشأ يسكدح حتى لا يتعرض لقطع أجره أو لى يحصل على أجر أعلى ، مما جعل العمال فى نهاية العصور الوسطى مجرد مجموعة من الأفراد لا يفرق بينهم إلا نوع العمل . وإذا كان نظام النقابات قد حرص على الاحتفاظ بالحرفة بمستوى عال ، فإن هذا النظام كان له من جهة أخرى أثر واضح فى عرقلة التقدم الصناعى وتأخير تطوره ، لأن كل نقابة اشترطت على المشتغلين بالصناعة عدم استعمال آلة أو وسيلة جديدة لا تقرها النقابة ، مما قتل روح الابتكار والتجديد^(٥) .

طرق النقل :

وقد اعترضت التجارة فى أوروبا العصور الوسطى عقبات كأداء أهمها ضعف وسائل المواصلات وصعوبة انتقال التجار ونقل البضائع من مكان إلى آخر . ذلك

(1) Taylor : Med. Mind; vol, 1, p,p, 341—342,

(2) Heaton: op, cit., p: 204.

(3) Painter : Med. Society; r.p. 80—81.

(4) Boissonnade, : op. cit.; p. 201,

(5) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 186

أن الطرق العظيمة المرصوفة بالأحجار ، التي أقام الرومان منها شبكة قوية ضخمة ربطت مراكز الامبراطورية ومدنها بعضها ببعض لم تلبث أن اختفت وعفى عليها الزمن ؛ كما انهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة للاهمال الذي تعرضت له كافة المرافق العامة عند انحطاط أحوال الإمبراطورية^(١) . ولم تكن الطرق التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى أكثر من سبل بدائية غير ممهدة تسكسوها الأتربة الكثيفة ، التي سرعان ما تتحول إلى أوحال عند هطول الأمطار ، زيادة على ما يعترضها من حفر خطيرة جعلت المشى فيها ليلاً أمراً محفوفاً بالمخاطر^(٢) . أما الجسور فعدت قليلة ونادرة ، الأمر الذي تعالّب من المسافرين في كثير من الحالات أن يخوض في الماء بنفسه أو يبحث عن معديّة يعبر بها النهر . وفي هذه الظروف لم يجد تجار العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم سوى استخدام البغال والخيول ، في حين اضطر صغار التجار إلى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيراً على الأقدام من مكان إلى آخر^(٣) . أما العربات فبدأ استخدامها أول الأمر في إيطاليا حيث حرصت المدن على تحسين الطرق والاحتفاظ بها في مستوى مناسب ، ثم لم يلبث أن بدأ استخدام نوع من العربات البدائية في فرنسا وألمانيا ، وإن ظلت القاعدة المتبعة هي عدم استخدام العربات إلا في نقل البضائع إلى الأسواق المحلية^(٤) . حقيقة إن هناك عدة محاولات بذلت في الشطر الأخير من العصور الوسطى لصيانة الطرق والاحتفاظ بها في مستوى يمكن معه استخدامها ؛ ومن ذلك ما قامت به الهيئات الكنسية من جهود مبكرة لإصلاح العارِق وصيانتها^(٥) . ولكن ملاك الأراضي الذين تقع ضياعهم على العارِق العامة ، والذين كان من

(1) Boissanode : op. cit , t. 28,

(2) Pirenne : Economic and Social Hist., p 88.

(3) Heaton : op. cit , p. 274.

(4) Painter : Med. Society, p.p. 80-81.

(5) Boissanode : op. cit. p. 201.

المفروض أن يتحملوا نصيبهم في صيانة الطرق، أو على الأقل يخصصوا جزءاً من الضريبة التي يجمعونها من العابرين لهذا الغرض، لم يحاولوا النهوض بواجبهم - وهكذا استمر الأمراء يجمعون ضريبة من المارين بخصونهم أو بأراضيهم^(١)، دون أن يسكون لهذه الضرائب ثمرة سوى مضاعفة تكاليف السفر والنقل^(٢). ومع أن التاجر كان يضيف ضريبة الطرق هذه إلى أثمان بضاعته، إلا أنها - مع ذلك - عادت عليه بالغرامة، لأن ارتفاع ثمن البضائع من شأنه أن يقلل من فرص البيع.

أما الكنيسة فكان إنشاء الطرق وصيانتها أمراً على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لها^(٣)، حتى أعلنت أن رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التي يجازى صاحبها عليها بحسن الثواب والغفران، بالضبط كالإحسان والحج. لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية في العصور الوسطى منظمة عرفت باسم « إخوان الجسر *Fratres Pontis* » الغرض منها المساهمة في بناء الجسور على الأنهار وصيانتها^(٤). كذلك دأبت الحكومات الأوربية في العصور الوسطى، على تشجيع إنشاء الطرق وتأمينها. من ذلك ما حاوله هنري الأول ملك إنجلترا من إنشاء طرق عمومية واسعة بحيث يتسع عرضها لمرور عربتين متقابلتين، كما أصدر التعليمات بتطهير الأراضي الواقعة على جانبي الطرق المؤدية إلى الأسواق، من الأشجار والأحراش حتى لا يتخذها قطاع الطرق والنهابة أو كاراتخفون فيها. والواقع إن الطرق التجارية في أوروبا العصور الوسطى كثيراً ما تعرضت لهب الأسراء والجند المأجورين والمجرمين العاديين، حتى وجد التجار أنه لا بد لهم من الاعتماد على أنفسهم في حماية أرواحهم وبضائعهم^(٥). لذلك كان التاجر الكبير

(1) Painter : Med. Society, p. 70.

(2) Pirenne : Economic and Social Hist, p. 67.

(3) Painter : Med. Society, p. 70.

(4) Boissonnade : op. cit., p. 164.

(5) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 63.

(م ٨ - - أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

يستأجر أحيانا بعض الحراس المسلحين لحراسة متاجره عند ثقلها من مكان لآخر، وإن كان الغالب هو تجمع التجار عند سفهم على هيئة قوافل لصد أى عدوان مشترك^(١). هذا فى الوقت الذى أخذت المدن ذات المصالح المشتركة ترتبط بعضها مع بعض فى هيئة أحلاف لحماية تجارها وبضائعها، كما فعات مدن العصبة الهانزية^(٢).

أما الفنادق فكانت فى أول الأمر نادرة وغير مأهولة مما جعل النديسة تؤدى خدمة هامة عن طريق إقامة مؤسسات لها فى المناطق المنعزلة، لاسيما أن الأديرة كانت ترحب بكل من يمر بها، دون تمييز بين فقير وغنى. وبانتعاش التجارة وكثرة الأسفار ازداد عدد الفنادق والمخانات، واعتماد التجار أن ينزلوا فيها أثناء أسفارهم.

ولعل سوء أحوال الطرق البرية وصعوبة السير فيها، كانت من العوامل التى شجعت على تفضيل النقل النهري، بحيث أصبحت القوارب والنقلات النهرية على درجة من الكثرة استلزمت قيام موانئ نهرية وقنابات لعمال النقل المائى فى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا التى تقع على أنهارها الكبرى^(٣). ولكن النقل النهري لم يسلم هو الآخر من عدة عقبات أهمها تجمد مياه الأنهار فى فصل الشتاء، وأخطار الفيضانات فى الربيع، وقلة عمق مجارى الأنهار^(٤). هذا بالإضافة إلى أن الطرق النهرية لم تسلم هى الأخرى من مكوس مثل المكوس المفروضة على الطارق البرية^(٥)، كما أن الأسراء الذين حرصوا على جمع هذه المكوس لم يهتموا كذلك بالمحافظة على سلامة مجرى النهر وتأمينه : الأمر الذى

(1) Pirenne : *Med. Cities*, p. p. 120-121.

(2) Heaton : *op. cit.*, p. 160 & *Cam. Med. Hist.*, vol. 5, p. 239.

(3) Boissacade : *op. cit.*, p. 161.

(4) Lucien : *Economic and Social Hist.*, p. 90.

(5) Heaton : *op. cit.*, p. 159.

دفع تجار المدن النهرية إلى تأليف اتحادات لجمع هذه الضرائب واستغلال حصيلتها في تطوير مجارى الأنهار وبناء أحواض للسفن^(١).

أما النقل البحري، فعلى الرغم مما اعترض سبيله هو الآخر من أخطار، إلا أنه أحرز تقدماً كبيراً عن النقل البري في العصور الوسطى^(٢). وكانت السفن في أول الأمر تلنزم السير قرب الشاطئ، وعلى مرأى منه خوفاً من الغرق من ناحية أو من أن تضل الطريق وسط البحر من ناحية أخرى. ولم يكن ذلك إلا بعد أن شاع استخدام البوصلة في القرن الرابع عشر — بعد أن عرفها الأوربيون عن العرب — عندما تجاسرت السفن على شق البحر في شىء من الجرأة والإطمئنان^(٣). وقد تبع ذلك تقدم المعلومات البحرية الخاصة بالمواقع الجغرافية واتجاه الرياح، بالإضافة إلى التقدم الذى أحرزه فن بناء السفن وتصميمها. وهكذا نسمع عن سفن البندقية أن الواحدة منها كانت تحمل أيام الحروب الصليبية ما يقرب من ألف راكب، وإن كان هؤلاء الركاب مكდسين بعضهم فوق بعض. ويبدو أن سفن البحر المتوسط كانت أكبر حجماً من السفن المستخدمة في البحر البلطى أو بحر الشمال بسبب قلة عمق الموانئ الشمالية. وهنا نلاحظ أن السفن في العصور الوسطى ظلت تسير بالمجذاف والشرع^(٤)، وإن كانت عملية التجديف هذه مرهقة وشاقة بحيث تطلبت تسخير العبيد الذين كانوا يربطون أحياناً بالسلاسل في أماكنهم لمواصلة التجديف ليل نهار.

على أن البحار لم تخل هي الأخرى من قراصنة يهددون السفن وينهبون ما بها من متاجر، الأمر الذى أدى بالسفن التجارية إلى التجمع في شكل أساطيل لترد أى عدوان، أو ربما قامت بحراستها في بعض الأحيان سفن

(1) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 90.

(2) Boissonnade : op. cit., p. 173.

(3) Stephenson : Med. Hist., p. 227.

(4) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 82.

مسلحة^(١) . وكانت هذه الأساطيل التجارية تقوم بسفريات موسمية ، في الوقت الذى يعتدل الجو وتهدأ البحار في الربيع والصيف^(٢) . ومع أن المدن البحرية عاشت دائماً في خوف من تعدى القراصنة على سفنها ، إلا أنها لم تتورع عن تخريض القراصنة على مهاجمة سفن المدن الأخرى المنافسة لها ، مما أدى إلى كثير من الحروب التجارية بين المدن بعضها وبعض ، وهى الحروب التى اتخذت طابعاً عاماً من القرصنة والسلب^(٣) . ولكن نمو التجارة ونشاط الحركة التجارية فى البحار أواخر العصور الوسطى تطابت تطهير هذه البحار من القراصنة ، أو على الأقل تطهير الجهات التى اعتبرتها بعض المدن مناطق نفوذ لها^(٤) . فالبندقية مثلاً اعتبرت البحر الأدرياتي منطقة نفوذ لها ، فقامت بتطهيره من القراصنة ، كما قامت مدن العصبة الهانزية بتطهير بحر الشمال والبحر البلطى . أما الصعوبة الأخرى التى اعترضت النقل البحرى فكانت تتمثل فى المبدأ السائد حينئذ وهو أنه إذا جنحت سفينة وألقى الموج بها أو ببضائعها على الشاطئ ، فإنها تصبح غنيمة لصاحب الأرض التى جنحت السفينة إليها^(٥) . لذلك دأب الفلاحون وصيادوا السمك — بتخريض من سادتهم الإقطاعيين — على وضع عقبات فى طريق السفن عند بعض الأماكن القريبة من الشاطئ لاصطياد سفن التجار . وعلى الرغم من القوانين المشددة التى وضعها بعض ملوك إنجلترا — مثل هنرى الأول — لمنع هذا العبث ، إلا أنه كان من الصعب القضاء عليه قضاء تاماً .

ومهما كان الأمر ، فإن النقل البحرى — مع جميع هذه العقبات — امتاز عن غيره من طرق النقل التى عرقها أوربا العصور الوسطى ؛ وذلك بعدم وجود

(1) Pirenne; Economic and Social Hist., p. 91.

(2) Boissonnade : op. cit., p. 174.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 5; p p. 240-241.

(4) Pirenne, Cohen, Foellon : op. cit., p. 87.

(5) Boissonnade : op. cit., p. 173.

مكوس أو ضرائب على السفن التي تعبر البحر ، كما امتلأ بعض الحملة التي تستطيع السفن البحرية نقلها ، مما أدى إلى ازدياد استخدام هذه الوسيلة من وسائل النقل . وأخيراً نلاحظ أنه إذا كانت التجارة في العصور الوسطى قد تعرضت لكثير من المكوس الداخلية التي عاقت سبيلها ، فإن عدم وجود رسوم جمركية على الحدود السياسية بين مختلف البلدان خفف من حدة البلاء . ولم يكن ذلك إلا في القرن الخامس عشر عندما أخذت تظهر في أوربا سياسة حماية الإنتاج المحلي ، وفرض رسوم جمركية على البضائع المستوردة من الخارج ^(١) .

الأسواق :

لم يقتصر النشاط التجاري في أوربا العصور الوسطى على الأسواق المحلية — اليومية أو الأسبوعية — في المدن والمناطق المجاورة ، حيث كان يتم تبادل الإنتاج المحلي وبيعه ، وإنما ظهر هذا النشاط واضحاً كذلك في المعارض أو الأسواق الكبرى (foires) التي امتازت بها تلك العصور ^(٢) .

والواقع أن أوربا لم تعرف في العصور المظلمة أسواقاً تجارية كبرى ، إذا استثنينا بعض الأسواق ذات الشهرة الدينية مثل سوق سانت دينس St. Denys — قرب باريس — ؛ وهي التي كانت مثل أسواق الموالد في البلاد الإسلامية — تجتذب إليها عدداً كبيراً من العملاء الذين يفدون إليها من مختلف البلاد المسيحية بقصد الزيارة والتبرك ثم البيع والشراء . وفيما عدا هذه الأسواق ذات الصبغة الدينية ، لم تعرف أوربا في القرنين التاسع والعاشر سوى أسواق محلية أسبوعية يذهب إليها أهل المنطقة من الأتقان والفلاحين لبيع بضع دجاجات أو بيضات أو قطع صغيرة من النسيج . ومن الواضح أن المعاملات التجارية التي كانت تتم

(1) Firenze : Economic and Social Hist , p. ٩2

(2) Boissonnade op cit., p. 170.

في هذه الأسواق جاءت على نطاق ضيق وفي حدود مبالغ صغيرة ولكفاية أغراض، ومجتمعات محدودة^(١).

عل أن ازدياد النشاط التجارى منذ القرن الحادى عشر استلزم قيام أسواق كبرى فى جنوب أوروبا وغربها للقيام بالعمليات التجارية الواسعة النطاق . ولا توجد ثمة علاقة تربط هذه الأسواق الكبرى (fair) بالأسواق المحلية الصغيرة (local markets) التى عرفتها أوروبا من قبل ، لأنه فى حين كانت الأخيرة تستهدف سد الحاجات اليومية البسيطة للمنطقة المجاورة ، إذا بالأولى على العكس عبارة عن اجتماعات دورية يلتقى فيها تجار محترفون لاتمام صفقات تجارية كبيرة — بالجملة غالباً — ؛ مع العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من الناس وأعظم قدر مستطاع من البضائع ، بغض النظر عن احتياجات المنطقة المحيطة التى يقام فيها السوق^(٢).

وأبرز مثل لهذا النوع من الأسواق الكبرى التى عرفتها أوروبا بالعدد الوسطى كانت سوق شامبني ، وهو الإقليم الذى هيأه موقعه الجغرافى ليكون ملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال^(٣) . وقد دأب أمراء شامبني منذ ثلاثة قرون على العناية بالمصالح التجارية لإقليمهم ، نظراً للفوائد العظيمة التى عادت عليهم من وراء ذلك ، مما أكسب أسواق شامبني شهرة واسعة^(٤) . والمعروف أن هذه السوق — وأمثالها — سارت وفق تنظيمات دقيقة أشرف على تنفيذها موظفو الكونت الذى يتبعه السوق ، كما روعى تسلسل مختلف أسواق الإقليم ، فيما ، بحيث تستغرق السنة بأكملها ولا يأتى اثنان منها فى وقت واحد . وكان التجار يحضرون قبل موعد افتتاح السوق بأسبوع لإعداد بضائعهم وتنظيم عرضها . وفي

(١) Pirenne , Economic and Social Hist., p. p. 10-11.

(٢) Idem; p. p. 97-98.

(٣) Cantier : Med. Society; p. 76.

(٤) Idem; p. 77.

المدة المحددة لعمل السوق ، كان يعلن عن فتح أبوابه صباح كل يوم وعن غلقها في المساء عن طريق دق الأجراس ، ولا يجوز التعامل التجارى في السوق إلا في الفترة المحدودة بين دق الجرس في الصباح والمساء . وفي الأيام العشرة الأولى من سوق شامبني كان لا يسمح إلا ببيع الأصواف ، ثم تباع الجلود والفراء في الأيام العشرة الثانية ، وفي العشرة الثالثة تباع البضائع التي توزن وتكال ؛ وأخيراً تترك خمسة أيام للتجار يجرّدون فيها بضائعهم ويتممون على حساباتهم ، ويدفعون ما عليهم من رسوم لموظفي السكونت ، مع مراعاة ختم العقود الهامة بخاتم السوق ^(١) . و بفحص هذه العقود يمكننا أن نأخذ فكرة عامة عن البضائع التي كانت تعرض في السوق ، مثل الحرير والتوابل المستوردة من الشرق ، والأصواف الآتية من فلاندرز وإيطاليا ، والأتيال الوافدة من بريتانى ، والفراء المحضرة من روسيا وسكندناوه ، والمنتجات الحديدية والجلدية الجلوبة من ألمانيا ، والنبذ والخمور الواردة من فرنسا وأسبانيا ^(٢) .

على أن أسواق شامبني نزلت بها ضربتان أديتا إلى زعزعة مركزها ، الأولى عندما لجأ فياب الرابع — في سبيل السيطرة على فلاندرز — إلى فرض رسوم باهظة على البضائع الفلمنكية المخصصة لأسواق فلاندرز ، والثانية افتتاح البنادقة سنة ١٣١٧ لخط ملاحى جديد ينتجه رأساً إلى إنجلترا وفلاندرز ^(٣) . ومهما كان الأمر فإن هذه الأسواق الكبرى تمتعت بمركز وامتيازات واسعة في ظل القانون ، فكانت الأرض التي يقام عليها السوق تحظى بنوع من الضمان والسلام بحيث يتعرض من تحدّثه نفسه بتعكير صفو هذا الجو السلمي لأشد أنواع العقوبات ^(٤) . أما التجار الذين يقصدون السوق فكانوا تحت حماية (conduit) الأمير الذى

(1) Boissounade : op cit., p. 172

(2) Painter : Med. Society, p. 77

(3) Heaton : op. cit., p 170,

(4) Painter : Med Society; p. 77.

يقع السوق داخل منطقة نفوذه . هذا عدا وجود مشرفين وملاحظين للأسواق (*custodes mundinarum*) يعملون على حفظ النظام فيها ويفصلون في المنازعات التي تنشأ بين التجار ، ويحملون أختام السوق لختم المعاملات التي تتم بين التجار^(١) .

نُشأة المصارف :

ولما كان كثير من الأمراء الإقطاعيين يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم فإن الأسراف الأوربية وجدت نفسها في حاجة إلى صيارفة يبدلون النقود للتجار ، كل بالعملة التي يطالبها والتي يستطيع أن يتعامل بها في بلده . ويعتبر عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفي الرأسمالي ، وذلك لأن الصراف في العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندوق قوى متين يضع فيه نقوده ، مما جعل بقية الأفراد يلجئون إليه لإيداع أموالهم في مأمن عنده^(٢) . ولم تلبث أن استخدمت في إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية كوسيلة لتجنب نقل المعادن النفيسة من ذهب وفضة ، ثم أخذ موظفو البابوية ينشرون هذا النظام في مختلف أنحاء أوروبا^(٣) . كذلك أخذ يظهر نظام الدفع أو الشيكات بحيث إذا كان لائنين من التجار ودائع مالية عند صراف واحد فإن أحدهما يستطيع دفع حساب الآخر بإرسال ورقة إلى الصراف يأمره بدفع المبلغ لزميله^(٤) . ولم تستخدم هذه الوسيلة في المعاملات المالية داخل البلد الواحد ، وإنما استخدمت بين مختلف البلدان ، حيث بدأ بها الداوية والإسبانية في القرن الثاني عشر ثم حاكاهم كثير من التجار في القرن التالي^(٥) . وعندما استكشف الصراف أن الودائع التي لديه أكثر من حاجة عمله اليومي بدأ

(1) Pirenne ; *Economic and Social Hist.*, p. 99.

(2) Stephenson ; *Med. Hist.*, p. 563.

(3) Cam, *Med. Hist.*, vol. 5, p. 240.

(4) Pirenne, Cohen, Focillon : *op. cit.*, ps. 91, 107.

(5) Painter ; *Med. Society*; p. 91.

يفكر في استغلالها في الإقراض بفائدة، مما جعل الصيارفة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك . وهنا نلاحظ قاعدة عامة ، وهي أن صيارفة العصور الوسطى جمعوا بين مهنتي إقراض الأموال والتجارة . وكان ملوك أوروبا وأمرأواها يعانون في القرن الثاني عشر ضيقا ماليا شديدا ، بسبب كثرة النفقات والمطالب ، في الوقت الذي أخذت ثروة التجار تزداد إزدیاداً يسترعى الإنباه نتيجة لازدياد النشاط التجاري . لذلك لم يجد أفراد الطبقة الأرستقراطية وسيلة لسد مطالبهم سوى الإقراض بفائدة من التجار ، وعندئذ لم يستطع الآخرون رفض مطالب الحكام ورغباتهم مما شجع مبدأ القروض ذات الفائدة^(١).

والمعروف أن اليهود انفردوا أول الأمر -- في أوروبا العصور الوسطى -- بإقراض الأموال بفوائد ، مما مكّنهم من السيطرة على الحياة المالية في أوروبا ؛ لأن الكنيسة حاربت أكل الربا الذي نهى عنه الإنجيل والمسيح^(٢) . وهكذا شامت الظروف أن لا تنافس اليهود فئة أخرى في ميدان النشاط المالى في أول الأمر . ولكن اتساع نطاق النشاط التجاري جعل من الممكن التهرب من تعاليم الكنيسة الخاصة بتحريم الفوائد المالية^(٣) ، كأن يتعهد المقرض بدفع ألف فلورين في وقت محدود بدون فائدة ، ولكنه لا يتسلم من المقرض فعلا إلا تسعة فلورين ، وبذلك تكون فائدة القرض مائة فلورين لم تدون في العقد^(٤) . كذلك هناك

(1) Pirenne : Economic and Social Hist., p. p. 127-128.

(٢) « إن اقترضت فدية لشعبي الفقير الذي عندك فلا تسكن له كالمرابي ، لا تضعوا عليه ربا . » (العهد القديم - سفر الخروج -- الإصحاح الثاني والعشرون - ٢٥) وكذلك « وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك ، لا تأخذ منه ربا ولا مراجدة بل أخش الملك فيعيش أخوك معك ؟ فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعطه بالمرابحة . » (العهد القديم -- سفر اللاويين -- الإصحاح الخامس والعشرين ٣٥ - ٣٧) وكذلك « بل أحبوا أعداءكم واحسنوا واقترضوا وانتم لا ترجون شيئا » . (العهد الجديد -- انجيل لوقا -- الإصحاح السادس - ٣٥) .

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 6; pp. 491 - 492.

(4) Boissonnade : op. cit. p. 166.

وسيلة أخرى تحايل بها أحد التجار الإيطاليين في أوائل القرن الثالث عشر، عندما أقرض الحكومة الإنجليزية مبالغاً من المال على أن تسدد الحكومة قيمة هذا المبلغ بالأصولف . وهنا روى في العقد أن تكون قيمة الأصولف التي تسلم للتاجر أكبر من قيمة المبلغ الذي دفعه للحكومة . وبذلك حصل التاجر على فائدة القرض ^(١) .

وعن هذه الطرق استطاع الإيطاليون أن يشتغلوا بأعمال الصيدفة ليحلوا محل اليهود ، لا سيما بعد أن أخذ الناس يفرقون بين نسبة الفائدة المعتدلة والربا الفاحش ، وبعد أن أتت ثورة الحروب الصليبية كذلك بكثير من التشريعات والقوانين التي تستهدف الحد من نشاط اليهود ^(٢) . ذلك أنه لم يتيسر للإيطاليين أن يحلوا محل اليهود إلا بعد أن أخذت الدول الأوروبية مثل إنجلترا وفرنسا ثم أسبانيا تغضض يدها اليهود وتطردهم بالجملة من بلادها ^(٣) .

وكان أن ظهرت عدة بيوت مالية كبيرة في إيطاليا أهمها بنك القديس جورج في جنوا الذي ربما كان أشهر البنوك الأوروبية ، في العصور الوسطى ^(٤) . على أن البابوية فضلت دائماً أن تعامل بنوك فلورنسا التي ظهروا معاندها في القرن الثالث عشر ، والتي تعتبر أول نماذج للبنوك الدولية ، إذ كان لبعضها فروع امتدت من إنجلترا وفلاندرز غرباً حتى أطراف البحر المتوسط شرقاً ؛ كإقامات بتقديم استئصالاتها المالية للملوك والبابوات ^(٥) .

(1) Painter : Med. Soclety; p. 89.

(2) Hutton : op. cit., p. 164.

(3) Pirenne : Economic and Social Hist; p. 134.

(4) Graa : The Legacy of the Middle Ages; p. 442.

(5) Cam. Med. Hist; vol. 6; p. p. 486-487.

الباب الخامس

التعليم والمدارس والجامعات

التعليم في أوائل العصور الوسطى :

يحسن بنا أن نبدأ هذا الموضوع بالإشارة إلى حقيقة جديدة بالاهتمام ،
وهي أن التعليم في أوروبا العصور الوسطى لم يقتصر على المؤسسات الأكاديمية
المعروفة من مدارس وجامعات فحسب ؛ وإنما امتد بحيث أصبح بلاط كل أمير
إقطاعي بمثابة مدرسة لتعليم صغار النبلاء ليكونوا في المستقبل فرساناً صالحين
مؤهلين خلقياً وحريةً . هذا إلى أن بيوت الأسطوانات من أصحاب الحرف والتجار ،
صارت هي الأخرى معاهد لتعليم الصبيان وتربيتهم وتهيتهم للحياة العملية^(١) .
وليس هناك من شك في أن هذه الاتجاهات وأشباهاها أسهمت في تربية نسبة
محدودة من أبناء العالم الغربي في عصر ضعف التعليم العام وقل الإقبال عليه .

أما فيما يتعلق بهذا التعليم العام فيلاحظ أن العصور الوسطى ورثت النظم
الرومانية ، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التي احتفظت بالطابع
العام للتعليم القديم ، على الرغم من أن الكنيسة غيرت كثيراً في أفق المعرفة
القديمة ومادتها ؛ حتى قيل بأن نمو الكنيسة في الغرب جاء مصحوباً بتدهور
سريع في الدراسات الكلاسيكية^(٢) . على أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى
لم تسكن مدسعة في نظم التعليم مثلاً كان الحال في مواد الدراسة ، فظلت المدارس
على وضعها دون تغيير كبير في نظمها وإن اختلفت في مظهرها العام^(٣) .

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p.465.

(2) Lane-Poole : Illustrations of the Med. Thought; p. 5.

(3) Eyre : op. cit; p. 324.

وكما أخذ التعليم الروماني عن اليونان أخذ التعليم في العصور الوسطى عن الرومان ، وبخاصة عن مدارس البلاغة الإمبراطورية^(١) . ذلك أنه كانت هناك في أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدان الدولة في المدن الكبرى ، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين^(٢) . أما المرحلة الأولى أو الابتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى ، في حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شيء من الدراسات القانونية والفلسفية^(٣) . على أن مدارس البلاغة هذه لم تلبث أن اختفت في القرن الخامس ، وإن ظلت المدارس العلمانية - التي سارت وفق الأسلوب الروماني في التربية - منتشرة في أجزاء من غاليا وإيطاليا حتى نهاية القرن السادس . ذلك أنه من المعروف أن العصر الذي أعقب غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية في الغرب كان أحلك العصور في تاريخ أوربا الثقافي^(٤) . ومهما كانت أهمية الدور الذي قامت به الكنيسة في الاحتفاظ بذلك السماع الخافت الذي ظل مضيئاً في سماء غرب أوربا في القرن السابع ، فمن الثابت أن كتب النحو التي اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتابات دوناتوس وسرفيوس وهما من علماء القرن الرابع وكلاهما وثني ؛ في حين ظل كتاب بريسكيان عن «قواعد النحو» - الذي ألفه باللاتينية حوالي سنة ٥٠٠ في ثمانية عشر جزءاً - يمثل المرجع الأول في ذلك العلم^(٥) .

على أن أهم ما يميز ذلك العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعاً تاماً لسيطرة الكنيسة ، نتيجة لانهلال السطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة في المجتمع الغربي .

(1) Cam. Med. Hist.; Vol. 5; p. 765.

(2) Adamson : The Legacy of the Middle Ages; p. 255.

(3) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 742.

(4) Rachdall : The Universities of Europe in the Middle Ages; Vol. 1; p. 26-27.

(5) Taylor : The Mediaeval Mind; vol. 2; p. 150-151

من جهة ، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجياً من جهة أخرى . وهنا نلاحظ أن الكنيسة أقرت تدريس الفنون الحرة — التي كانت تلقن للتلاميذ في المدارس الوننية — ولكن على أسس مسيحية ، لأن الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولا بد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه ^(١) . وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين ، مارتينانوس كابلا الذي كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى ^(٢) . ولعل نظرة تحليلية يلقيها الباحث على هذه المجموعة من الدراسات تكشف له أنها تنقسم إلى قسمين : دراسات إنسانية ودراسات علمية . وقد أدرك الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٥-٥٢٤) . هذا الفارق فقسمها إلى مجموعة ثلاثية تشمل النحو والبلاغة والمنطق ، ومجموعة رباعية تشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ^(٣) . ثم كان أن أقر كاسيدور هذا التبويب ، وعن طريقة انتقل إلى المدارس الديرية ، مما جعل كاسيدور هذا صاحب أهمية كبيرة في التعليم في أوربا العصور الوسطى ^(٤) .

وقد ظلت المدارس في الغرب حتى سنة ٦٠٠ تهيب تعليمًا ابتدائياً عاماً لإعداد الأفراد للحياة ، ولكنهما لم تباث أن تحولت كلية لإعداد رجال الدين للمستقبل . ويلاحظ أن الجرمان أظهروا نفوراً قوياً من التعليم ، حتى أن ثيودريك ملك القوط الشرقيين — حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس محتجاً بأن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديهم في المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والخراب ^(٥) . وهكذا لم يكد ينتهى القرن السابع إلا كان التعليم في غرب أوربا قد أصبح دينياً بحتاً ، داخل مدارس ديرية

(1) Adamson : The Legacy; p. 256.

(2) Eyre : op. cit.; p. 327.

(3) Cam. Med. Hist.; Vol. 5; p. 765.

(4) Eyre : op. cit.; p. p. 324-325.

(5) Thompson : op. cit ; vol. 2 ; p. 743.

وأسقفية ، واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثاني عشر^(١) . وهنا نشير إلى أن مدرسة القصر المشهورة في الدولة الميروفنجية لم تكن مدرسة بالمعنى الذى نفهمه من هذا الاصطلاح ، وإنما كانت تقليداً لمدرسة تريف فى أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية . فكان الغرض منها تدريب الشباب حريياً وتعليمهم ركوب الخيل وحمل السلاح ، بالإضافة إلى بعض المعلومات اللازمة لمباشرة الوظائف العامة مثل مبادئ القانون المدنى والسكنسى . وفى هذه المدرسة كان يتدرب غلمان البلاط الميروفنجى^(٢) .

ومهما كان الأمر ، فإننا نعود فنقول إن الانتقال من التعليم القديم إلى تعاليم العصور الوسطى لا يعنى تغييراً كبيراً فى طريقة التعاليم بقدر ما كان هناك من تغيير فى روح التعليم ومواد الدراسة . وقد بدأت هذه الثورة حوالى سنة ١٠٠٠ عندما ازداد نفوذ البابوية فى توجيه التعليم ورسم سياسته ، فأصبح التعليم منصفاً على الإنجيل واللاهوت ، الأمر الذى جعل الدراسات الإنسانية تحاول فى مشقة بالغة الاحتفاظ بكيانها ضد الخطر الذى أخذ يهددها لعدة قرون^(٣) . ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية غدت لا تهتم إلا بتدريس اللاهوت والموسيقى الدينية والكتابات المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات ، بحيث أصبح التعليم لا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشء ليصبحوا من رجال الدين^(٤) . بل إن البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٢) اشتهر بكرههته للأسلوب الباغى الكلاسيكى وتفصيله اللاتينية الدارجة ، بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ فى عدم جدوى كافة الدراسات التى لا تساعد فى فهم العقيدة المسيحية^(٥) .

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 466.

(2) Davis : Charlemagne; p. 108.

(3) Taylor : The Med. Mind ; vol. 2, p. 318.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 466.

(5) Cam Med. Hist.; vol. 3; p. 487.

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الإنسانية — بما فيها معرفة اللغة اليونانية — إلا في أيرلند^(١) ، التي انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى كاليدونيا (سكتلند) ونور ثمبلاند ، ثم بقية أنحاء إنجلترا^(٢) . ولم يلبث أن امتد طريق هذه الحركة العلمية إلى صاب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية التي قامت في غاليا الفرنجية وألمانيا ولبارديا ، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير بويو^(٣) . وكان من المحتمل أن تقضى الحركة البندكتية على هذا الإشعاع العلمي ، لولا جهود القديس بونيفيس (ت ٧٥٥) وزملائه من رجال البعثات التبشيرية التي غادرت إنجلترا إلى القارة^(٤) . حقيقة إن الهدف الأساسي لرجال هذه البعثات التبشيرية كان نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية ، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجال الدين على قسط من الثقافة اللاتينية، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية^(٥) . وهكذا فإن الفضل يرجع إلى الأديرة التي أسسها القديس بونيفيس في فولدا وهرسفيلد ، وإلى المدارس الأسقفية والديرية التي أحياها ذلك القديس ، في إنقاذ الحياة العلمية في العصور المظلمة ، وفي تمهيد الطريق لما قام به شارلمان من إصلاح المدارس وإثارة الحركة الفكرية الكبرى التي تعرف باسم النهضة الكارولنجية^(٦) .

شارلمان والعناية بالتعليم :

اهتم شارلمان بنشر التعليم ورفع مستواه والإكثار من المدارس ، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين وكثرة الأخطاء المتوافرة في المخطوطات الدينية ، بأن في الإنجيل نفسه ؛ ويأمرهم بالعناية بالمدارس

(١) Idem; p. 501

(2) Poole: Illustrations of the Hist. of Med. Thought; p. p. 30-1 .

(٦) Thompson : op. cit ; vol. 2; p. 747.

(4) Eyre : op. cit ; p. 240.

(5) Taylor : op. cit ; vol 1.; p. p. 198-200.

(6) Cam. Med. Hist ; vol 5; p. 772

والتعليم لإصلاح هذه الأوضاع^(٢). وقد استعان شارلمان في هذه الحركة الواسعة بـخلاصة المواهب التي انجبتها إنجلترا وأسبانيا وإيطاليا، مثل بولينوس النجوى — وهو من أكويليا — وبطرس البيزى وبولس الشماس من لمبارديا، وثيودلف من أسبانيا؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً الكوين الذى وفد من يورك والذى كان أبرز أعلام النهضة الكارولنجية^(٣). وكان الكوين هذا بمثابة « وزير التعليم » في عهد شارلمان، زيادة على كونه معلماً خاصاً لأمرء القصر بل الإمبراطور نفسه^(٤). ولم تلبث أن أصبحت مدرسة تورز — بفضل إشراف الكوين وتوجيهه — مركز الثورة الثقافية في الإمبراطورية الكارولنجية. ففي هذه المدرسة لم يقف نشاط الكوين عند العناية بالخط وتجميله فحسب^(٥)، وإنما امتد إلى مراجعة الكتب الدينية وتصحيحها ثم توزيعها بعد ذلك على الأديرة لنسخها في صورتها الجديدة^(٦).

حقيقة إن الغرض الرئيسى الذى دفع شارلمان إلى هذه الحركة كان دينياً يستهدف تصحيح الإنجيل وكتب الصلوات وغيرها من الكتب الدينية المتداولة^(٧)، ولكن الحركة امتدت حتى شملت أيضاً حفظ التراث اللاتينى الكلاسيكى ورعاية المخطوطات القديمة؛ حتى أن أقدم مالدينا من المخطوطات يرجع تاريخ إعادة نسخها إلى العصر الكارولنجى، باستثناء بعض الكتابات القليلة التى عثر عليها رجال النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر والتي نسخت قبل العصر الكارولنجى^(٨).

(1) Laviese : op. cit. : Tome 2, Livre 1; p. p. 342-343.

(2) Poligno : Latin Thought; p. 68.

(3) Rashdall : op. cit. ; vol. 1, p. 28.

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 3, p. 517.

(5) Quizot: Hist. de la Civilization en France; Tome 2; p.p. 109-201

(6) Thompson : op. cit. ; vol. 2; p. 785

أما مدرسة القصر التي عرفها بلاط الملوك الميروفنجيين من قبل ، فقد نظمها شارلمان في بلاطه بمدينة آخن على أسس جديدة . ذلك أنه جعل منها مجعاً للعلماء والأدباء ، فضلاً عن صفتها الأساسية كمدرسة لإعداد جيل من الناشئين لخدمة الملوك ومعاونتهم^(١) . وخير شاهد على الروح الجديدة التي نفخها شارلمان في هذه المدرسة ، تلك الأسماء التي تسمى بها أعضاؤها والتي أرادوا أن يتشبهوا فيها بالسلف من أعلام الحكمة والأدب ؛ فشارلمان داود ، وألكوين فلاكوس وانجلبرت هومر . . . وقد أظهر الإمبراطور شارلمان شغفا كبيراً بجميع نواحي المعرفة لا سيما الفلك ، كما كان يتكلم اللاتينية ويقرأها على الرغم من قلة درايته بالكتابة^(٢) .

وهكذا انتشرت المدارس الأسقفية والديرية في جميع أنحاء إمبراطورية الفرنجة ، كما قدر لبعض هذه المدارس البقاء والاستمرار بعد سقوط هذه الإمبراطورية مثل مدارس ريمس وليون وفريير وكورفي وفولدا وباثيا^(٣) . وكان نظام التعليم الرسمي في الإمبراطورية الكارولنجية يشمل الأولاد من الأحداث دون البنات ، وإن وجدت بعض أمثلة لنساء متعاملات في أوروبا القرن التاسع . وهنا نلاحظ أن بعض المعاصرين حبذوا في العصور الوسطى تعليم بنات النبلاء القراءة ، لما في ذلك من توسيع الأفق وإثارة الفكر ، ولكنهم عارضوا مبدأ تعليمهن الكتابة حتى لا يستخدمنها في تحرير رسائل غرامية^(٤) .

ومهما كان الأمر فقد كان التعليم في هذا العصر عاماً ، فلم يقتصر على رجال الدين وحدهم كما يتضح ذلك من منشور أصدره ثيودلف — أسقف أورليان — لأتباعه من رجال أسقفيته ، يحثهم فيه على تعليم الأهالي بصفة عامة سواء في المدن

(١) Eyre : op. cit. ; p. 325.

(٢) Taylor : op. cit. ; p. 214.

(٣) Palgrave : op. cit. ; p. 811.

(٤) Palgrave : A Hist. of the Middle Ages ; p. 465.

(م ٩ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

أوفى الريف^(١). وهناك مرسوم آخر صدر سنة ٨٠٢ ينص على أن « يبعث كل فرد ابنه لتعلم القراءة والكتابة بشرط أن يبقى هذا الابن في المدرسة حتى يكتمل تعليمه ». أما المرسوم الصادر سنة ٨٠٥ فينص على أهمية الحساب « الذي يشب أن يتعلمه كل فرد على الوجه الصحيح ». ويبدو أن الحساب والفلك كانت لهما أهمية خاصة في ذلك العصر لمعرفة حساب الأيام والأعياد الدينية . ولكن من الواضح أنه كان عسيرا أن يتقدم علم الحساب بالطريقة اللازمة لإجراء العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب . . . بالأعداد الرومانية التي لم يعرف غرب أوروبا غيرها حينئذ ؛ لأن الأعداد الهندية واستخدام الصفر في الحساب لم تعرفها أوروبا إلا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر^(٢).

وعلى الرغم من أن ثيودلف . . . أسقف أورليان - كان يحلم بنوع من التعليم أوسع أفقا عندما كتب إلى رجال أسقفية يمحهم على تعليم الصغار بدون أجر مكثفين بما يقدمه الآخرون من منح اختيارية ؛ إلا أن التعليم ظل في العصر الكارولنجي يستهدف تدريب رجال الدين وإعدادهم ليكونوا قساوسة أورهبانا صالحين^(٣). وهكذا أصبحت لكل دير وكل كاتدرائية مدرستها الخاصة بتعليم صغار رجال الدين . وهنا يلاحظ أن هذه الحركة العلمية الضخمة لم تندثر بسرعة عقب وفاة شارلمان ، إذ انعقد مجمع كنسي سنة ٨٢٩ حث لويس الثقي على أن يخذو حذو أبيه في تشجيع المدارس والتعليم . هذا إلى أن البابا أيوجين الثاني أمر سنة ٨٢٦ بضرورة وجود مدرسة على الأقل في كل أسقفية^(٤). هذا وإن كان المرسوم الذي أصدره هذا البابا تبدو فيه التفرقة واضحة بين الفنون الحرة (artes liberales) — وهى العلوم الدنيوية ، وبين العلوم الدينية والنظريات اللاهوتية (sancta dogmata) . ولعل خير ما فعله الإمبراطور

(1) Quizot : op. cit. Tome 2; p. p. 212-216.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 746.

(3) Cam. Med. Hist; vol. 5; p. p. 774-775.

(4) Pooler Illustrations; p. 21.

لوتر الأول هو أنه أمر سنة ٨٥٥ بتأسيس تسعة مدارس مركزية في بافيا وإفريا؛ Ivrea وتورين وكريمونا وفلورنسا وفورمو وفيرونا وفيكينزا وفورم^(١).

أما عن نظام التعليم حينذاك - في القرن التاسع - فكان ينقسم إلى ثلاث مراحل ، الأولى بمثابة مرحلة ابتدائية أو أولية ، وفيها تدرس القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية الدارجة مع بعض دراسات سطحية في أصول الدين والكتاب المقدس . ويبدو أن هذه المرحلة كانت إلزامية للمقبلين على الإنتظام في سلك الكهنوت ، كما كانت مباحة لغيرهم من العلمانيين وإن كان إقبال هؤلاء الأخيرين عليها ضعيفا . أما المرحلة الثانية ، فتشمل موادها الفنون السبعة الخشنة بمجموعتها الثلاثية والرباعية ، وكانت مواد المجموعة الثلاثية تسمى عقلية في حين سميت مواد المجموعة الرباعية وجودية لتناولها حقائق بعيدة عن العقل . وأخيرا تأتي المرحلة الثالثة ، وهي خاصة بتعليم اللاهوت والكتب المدرسية في ضوء آراء آباء الكنيسة ، لا سيما القديس أوغسطين .

ويلاحظ أنه لم يوجد توافق أو انسجام بين مراحل التعليم الثلاث السابقة سواء من حيث تعاقبها أو علاقتها بعضها ببعض ؛ وإنما كثيرا ما كانت هذه المراحل تتداخل بعضها في بعض أو تتباعد بعضها عن بعض وفق الظروف والأحوال .

الممارس العربية :

ولم تلبث حركة الإحياء الكارولنجية أن استنفدت قوتها سنة ٨٧٧ ، أي عند وفاة شارل الأصغر ، وإن كان أثرها قد ظل باقيا لم يندرس . وفي وسط الحقبة التي تعرضت لها الإمبراطورية الكارولنجية في القرن التاسع نتيجة للأخطار

(1) Thompson : op. cit.; vol 2, p. 745

الخارجية من ناحية والإخلال الداخلى من ناحية أخرى ، قامت المدارس الديرية — فيما بين سنتى ٨٠٠ و ١١٠٠ — برسالتها كاملة إذ أنحت المراكز الأساسية لحفظ الحضارة الغربية، كما تخرج فى مدارسها عدد كبير من رجال المعرفة المبرزين^(١). لذلك اختار بعض المؤرخين والكتاب أن يطلقوا اسم « العصر البندكتى » على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادى عشر ، على أساس أن هذه الفترة تمثل العصر الذى أضفى زمام التعليم فى أوروبا بأيدي رهبان الأديرة^(٢).

ذلك أن مدارس الأديرة قامت بدوراً كثر أهمية من مدارس الكتدرانيات. فى هذه الفترة، كما أن الأديرة فتحت أبوابها لطلاب العلم — من غير الديرين — لأول مرة فى تاريخها . ومنذ بداية القرن التاسع أصبح لكل دير من الأديرة المعروفة مدرستان منفصلتان ، إحداهما للنظاميين المنقطعين للعبادة من أهل الدير (oblati) ، والأخرى للخارجيين^(٣).

ويبدو أن تيار النشاط العلمى فى أوروبا بدأ يتحول - - منذ أواخر القرن التاسع — من غاليا إلى ألمانيا ، التى أخذت تفيض حيوية فى عهد حكمها من ملوك الأسرة السكسونية . وقد نتج عن ذلك قيام نهضة فى ألمانيا فى القرن العاشر تعرف بالنهضة السكسونية أو النهضة الأوتية ، نسبة إلى الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣)^(٤). على أن هذه النهضة الأوتية كانت أضعف أثراً وأضيق دائرة من النهضة السكارولنجية السابقة لها ، هذا وإن تناولت هى الأخرى النواحي الأدبية والفنية والتعليمية ، فضلاً عن العناية بالنحو اللاتينى بوجه خاص ، لأن معرفة قواعد النحو تتوقف عليها دراسة الكتاب المقدس دراسة صحيحة^(٥).

(1) Eyre : op. cit., p. 326.

(2) Rashdall : op. cit; vol. 1; p. 29 .

(3) Idem; p. 29.

(4) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 746

(5) Taylor : op. cit.; vol. 2; p. 361-762.

وكانت أبرز مدارس ألمانيا في هذه الحقبة مدرسة دير سانت جال حيث ظل تراث الحركة الفكرية الأيرلندية قويا^(١). ونخرج من دراسة نظم هذه المدرسة وأشباهها من المدارس الديرية المعاصرة بأن التعليم فيها ظل دينيا في أسلوبه وأهدافه بحيث لم يكن هناك نظام تعليمي ثابت للعلمانيين الذين ظل معظمهم جاهلا لا يعرف القراءة والكتابة^(٢). كذلك يلاحظ أن التدريس في هذه المدارس اعتمد على الطريقة الشفوية بسبب ندرة الكتب وإرتفاع أثمانها وكثرة الأخطاء في المخطوطات الرخيصة. ولم يكن ذلك إلا في أواخر العصور الوسطى عندما ازدادت الكتب وكثرت المخطوطات بأيدي التلاميذ فأخذ المدرسون يعدلون عن الإملاء ليشرحوا ما بأيدي التلاميذ من نصوص^(٣). كذلك يلاحظ أن التعليم امتاز في المدارس الديرية بالصرامة والحزم والقسوة في سبيل المحافظة على النظام، فضلا عن ضعف المستوى العامي للعلمانيين^(٤).

ونستطيع أن نقف على ما كان يلاقه صغار التلاميذ في تلك العصور من متاعب وآلام بقراءة فقرته مما كتبه جيوبرت النوجنتي (Guibert de Nogent) المتوفى سنة ١١٣٢، إذ يترجم لحياته فيحكى كيف أنه كان يساق صباح كل يوم -- وهو طفل في التاسعة من عمره -- إلى مدرسة الدير، ليتلقى تعليمه على يد كاتب جاهل يتصف بالقسوة والعنف، لم يتعلم نفسه النحو إلا في الكبر. ثم يستطرد جيوبرت ذاكرة أنه لم يتمتع بيوم واحد عطلة، حتى أيام الأحاد والأعياد، كان يذهب فيها إلى المدرسة حيث يكلف كثيرا من الواجبات الشاقة^(٥). أما استاذة فيصفه بعدم القدرة في الشعر والنثر، وأنه كان لا يجيد شيئا سوى توجيه

(1) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 2, pp. 173 - 114.

(2) Eyre : op. cit.; p. 326.

(3) Adamson : The Legacy; p. 278.

(4) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 2; p.p. 113 - 114.

(5) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 758.

اللكمات والألفاظ القاسية إليه وإلى زملائه ، في الوقت الذي كان يفرض على تلاميذه حفظ مالا يستطيع هو تدريسه ! ثم يعيب جيوبرت على ذلك المدرس أن يطلب من عقل التلميذ الصغير إستيعاب مالا يستطيع هو توصيله إلى ذلك العقل ، لأنه لا يوجد شيء في الحياة أصعب من حفظ مالا يستطيع الفرد أن يفهمه. وأخيرا يتعلق على ذلك بأنه يجب ألا نجبر الصغار على حفظ أشياء نعتقد نحن أنها حقائق مسلم بها دون أن نفهمها ونجعلهم يفهمونها أولا ... وهكذا تمدنا آراء جيوبرت بصورة واضحة عن فلسفة التربية في أوروبا العصور الوسطى ، وهي صورة قد لا يعرفها كثير من مؤرخي علم التربية في العصور الحديثة^(١) .

المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية :

كان الأسقف في أول الأمر يتولى رئاسة المدرسة التابعة لأسقفية ، ولكن ازدياد أعباء الأساقفة جعلتهم يتركون الشئون التعليمية داخل أسقفياتهم لفرد خاص (*scholasticus, archiscola*) . ولم يسمح لأي فرد آخر أن يفتح مدرسة داخل حدود الأسقفية أو يباشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح من هذا الموظف ، وإلا تعرض للمحاكمة^(٢) .

ومن الواضح أن المدارس الأسقفية ضعفت فيها الرقابة والشدة في معاملة التلاميذ عن المدارس الديرية ، الأمر الذي جعل الأولى مسرحاً لكثير من المتاعب من جانب التلاميذ المشاكسين . على أن هذه المدارس الأسقفية التي قلت فيها الرقابة على التلاميذ ، هي المدارس نفسها التي قدر لها البقاء والإستمرار لتزدهر في أوائل القرن الثاني عشر . في الوقت الذي أخذت المدارس الديرية في الأفول البعدي^(٣) . وليس معنى ذلك أننا نقلل من فضل الأديرة ومدارسها

(1) Ibid

(2) Adamson : The Legacy of the Middle Ages; p.p. 256 - 257.

(3) Thompson : op. cit ; vol 2; p. 749.

إذ يكفي أن معظم التنويرين من رجال الدين في ذلك العصر تلقوا تعليمهم في الأديرة ، زيادة على أن المدارس الأسقفية نفسها استمدت معلميها وأساتذتها من الأديرة^(١). وكل ما هنالك هو أن المنظمات الديرية الجديدة لاسيما الكلوونية والسترشانية ، شغلتها المسائل المتعلقة بالإصلاح وسياسة العصر عن الإهتمام بالنشاط التعليمي ، في حين استمرت الأديرة البندكتية في ألمانيا تواصل نشاطها التعليمي .

وقد أخذت الجامعات الكنسية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر تنادى بإنشاء مدارس في كل كتدرائية حتى ظهر عدد كبير من هذه المدارس^(٢). وكانت هذه المدارس تدور حول مركز الأسقف الذى عين للإشراف على تلاميذ المدرسة موظفاً لقب بأستاذ المدرسة (magister scholarum) ؛ وإن كان أمين الكتدرائية (Chancellor) هو الذى تولى في بعض الحالات — مثل مدرسة كتدرائية باريس — الإشراف على المدرسة^(٣).

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكتدرائية — وبخاصة في فرنسا — النشاط الفكرى في غرب أوروبا عند بداية القرن الثانى عشر ؛ وظهر من هذه المدارس — مثل ريمس وشارتر — ما أصبح أما لمجموعة من كبار المفكرين الذين لمعت أسماءهم في مختلف ميادين المعرفة وبخاصة في العلوم والآداب ؛ هذا في الوقت الذى لم تبق من مدارس الأديرة ذات الشهرة سوى قلة محدودة^(٤). وهنا ينبغى أن نلاحظ دائماً أن هذه المدارس الكتدرائية لم تختلف عن المدارس الديرية في طابعها الدينى وأهدافها الكنسية ، الأمر الذى كان له أعمق الأثر في تشكيل الحركة الفكرية التى جاءت مصحوبة بظهور الجامعات الأوروبية

(1) Rashdall : op. cit ; vol 1; p. 29.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 467.

(3) Eyre ; op. cit; p. 325

(4) Idem; p. 269.

في القرن الثاني عشر^(١). كذلك اهتمت المدارس الكنتدرائية بدراسة النحو اهتماماً بالغاً ، واتخذت هذه الدراسة شكل تلقين للمبادئ والقواعد النحوية ، ثم إعطاء تطلعات عملية عليها ، زيادة على دراسة نماذج من الشعر والنثر وامتحان الطلاب فيها . أما العلوم الأخرى فقد حظيت أيضاً بقسط وافر من عناية المدارس الكنتدرائية في العصور الوسطى ، وفي مقدمة هذه العلوم اللاهوت والفلسفة والقانون^(٢) .

والواقع أن أوربا شهدت نهضة فكرية عظيمة في القرن الثاني عشر ، ساعد عليها الانتعاش الإقتصادي والإستقرار الإجتماعي والسياسي وازدياد اتصال الأوربيين بالثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام^(٣) . وقد ترتب على هذه الحركة الحضارية اتساع نطاق المعرفة في غرب أوربا بحيث لم تعد تتسع لها المدارس الأسقفية أو الديرية بنظمها التي كانت عليها في أوائل القرن الثاني عشر ، مما يتطلب قيام نظام جديد للتعليم العالي يفي بحاجات العلوم الجديدة وطلاب هذه العلوم . ولم يكن ذلك إلا بنشأة الجامعات التي تعتبر في نظر بعض المؤرخين أعظم ما قدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة^(٤) .

الجامعات :

ظهرت أولى الجامعات الأوربية في القرن الثاني عشر في بولونيا بإيطاليا ، وفي باريس بفرنسا ؛ وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامعات الأوربية في حوض البحر المتوسط ، في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها التي ظهرت في

(1) Raahdall : op. cit.; vol. 1; p.p. 29 - 30.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 468.

(٣) أنظر كتاب النهضة الأوربية للمؤلف من ١٠٠ — ١٠٢ وكذلك

Cam Med. Hist; vol. 6, p.p. 559 - 560.

(4) Eyre : op. cit; p. 328.

أواخر العصور الوسطى . والمعروف أن لفظ رابطة أو جامعة (universitas) لم
يعن في الأصل أكثر من مجموعة من الأساتذة أو الطلاب اجتمعوا في صعيد واحد
لمباشرة النشاط الثقافي ^(١) . على أن الطلاب خطوا خطوة السبق في بولونيا عندما
نظموا أنفسهم في هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ « جامعة » ؛ وانقسموا إلى فريقين
كبيرين : الطلاب الوافدون من إيطاليا ، البلاد الواقعة جنوب جبال الألب
(cismontane) والطلاب الوافدون من الجهات الواقعة شمالي جبال الألب
(ultramontane) ^(٢) . ولم تلبث أن انقسمت كل مجموعة من هاتين المجموعتين
إلى شعب صغيرة أو أروقة ضمت كل منها الطلبة الوافدين من بلد واحد أو مدينة
واحدة ، كطلاب المبارديا أو تسكانيا أو البندقية أو روما أو بافريا أو سوابيا .
واختار أبناء كل بلد من هؤلاء مشيرا أو مراقبا (conciliarius) ، على أن يجتمع
هؤلاء المشيرون سويا لاختيار رئيس أو مدير للجامعة (rector) من بينهم .
وهذا لم يكن الأساتذة أعضاء في جامعة بولونيا ، ولم يكن لهم نصيب في إدارتها وإنما
ظلوا بمثابة مستخدمين تدفع لهم نقابة الطلبة أجورهم وفقا لعدد الدروس التي يدرسونها
كل منهم ويحدد طابته ^(٣) . حقيقة إن هيئة التدريس سرعان ما ألقت نقابة خاصة
بها ، ولكن السيادة ظلت لنقابات الطلبة في جامعة بولونيا ، حتى أن هذه النقابات
الأساتذة كانت تفرض على الأساتذة قيودا وغرامات إذا خالفوا القواعد العامة
التي وضعتها ^(٤) .

أما في باريس فأتخذ التنظيم اتجاها عكسيا لما كان عليه الحال في بولونيا ، إذ
بدأ الأساتذة بتكوين رابطة أو جامعة (universitas) ، في حين انقسم
الطلبة إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب الشعوب التي ينتمون إليها ، لكل مجموعة

(1) Rashdall : op. cit.; vol. I, p. 4 - 6.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 581.

(3) Eyre : op. cit., p. 330.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 470.

وكيل أو قائم بأعمالها (procurator) . وكان هؤلاء الوكلاء أو رؤساء الأروقة يختارون الرئيس أو المدير الأعلى للجامعة (rector) الذى أصبح بطريقة آلية رئيس أساقفة باريس، لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت من مدرستها الأسقفية^(١) . أما إدارة جامعة باريس فكانت بي أيدي الأسانذة لا في أيدي الطلبة ، كما كان الحال في بولونيا^(٢) . ورجع السبب في ذلك إلى الفارق العام بين مستوى أعمار الطلبة في الجامعتين ، فمدرسة باريس الأسقفية - وهى التى أصبحت جامعة باريس فيما بعد - كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الأحداث في سن الرابعة عشرة بل الثانية عشرة ، في حين كان الطلبة في بولونيا أكبر سناً وأتم نضجاً لأن الدراسة الأساسية فيها كانت قانونية ، ومن ثم أقبل عليها عدد كبير من الناضجين ورجال الأعمال^(٣) . هذا إلى أن جو القومونات المباردية المشيع بالحرية والبعيد عن القيود التى أحاطت بالجو الأسقفى الذى ولدت فيه جامعة باريس --- كان له أثر واضح في هذا التطور . ومهما كان الأمر، فإنه يمكن القول بأن بولونيا وباريس هما الأصل الذى تفرعت عنه بقية الجامعات الأوروبية واستقت منه نذمها وقواعدها . فكانت باريس نموذجاً للجامعات التى قامت على أساس رابطة الأساتذة في شمال أوروبا ، في حين كانت بولونيا أساساً للجامعات التى قامت على أساس رابطة الطلبة في جنوبها^(٤) .

وكان الإصطلاح الذى أطلق في أول الأمر على ما نعرفه اليوم باسم الجامعة هو (studium generale) بمعنى المكان الذى يتلاقى فيه الطلبة الوافدون من جميع الجهات ، لا - كما يظن البعض خطأ - المكان الذى يدرس فيه جميع المواد^(٥) . ولم يصبح هذا الإصطلاح شائعاً إلا في أوائل القرن الثالث عشر ،

(1) Haskins : The Rise of Universities, p.p. 21 - 22.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 561

(3) Eyre : op. cit., p.p. 329 - 330.

(4) Haskins : The Rise of Universities, p. 5.

(5) Eyre : op. cit., p. 328.

عندما أصبح يتنازع بثلاثة خصائص أساسية ، أولها أنه يعبر عن البقعة أو المدرسة التي تستقبل الطلبة من جميع الجهات ، وثانيها أنه كانت تلقن به دراسات عليا على أن تكون من بينها إحدى مواد التخصص على الأقل ، كاللاهوت أو القانون أو الطب ، وثالثها أن هذه الدراسات العليا قام بتدريسها عدد من الأساتذة الكفلاء المتخصصين^(١) . وعلى هذه الأسس السابقة وجدت عند أوائل القرن الثالث عشر جامعة في باريس اشتهرت باللاهوت ، وأخرى في بولونيا اشتهرت بالقانون ، وثالثة في سالرنو اشتهرت بالطب .

وهنا نلاحظ أن نفوذ الكنيسة كان عاملا أساسيا في التنظيم الشكلي للجامعات ، لأن الكنيسة كانت المنبع الوحيد للتعليم في أوروبا العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التعاليم الجديدة نبتت في المدارس الأسقفية ، ومن ثم كانت طبيعيا أن تتحكم الكنيسة . وهي أعظم قوة تحكمت في جميع مرافق الحياة في أوروبا العصور الوسطى -- في توجيه هذا التعليم الجديد والسيطرة عليه^(٢) . وقد أدركت الكنيسة أن في خروج هذه الحركة التعليمية الجديدة من قبضتها ، تعريضا لسلطانها ونعاليها للخطر والنقد ، وسط الجوى العالمى الجديد المشبع بحرية التفكير والتعبير . ولما كان من الصعب على الكنيسة قمع هذه الحركة الجديدة أو كبتها ، فلا أقل إذا من توجيهها وتنظيمها في الصورة التي تكفل عدم التعرض لأوضاع الكنيسة ونظمها وآرائها القائمة^(٣) . وأول مظاهر تدخل الكنيسة في شئون هذه الهيئات الجامعية الناشئة هو تمسك البابوية بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراه في القانون من بولونيا . أما باريس فقد ظهر هذا التدخل في التوحيد بين وظيفتي رئيس

(1) Rashdall : op. cit., vol. 1, p.7.

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p.p. 765 - 766.

(3) Pirenne, Cohen, Fucillon : op. cit., p. 257

الجامعة ورئيس أساقفة باريس ، بمعنى أن الأخير أضحي مشرفا على شئون الجامعة^(١) . ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الجامعات الناشئة استطاعت بوجه عام أن تحظى بقدر كبير من الحرية الأكاديمية ، إذا استثنينا جامعة باريس التي ظلت أقل من غيرها حرية لأنها سرعان ما غدت مركزا لدراسة اللاهوت والقانون الكنسي^(٢) .

أما فيما يختص بمواد الدراسة ونظمها وحياة الطلاب في جامعات العصور الوسطى الناشئة ، فيلاحظ أن الجامعة المثالية كان لا بد لها من أن تتوى أقساما للفنون الحرة ، واللاهوت ، والقانون بشطريه الروماني والكنسي ، والطلب . ولكن الواقع هو أنه لم توجد جامعة في هذا الدور الأول من تاريخ الجامعات في العصور الوسطى استوفت كل هذه الأقسام . والذي حدث بالفضل هو أن كل جامعة تخصصت في ميدان أو أكثر من ميادين المعرفة ، فاشتهرت باريس بالفلسفة واللاهوت ، والقانون الكنسي والآداب ، وتخصصت بولونيا في القانون الروماني ، وعرفت سالرنو بالتفوق في دراسة الطب وهكذا^(٣) .

وقد امتد نفوذ أمين الكتدرائية (Chancellor) في باريس حتى نضمن الموافقة على اختيار المرشحين لوظائف التدريس^(٤) . هكذا أصبح نفوذ أمين الكتدرائية من جهة ، وحق حصول المدرس القدير على ترخيص بالتدريس من جهة أخرى ، هما الدعامتان اللتان قام عليهما النظام الفرنسي للجامعات^(٥) . حتى أن المتبع لنشأة جامعة باريس ، يلحظ أن هذا التطور جاء ، مصحوبا بصراع بين الطائفة وأمين الكتدرائية . ذلك أن الطالب الذي استكمل دراسته وتأهل

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 470.

(2) Rashdall : op. cit., vol. 1, p p. 321 - 324

(3) Idem, p p. 17 - 18.

(4) Eyre : op. cit., p. 330.

(5) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 282.

للتدريس كان لابد له من الحصول على درجة الأستاذية أو الماجستير . ولكن أمين الكتدرائية لم يكن له حق رفض الترخيص لأحد الأساتذة الذين يحملون الدرجة السابقة بالتدريس فحسب ، بل كان له في أول الأمر حق حرمانه من هذه الدرجة التي حصل عليها ، مستغلا في ذلك سلطته الدينية ونفوذه الكنسي^(١) . والغريب أنه على الرغم من هذه السلطات الواسعة التي تمتع بها أمين الكتدرائية إلا أنه لم يكن عضواً في نقابة أساتذة الجامعة^(٢) . هذا إلى أن أساتذة الجامعة كانوا يستعليون رفض الإعراف بترشيح أحد الأفراد ليكون عضواً جديداً في هيئة التدريس ؛ وعن هذا الطريق تمتعوا بسلطة تعادل ما كان لأمين الكتدرائية من سلطة في منح الليسانس (Licence) أو الترخيص بالتدريس^(٣) .

أما عن مناهج الدراسة في الجامعات الأوربية الناشئة فقد قامت في أول الأمر على أساس المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة ، ولكنها أخذت تنمو وتعدل بسرعة نتيجة للمعلومات الغزيرة التي تدفقت على غرب أوروبا منذ القرن الثاني عشر^(٤) . وقد ظفر القانون والطب والفلسفة واللاهوت بالتسقط الأكبر من اهتمام المعاصرين ، وإن كانت بقية العلوم لم تحرم من ذلك الإهتمام . فالحساب الذي كان لا يزال عامداً غامضاً حظى بعناية كبرى ، والهندسة عولجت على أنها تنضم في رحابها مجموعة أخرى من العلوم أهمها الجغرافيا التي بلغت درجة كبيرة من التقدم نتيجة للحروب الصليبية واتساع التجارة . كذلك ازدادت العناية بالعلوم الطبيعية ولا سيما علم الحيوان . وإذا كانت هذه العلوم قد ظلت أمداً طويلاً تشوبها الأوهام وتسيطر عليها المعتقدات الدينية ، إلا أن الجامعات الناشئة

(1) Idem, p. 304.

(2) Eyre : op. cit., p. 330.

(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, 284.

(4) Eyre : op. cit., p. 332.

لم تاهت أن تبنت الروح الجديدة التي ترمى إلى البحث والإستقصاء لمعرفة حقيقة الكون والكائنات^(١). أما في اللاهوت فكان منهج الدراسة طويلاً وبخاصة في جامعة باريس ، حيث كانت مواد هذا المنهج مستمدة من الكتاب المقدس . ومن كتاب « الأحكام » الذي وضعه بطرس المبارك في علم اللاهوت^(٢) .

أما الدرجات العلمية فكانت ثلاثاً : البكالوريوس والليسانس والأستاذية ؛ فكان يكفي أن يدرس الطالب كتابين في النحو وخمسة في المنطق ليحصل على درجة البكالوريوس بعد أن يؤدي امتحاناً أمام ثلاثة أو أربعة أساتذة ؛ فإذا نجح نوقش علناً برأسة أستاذه ثم يمنح درجة البكالوريوس في الفنون الحرة (*Baccaleriandorum*) . وبعد هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يقضى نحواً من سنتين في قراءة بعض المتون وشرحها ، حتى إذا أتم ذلك بنجاح حصل على إجازة التدريس (*licentia docendi, lisence*) وهي كما يتضح من اسمها ترخيص (ليسانس) يعطيه حق مباشرة مهنة التدريس^(٣) . أما درجة الأستاذية (*Magister artium*) فكانت تتطلب دراسة تقرب من خمس أو ست سنوات وبعد ذلك لا يحصل الطالب على هذه الدرجة إلا بعد أن يلقي درساً تجريبياً أمام لجنة من المتحنيين .

(1) Thompson : op. cit , vol.2, p.767.

(2) Haskins : The Rise of Universities; p. 47.

(3) Rashdail : op. cit.; vol. 2, p p 450-456.

(٤) يلاحظ عدم الخاط بين ملول هذه الشهادات في جامعات أوروبا العصور الوسطى وبين ما تدل عليه الآن في جامعاتنا . فدرجة البكالوريوس (B. A.) تساوى درجة الليسانس في كتابنا النظريّة؛ ودرجة الليسانس كانت عبارة عن إجازة تعطي صاحبها حق مزاوله مهنة التدريس وهي أقرب في عرفنا إلى ما نسميه تجاوزاً درجة الماجستير ؛ أما درجة الأستاذية في الآداب — وهي المقروض أن تسمى ماجستير M. A. — فهي مرادفة بالضبط لدرجة الدكتوراه ، وهما كانتا ستمثل السفة العلمية لأستاذ الآداب في العصور الوسطى . (أنظر Rashdail, op. cit.; vol. 1, p.p. 452-470) ، وكذلك كتاب الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى ، للمؤلف .

وكانت درجة الأستاذية في الآداب مرادفة ومعادلة للدرجة الدكتوراه في الفروع الأخرى^(١). ولم يكن من الضروري أن يحصل الطالب على درجة الأستاذية للتحضير للدرجة الدكتوراه في القانون الكنسي أو المدني، ولكنها كانت أساسية للتأهيل للدرجة الدكتوراه في الطب أو اللاهوت^(٢). ومهما كان الأمر فإن درجة الأستاذية أو درجة الدكتوراه كانت لا تمنح لمن سنه دون الخامسة والثلاثين على أن يؤدي الطالب امتحانين للحصول على هذه الدرجة أحدها خاص والآخر عام على، وبعد ذلك يمنح الدرجة في الكندراثة^(٣).

وكانت طريقة التعليم شفوية، على هيئة محاضرات يلقاها الأساتذة تتخللها مناقشات فيما بينهم وبين الطلاب. ولم يكن للجامعات في أول الأمر مبان مستقلة خاصة بها، فاستخدمت في إلقاء المحاضرات بعض الغرف الملحقة بالكندراثة، وهي غرف عارية باردة، ليس فيها أثاث سوى مكتب الأستاذ^(٤). أما الطلبة فكانوا في أول الأمر — قبل إعداد مقاعد لهم — يجلسون على الأرض، وأحياناً فوق وسائل محشوة بالقش^(٥). وقد توقف نجاح الطالب في دراسته إلى حد كبير على قوة ذاكرته ومقدرته على الاحتفاظ في ذهنه بما يلقاه الأستاذ من معلومات. ذلك أن الورق الذي عرفه الغرب بعد ذلك عن طريق العرب، لم يكن قد عم استعماله بعد؛ في الوقت الذي كانت الرقائق الجلدية المستخدمة في الكتابة باهظة الثمن بحيث لا يستطيع معظم الطلاب شراءها^(٦). وفي بعض الأحيان دفعت الضرورة بعض الطلبة الذين يدرسون على أستاذ واحد إلى الإشتراك سويًا في شراء

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 6, p. 564.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 473.

(3) Thompson : op. cit.; vol. 2, p.p. 757-762.

(4) Cam. Med. Hist ; vol. 6, p. 570.

(5) Haskins : The Rise of Universities; p.p. 62-63.

(6) Rashdall : op. cit , vol. 1, p. 424.

رق جلدی لتدوين المحاضرات عليه. وفي نهايه المحاضرة يجتمعون سويافى مكان ما، ويدلى كل منهم بما تعيه ذا كرته مما سرده الأستاذ، وعندئذ تنشأ بينهم مناقشات طويلة حول تحديد ما ذ كره الأستاذ وما لم يذكّره، وعندما تتم مجموعة المحاضرات تصبح ملكا لهم جميعا يتبادلونها للاستذكار^(١).

ولم تخل جامعات العصور الوسطى - كما هو الحال اليوم في جامعاتنا الحديثة - من بعض الطلاب المستهترين الذين يندسون وسط جموع المجتهدين؛ حتى وصف بعض المعاصرين إحدى فرق الجامعة بأن طلابها يصلحون لأن يكونوا خبازين لاطلاب علم! والواقع أنه كانت ثمة مشكلة خطيرة في توفير العناية المادية والرقابة الخلقية على هذه المثات بل الألوف من الطلاب. وقد واجهت هذه المشكلة الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة في المدينة، لأن الطلاب كانوا صغار السن يفيضون شبابا ويعيشون بعيدين عن بيوتهم دون وجود سلطة تكبح جماحهم^(٢). وبالإضافة إلى ارتفاع تكاليف الحياة الجامعية عندئذ، مما أدى بكثير من الطلبة إلى العيش على قليل من الزاد في مساكن حقيرة^(٣)، فإن عوامل الإغراء كانت كثيرة، من حانات وأماكن للدعارة واختلاط بقطاع الطرق وغيرهم من أهل السوء، مما أدى إلى إنحراف كثير من الطلبة عن جادة الصواب^(٤). ولم يظهر حل لهذه المشاكل المتباينة إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر عندما ظهرت المجمعات أو الكليات المنزلية (colleges). وكان المقصود بهذه المجمعات، الكليات في أول الأمر أن تكون منازل ينزل في كل منها عدد من الطلاب - وبخاصة الفقراء - لمساعدتهم على عيشه أفضل وحتى يكونوا تحت رقابة تشرف عليهم^(٥).

(1) Thompson : op. cit ; vol 2, p. 768.

(2) Haskins : The Rise of Universities; p.p. 83-85.

(3) Coulton : Life in the Middle Ages; vol, 3, 113.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 475.

(5) Eyre : op. cit , p, 313.

وقد ظهرت هذه المؤسسات لأول مرة في باريس عندما أخذ بعض الخيرين يألون لما يعانيه الطلبة الفقراء من متاعب وآلام ، فأسس روبرت السوربونى (Robert de Sorbon) - وهو تاجر وافر الثراء - بحجة في باريس سنة ١٢٥٨ لإيواء عدد من الطلبة الفقراء وإطعامهم مقابل أجر اسمى زهيد ، مما خلده اسمه في باريس حتى اليوم^(١). ولم يكده ينتهى القرن الخامس عشر حتى كان في باريس أكثر من خمسمائة مؤسسة إجتماعية من هذا النوع تتنوع بأوقاف واسعة من الأراضي والعقار . أما في إنجلترا فقد أنشأ والتر مرتون (Walter of Merton) أسقف رويستر مؤسسة مرتون في أكسفورد ، كما أسس حناباليول John Balliol - أحد الأشراف الأثرياء في شمال إنجلترا - مؤسسة باليول^(٢).

ولم يكن ذلك إلا في عصر متأخر عندما أطلق هذا الإصطلاح (Colleges) على المعاهد والكليات العلمية التي تفرعت عن الجامعة الواحدة لتتخذ لنفسها طابعا علميا خاصا بها . وقد زال نظام الكليات هذا من جامعات القارة الأوروبية منذ أيام الثورة الفرنسية ، ماعدا إنجلترا التي ما زالت تحتفظ به حتى أن جامعة أكسفورد لها ثلاث وعشرون كلية ، في حين تحتفظ جامعة كمبردج بتسع عشرة كلية معظمها يرجع أصله إلى العصور الوسطى . وكانت هذه الكليات تعتمد على المنح التي تتلقاها من أغنياء رجال الدين والنبلاء والتجار^(٣).

ولم تلبث الجامعات أن انتشرت في أوروبا مستمدة نظمها من جامعة باريس في الغرب وجامعة بولونيا في الجنوب . ففي إنجلترا ظهرت جامعة أكسفورد في القرن الثانى عشر ، وإن كانت لم تتخذ صفتها الرسمية إلا حوالى سنة ١٢٠٠ . وكانت أكسفورد في الواقع وليدة جامعة باريس لأن مؤسسيها كانوا من الطلبة

(1) Rashdall : op. cit., vol. 1, p p. 500-507. & Cam Med. Hist. vol. 6, p, 574.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p,p. 474-475.

(3) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 769.

(م ١٠ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

والأساتذة الذين درسوا في باريس ، والذين أمرهم هنرى الثانى ملك إنجلترا بالعودة إلى بلادهم سنة ١١٦٧ عندما ساءت العلاقات بينهم وبين لويس السابع ملك فرنسا. وتغذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار في دراستهم بفرنسا^(١). أما كبردج فقد تأسست سنة ١٢٠٩ عن طريق هجرة بعض طلاب وأساتذة أكسفورد إليها^(٢)؛ الأمر الذى جعل بعض الكتاب يشبهون انتشار الجامعات في العصور الوسطى بتكوين خلايا النحل الجديدة ، إذ يكفى أن يهاجر بعض الأساتذة والطلبة من جامعة قديمة إلى مكان جديد ليضعوا أساس جامعة أخرى جديدة^(٣).

وهكذا شهدت أوربا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة ، ففي سنة ١٢٢٢ هاجر بعض رجال جامعة بولونيا إلى بادوا ليضعوا أساس جامعة جديدة؛ وفي سنة ١٢٢٤ وضع فردريك الثانى أساس جامعة نابلى — وهى أول جامعة يقيمها أحد ملوك أوربا أو حكامها ؛ وبعد ذلك بهت سنوات أسس البابا جامعة في تولوز لتكون سندا للبابوية في مكافحة الهرطقة الأليبيجنسية^(٤). أما سالرنو فكانت مدرسة ذات شهرة قديمة في العصور الوسطى في ميدان الطب فتحوّلت إلى جامعة طبية عظيمة في القرن الثانى عشر ، حتى استكملت طابعها في القرن الثالث عشر^(٥). وفي أسبانيا ظهرت جامعة شلمنقة (Salamanca) قبل سنة ١٢٣٠. أما أولى الجامعات التى ظهرت شمالي الألب فكانت جامعة براغ في بوهيميا التى أسسها شارل الرابع سنة ١٣٤٧. وفي سنة ١٣٨٥ قامت جامعة هيدلبرج وهى أولى الجامعات الألمانية^(٦). وإذا كانت معظم هذه الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض في نواحي متعددة ، إلا أنها اتفقت

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 471.

(2) Rashdall : op. cit., vol. 3, p.p. 33-34.

(3) Cani. Med. Hist., vol. 6, p. 593.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 472.

(5) Haskins : The Rise of Universities, p.p. 9-10.

(6) Eyre : op cit., p. 383.

في الطريق الطويل الذي سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود ، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعا . ولم يلبث أن أحرز مديرو الجامعات نفوذا إداريا واسعا ، وتحايلا في تحقيق ذلك بالثورة حينما وبالاستعانة بالبابوية ضد الحُكام العلمانيين أو بهؤلاء الحُكام ضد رجال الدين أحيانا أخرى^(١) .

* * *

وبعد ، فإننا مهما كتبنا عن أهمية نشأة الجامعات وعن الأثر العام الذي تركته في تطور المجتمع الأوربي منذ القرن الثاني عشر ، فإننا لن نستطيع أن نوفى الموضوع حقه في هذا العرض الموجز . وقد ذكر أحد كتاب المصير الوسطى أن القوى الثلاث التي هيمنت على المجتمع المسيحي ووهبته الحياة والقوة كانت الكنيسة ، والإمبراطورية ، والجامعة . ولم تكن الجامعة في نظره تقل أهمية عن الكنيسة والإمبراطورية ، لأنه كما كانت للكنيسة زعامتها ممثلة في البابوية وروما ، وكما كانت للسلطة العلمانية زعامتها ممثلة في الإمبراطورية الرومانية ، فكذلك كانت جميع جداول المعرفة التي تروى الكنيسة العالمية تنبع من الجامعات الكبرى وبخاصة جامعة باريس^(٢) . والواقع أن هذا السكائب لم يكن مبالغا إذا نظرنا إلى الجامعات على أنها تمثل محاولة لتحقيق حياة مثالية ، أو على الأقل تحقيق جانب من جوانب هذه الحياة المثالية^(٣) .

ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن الجامعات الناشئة احتضنت العلوم والمعارف الواسعة التي أتت بها النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر ، الأمر الذي جعل الجامعات مركزا لثورة فكرية ضخمة ازدادت قوتها منذ القرن الثالث عشر^(٤) .

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 472.

(2) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 2.

(3) Idem; vol. 1, p. 3.

(4) Cam. Med. Hist., vol 6, p. 559.

وحسب الجامعات أنها هيئات علمية استهدفت المعرفة لذاتها ولتسخيرها في خدمة العالم الكبير، كما أن التنظيم الجامعي كان عالميا لا قوميا، فقصده الجامعة طلاب العلم من مختلف البلاد والأقحاء، حتى أصبح من الأمور المألوفة أن ينتقل طالب العلم من بلد إلى آخر ليسمع من هذا أو ذاك من الأساتذة المشهورين^(١). وهكذا أصبح تاريخ الجامعات في العصور الوسطى ليس إلا تاريخا للحياة الفكرية بأوسع معانيها، من نواحي الأدب والفلسفة واللاهوت والقانون والطب والعلوم والرياضيات^(٢). وكانت الثورة الفكرية التي تمخضت عنها الجامعات أوضح ما تكون في الجانب الفلسفي، إذ أفاق أوروبا لتجد نفسها أمام منهل فياض من فلسفة أرسطو الجديدة التي وردت عن طريق العرب؛ لأنه من الثابت أن الغرب اللاتيني لم يعرف آراء أرسطو المتأففة إلا عن طريق ترجمة شروح الفيلسوف الأندلسي العظيم ابن رشد (١١٩٨)^(٣).

وقد اعتقدت الكنيسة أنها بإشرافها على الجامعات الناشئة — وبخاصة جامعة باريس — ضمنت لنفسها السيطرة على الحياة الفكرية، وحصرت هذه الحياة في دائرة محدودة لا تتعارض مع تعاليمها. ولكن وصول فلسفة أرسطو الجديدة إلى غرب أوروبا أحدث انفجارا ذا دوى شديد، فأقبل طلاب العلم على هذه الفلسفة بنهم بالغ، غير عابئين بمدى مسابقتها لتعاليم الكنيسة، حتى أصبح من الحكم السائدة قول أحد المعاصرين «إليك تستطيع أن تكسب الجولة إذا أثبت أن أرسطو في جانبك»^(٤) لذلك هبت الكنيسة للدفاع عن كيانها، فعقد مجمع ديني إقليمي في باريس سنة ١٢١٠ حرّم تدريس بعض تعاليم أرسطو، وولفاتها،

(1) Eyre : *op. cit.*, p.p 332-334

(2) Rathjall : *op. cit.*, v. I, p p 3-4.

(3) Idem, v. I, p p 311-370.

(4) Harris : *Duns Scotus*, vol 1, p. 204.

وهدد من يخالف هذا القرار بتوقيع قرار الحرمان ضده^(١). ومن الواضح أن هذا التحريم شمل كذلك شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو، وهى الشروح التى جاءت صادقة التعبير قوية الأثر، مما أثار الكنيسة ضد أرسطو وابن رشد جميعا. وقد أبيع تدريس جدل أرسطو بعد ذلك بخمس سنوات — أى سنة ١٢١٥ — ولكن تكرر تحريم تدريس الميتافيزيقا زيادة على كل ما يمت إلى الرشدية والرشديين^(٢). ثم حدث سنة ١٢٣١ أن أصدر البابا جريجورى التاسع أمرا جديدا بتحريم فلسفة أرسطو فى جامعة باريس حتى يتم تهذيبها من كل ما يتعارض وتعاليم الكنيسة^(٣). على أن النصر النهائى كان للحركة الجامعية الجديدة وما أثارته من جنوح نحو حرية الفكر. ذلك أن رجال الجامعات الناشئة لم يستطيعوا أن يمتثلوا لأوامر رجال الدين، ويتخلوا عن فلسفة أرسطو بعد أن تدقوا جانبها من هذه الفلسفة وأدركوا أهميتها الغذائية للفكر. وهكذا استمر العلماء والطلبة يتداولون آراء أرسطو خفية فيما بينهم، حتى أن المنطق الجديد لأرسطو كان يدرس فى صورة تامة وكاملة لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس سنة ١٢٥٥^(٤).

أما اللاهوت، فإن أهميته أخذت تضعف فى الجامعات الأوربية تدريجيا نتيجة لاهتمام هذه الجامعات بتدريس القانون الرومانى. والواقع أن النهضة القانونية التى تزعمتها جامعة بولونيا، والتى امتدت إلى كثير من جامعات أوربا، لم تترك متسعا من الوقت والجهد للاهتمام باللاهوت، إلى درجة أن كثيرا من الجامعات ذات الأهمية أحجبت عن تدريس اللاهوت كلية واكتفت بإنشاء كلية للقانون

(1) Idem, vol. 1, p. 356.

(2) Haskins : The Rise of Universities, p.p. 73-74.

(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 357.

(4) Idem, vol. 1, p.p. 354-458.

المدنى^(١) . وهنا أيضاً تدخلت الكنيسة وحاولت أن تحمى اللاهوت والقانون الكنسى عن طريق الحد من سطوة القانون الرومانى والإقلال من أهميته ، فصدر قرار مجمع ريمس سنة ١١٣١ بتحريم دراسة القانون المدنى على رجال الدين . ثم تجدد هذا التحريم بقرار آخر أصدره البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨٠^(٢) . وفى القرن الثالث عشر أصدر البابا هونوريوس الثالث مرسوما بابويا سنة ١٢١٩ حرم فيه تعليم القانون الرومانى أو تعلمه ، خاصة فى بلريس والمناطق المجاورة . ويعبر البابا فى هذا المرسوم عن أسفه لأن كثيراً من رجال الدين أقبلوا على دراسة القانون الرومانى^(٣) . على أن هذه المراسيم كلها ، وكذلك المرسوم الذى أصدره البابا انوستت الرابع سنة ١٢٥٤ لم يكن لها أى أثر فعال فى إحياء دراسة اللاهوت أو إضعاف شأن القانون الرومانى ؛ حتى أن جامعات بأكملها — مثل جامعة أورليان — قامت على أساس الدراسات القانونية^(٤) .

(1) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 573.

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 774.

(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 322.

(1) Cam Med. Hist., vol. 6, p. 577

الباب السادس

الفلسفة

نظرت المسيحية — عند ظهورها — إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك، وعدم الثقة ، لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهراً من مظاهر التفكير الوثني^(١) . وإذا كانت المسيحية اعتقدت أن هذا النوع من التفكير من شأنه أن يعمى بصيرة الإنسان ، فإنها تمسكت بأن المعرفة الحقيقية ينبغى ألا تستمد إلا من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة^(٢) . على أن هذا الموقف العنيد الذى وقفته المسيحية من الفلسفة القديمة كان لا يمكن أن يدوم ويستمر ، بعد أن وجدت الكنيسة نفسها فى حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيائها ضد خصومها العديدين . وهكذا أخذ المدافعون عن كيان المسيحية فى القرن الثانى — مثل جستين الشهيد Justin Martyr وتاتيان Tatian وآثينا جوراس Athenagoras — يحذون الإعتماد على آراء أفلاطون — بصفة خاصة — لإثبات آراء الكنيسة المتعاقبة بوجود الله^(٣) .

ولم تلبث أن ظهرت أولى المحاولات لإيجاد فلسفة مسيحية منظمة فى الإسكندرية فى القرن الثالث ، على أيدى كليمنت (١٥٠ — ٢١٥) وأوريجن (١٨٥ — ٢٥٤) ، اللذين حاولا إثبات تعاليم المسيحية ونشر هذه التعاليم عن طريق الحوار والجدل ، معتمدين فى طريقتهم هذه على أسس مستقاة من الفلسفة الأفلاطونية . ونخص بالذكر أوريجن Origen — أشهر آباء الكنيسة اليونانيين ، الذى قاربت

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. p. 781-782.

(2) Eyre : op. cit.; p. 803.

(3) Gilson : La Philosophie au Moyen Age; p. p. 16-32.

آراؤه الفلسفية آراء فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، حتى قال عنه فرفوريوس الصورى
Prophyry (٢٣٢ — ٣٠٤) إنه مسيحي فى أسلوب حياته ولكنه يونانى
فى تفكيره^(١) . ذلك أن أوريجن عاش فى الإسكندرية فى وقت كانت هذه
المدينة مركزاً للعلم والعلماء الذين يعملون على التوفيق بين مختلف المذاهب التى
اجتمعت فى صعيد واحد^(٢) . ونعنى بهذه المذاهب الفلسفة اليونانية والمناوية
والفيثاغورية الجديدة والمسيحية ، فضلاً عن عقائد قدماء المصريين والمذاهب
الشرقية الواردة من الهند وفارس . وعلى الرغم من الإعتراف بأوريجن أباً من
آباء الكنيسة ، إلا أن تشبعه بالفلسفة اليونانية أدى إلى اتهامه بالهرطقة التى أدانته
بها مجمع القسطنطينية فى القرن السادس . على أن تيار الأفلاطونية استمر فى تدفقه
وتأثيره على الفكر المسيحي فى القرن الرابع ، ولم يلبث هذا التيار أن انتقل إلى
الغرب عن طريق جريجورى أسقف نيسا (Gregory of Nyssa) ت ٤٠٠
تقريباً) فالقديس أمبروز أسقف ميلان (ت ٣٩٧)^(٣) .

ديونيسيوس الأريوباغى :

ثم كان أن أسهم الشرق — عند نهاية القرن الخامس — بخطوة أخرى
هامة لتطعيم الفكر المسيحي بآراء الأفلاطونية الحديثة ، وذلك عن طريق كتابات
ديونيسيوس الأريوباغى Dionysius the Areopagite^(٤) . حقيقة إن هذه
الكتابات لم تكن إلا صورة مقنعة لفلسفة أبروقلوس (Proclus برقليس)
الإلهية ، ولكن صدورهما عن رجل له مكانته فى العالم المسيحي — مثل ديونيسيوس
الأريوباغى — جعل المعاصرين يتقبلونها فى شيء من السهولة على أنها لا تتعارض

(1) Eyre : op. cit.; p. 804.

(2) Taylor : op. cit.; vol. 1; p. 51.

(3) Foligno : Latin Thought during the Middle Ages; p. 42.

(٤) المقصود بالأريوباغى أنه كان قاضياً بحكمة آتينا العليا .

مع أصول الدين^(١). والفكرة الأساسية في هذه الكتابات هي أن عالم المخلوقات — من الملائكة فنازلاً — يمثل سلماً منتظماً ، تعبر كل درجة من درجاته عن إحدى خصائص الله وصفاته ، وهي الأصل الروحي لهذا العالم . ومن هنا وجدت نظريتان في اللاهوت الأولى إيجابية ثبوتية والثانية سلبية^(٢) . فاللاهوت الإيجابي حاول أن يفهم طبيعة الله في ضوء الإستدلال بالأمثلة المستقاة من المخلوقات ، بمعنى أن صفات الكمال الموجودة في المخلوقات مستمدة من أصول تتمثل بصورة أعظم في الله تعالى . أما اللاهوت السلبي فيبدأ من الله الخالق ، ويقول إن كل الصفات التي تختص بها المخلوقات تمتاز بالبعد عن الكمال ، وعلى ذلك لا يمكن الوقوف على حقيقة الله إلا بإبعاد كل صفات المخلوقات عنه^(٣) . ومن لاهوت ديونيسيوس الإيجابي استمدت الكنيسة في العصور الوسطى نظرية درجات الملائكة التسع ، لأنه أول من أفرد للملائكة كتاباً خاصاً جمع فيه أسماء طوائفهم الواردة في الكتب المقدسة ورتبها في درجات أو مراتب . وتقوم نظريته إلى الملائكة على أنهم يمتازون بالعقل والبساطة وعدم المادية ، أى عدم وجود خصائص مادية لهم . أما منهجه في اللاهوت السلبي فقد أدى إلى ظهور اللاهوت الصوفي La theologie mystique الذي كان له أثر بالغ على الفكر الغربي في العصور الوسطى^(٤) . ومعنى اللاهوت الصوفي العلم بالله وبالأمر الإلهية علماً ذوقياً أى تجريبياً شعورياً ممنوحاً من الله^(٥) .

(1) Gilson : op. cit ; p. 80

(2) Idem; p. 81.

(3) Eyre ; op. cit.; pp. 805-806,

(4) Gilson ; op. cit; p. 81.

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ٥٥ .

القديس أوغسطين :

على أن الشريان الرئيسى الذى وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحى فى العصور الوسطى كان يتمثل فى شخص القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠ م)^(١) . ذلك أن أوغسطين كان قد تأثر — قبل اعتناقه المسيحية — بالمبادئ الأفلاطونية التى اطلع عليها فى بعض كتابات شيشيرون وأفلوطين ، ومن ثم اتخذ هذه المبادئ نقطة البدء عند ما شرع يفكر فى وضع فلسفة دينية^(٢) .

ويعتبر القديس أوغسطين مصدر الفلسفة التى بلغت ذروتها فيما بعد على أيدى ديكارت ، والتى تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر . فأنا أستطيع أن أشك فى كل شيء إلا فى وجودى لأننى أفكر ، وما دمت أفكر فأنا موجود^(٣) . فالعقل البشرى إذن حقيقة قائمة لا شك فيها ، ويقوم هذا العقل على أساس ثلاث من المعرفة والإدراك والارادة ، وهى الأركان الثلاثة التى تلقى ضوءاً ساطعاً على الحقيقة^(٤) . فالمعرفة بما تنطوى عاياه من قوة لاستيعاب الماضى والتأمل فيه والإحساس بالمستقبل ، تثير مشكلة الخلود والزمن والعلاقة بين الماضى والحاضر من جهة والخلود والبقاء من جهة أخرى ؛ وهى المشكلة التى شغلت حيزاً كبيراً من فلسفة أفلاطون . أما الإدراك فيثير مشكلة أخرى رسمها أفلاطون وهى مشكلة التعلم . فهل الظاهرة العلمية التى ندعوها تعلماً حقيقة جديدة ؟ لأنها إذا كانت حقيقة فلا يمكن أن تكون جديدة ، بحكم أنها حقيقة قبل أن يعلمها أى إنسان وستظل حقيقة حتى لو نسيها كل إنسان . وقد قال القديس أوغسطين بأن الحقيقة لها صفة الخلود ، ولذلك فهى توجد وتكن فى العقل الأسمى الخالد ؛ وعندما أتعلم حقيقة

(1) Brehier : La Philosophie du Moyen Age; p. 15.

(2) Taylor : op. cit. vol. 1: p. 55.

(3) Eyre : op. cit.; p. 807.

(4) De Wulf : Hist. de la Philosophie Med.; T. 1, p. 111.

من إنسان فإن ذلك يرجع إلى وجود اتصال مباشر بين إدراكى وبين ذلك العقل الخالد . فالعلم الحقيقى هو الله^(١) ؛ والمسيح — وهو كلمة الله — معلم جميع العلوم والفنون Magister ad omnia ؛ ومعرفة العلوم الطبيعية لا تنقل عن معرفة حقائق الدين فى أنها تنير عقل الفرد .

أما الأهمية العظمى لأراء القديس أوغسطين عن الإرادة فأمر معروف . فالمذهب الإرادى Voluntarism فى الفلسفة المسيحية ، وعلاج مشكلة الشر ترجعان جميعهما إلى القديس أوغسطين . وقد قام مبدأ أوغسطين على أساس حرية الإرادة الإنسانية liberum arbitrium وعلى أساس تمسك المسيحية بقدرة الإله العليم ومحاولة التوفيق بين الله تعالى وقدرته المطلقة من ناحية وبين الشر القائم فى العالم من ناحية أخرى^(٢) . وهنا حل أوغسطين هذه المشكلة عن طريق التفرقة بين « الطبيعة » التى زود بها الله الفرد ، وإرادة هذا الفرد . فطبيعة الخلوقات كلهاهم --- حتى الشيطان --- طيبة وخيرة ، ولكن إرادتهم فقط هى التى يمكن أن تكون شريرة . وإذا كان الإنسان قد خلق مزوداً بالقدرة على اختيار الشر فإن ذلك ليس فى ذاته شراً ، لأن الإنسان الذى لا يستطيع عمل الشر مختاراً وبمحض إرادته لا يمكنه فى الوقت نفسه أن يعمل الخير مختاراً وبمحض إرادته^(٣) . ثم إن الإنسان نفسه هو الذى يختار أن يفعل الشر متعمداً ، وليس الخالق هو الذى يدفعه إلى هذا الاختيار . وعلى ذلك فإن جميع الشرور إما أن تأتى عن اختيار آثم (malum culpae) أو اضطرار آثم (malum poenae) ؛ وهذا الاضطرار لا يأتى أبداً إلا نتيجة للإثم . وهكذا وضع أوغسطين أساس مذهب القضاء والقدر Predestinationism الذى ظهر فى اللاهوت الغربى بعد ذلك ، ومذهب حرية الإرادة الذى ظهر فى الفلسفة الخلقية فى العصور التالية^(٤) .

(1) Ollson : op. cit. ; pp. 131-133.

(2) Eyre : op. cit. ; p. 809.

(3) De Wulf : op. cit. ; T. 1, p. 113.

(4) Eyre : op. cit. ; p. 809.

وخلاصة القول أن القديس أوغسطين فاق غيره من آباء الكنيسة الغربيين في تأثيره بالروح الفلسفية للأفلاطونيين ، كما فاقهم في تأثيره في العقلية الأوروبية ببقية العصور الوسطى ، حتى في الوقت الذي بلغ نفوذ فلسفة أرسطو أشده (١) .

بيوثيوس :

ثم كان أن ظهر في القرن السادس أحد كبار فلاسفة العصور الوسطى ، وهو بيوثيوس Boethius (٤٧٥ — ٥٢٤) الذي كان رومانيا انحدر من أسرة شريفة كما امتاز بسعة الاطلاع ، مما أكسبه مكانة رفيعة أوصلته إلى منصب الوزارة ، لثيودريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا . على أن ثيودريك لم يلبث أن اتهمه بالخيانة فغدر به وأعدمه في قسوة بالغة ، وعندئذ اعتبر بيوثيوس شهيدا لأن قاتله ثيودريك كان أريوسى العقيدة (٢) . وقد ألف بيوثيوس قبل إعدامه — وهو سجين في بافيا — رسالة فريدة ؛ أسلوبها مزيج من النثر والشعر أسماها « سلوى الفلسفة » ، أصبحت من أشهر الكتب في العصور الوسطى (٣) . ذلك أن شهرة هذا الكتاب غلبت على بقية مؤلفات بيوثيوس ، لاسيما الرسائل التي كتبها في اللاهوت والتي لخص فيها مبادئ الثالوث المقدس وتجسد الاقنوم الثاني (٤) .

وتتفق مبادئ بيوثيوس مع الخطوط العريضة لعلم الأخلاق الأفلاطوني واللاهوت الطبيعي . ذلك أنه استلهم العزاء من الفلسفة التي توجه إليه اللوم بسبب قبوله الوظائف التي تولاهما والتي تذكره بأن المصائب التي أخذت تترى عليه لا يمكن أن تصرفه عن الثقة بالله والإرتباط به . وبعد ذلك يثبت بأمثلة مستمدة من فلسفة أفلاطون ، أن الله أسمى قوة في الكون ، وأنه الخير المحض ، وأن عنايته الإلهية

(1) Harris : The Legacy of the Middle Ages; p. 228.

(2) Foligno : Latin Thought; p.50

(3) Cam. Med. Hist.; vol 3, p. 485.

(4) Brehier : op. cit ; pp. 10-11,

لا تسمح بأن يحل الأذى بالشخص التقي المستقيم ، وأن الألم المؤقت إنما هو ابتلاء
للأخيار وعقاب للأشرار^(١) .

هذا ، وقد أحرز كتاب بيوثيوس مكانته العظيمة نتيجة لاختصاره وبساطته
في غرض المبادئ الأفلاطونية ، بالإضافة إلى طلاوة أسلوبه وسحر بيانه . ومع
ذلك فإنه لا يمكن القول بأن بيوثيوس صاحب مذهب محدود في الفلسفة ، وإنما
جمع كثيرا من الآراء الفلسفية في كتابه السابق ، فضلا عن ترجمة بعض مؤلفات
فلاسفة اليونان إلى اللاتينية^(٢) .

الفلسفة المدرسية : Scholasticism

أخذ النشاط يعود إلى الحياة الفكرية في أوروبا عقب الفترة المظلمة التي بدأت
بغزوات البرابرة وانتهت بتتويج شارلمان إمبراطورا سنة ٨٠٠ . ويطلق اسم التفكير
المدرسي على الحياة الفكرية التي سادت أوروبا منذ ذلك الوقت حتى ظهور العلوم
الطبيعية الحديثة حوالي القرن السادس عشر ؛ بمعنى أن النظريات المتداولة طوال
هذه القرون الثمانية كانت عبارة عن الفلسفة التي تلقن في « مدارس » التعليم
العالى^(٣) . ومن أولى هذه المدارس مدرسة القصر التي أولاها شارلمان كثيرا من
رعايته ، هذا وإن كانت المدارس الديرية والأسقفية — التي سبقت الإشارة
إليها — أهم أثراً وأوسع نفوذاً . فالمدرسية لا تعنى سوى مجموعة من النظريات
المختزنة والآراء المتضاربة التي سادت الحياة الفكرية في أوروبا بين سنتي ٨٠٠، ١٦٠٠
تقريباً^(٤) . أما العامل المشترك بين هذه النظريات فلا يبدو في موضوعها بقدر
ما يبدو في الاتجاه الفكرى الذى يحدد قالب المشكلة الفلسفية .

(1) Gilaon : op. cit.; pp. 145-146.

(2) Foligno : Latin Thought; pp. 50-51 & Cam. Med. Hist.; vol. 3, p. 485.

(3) Eyre : op. cit.; pp. 810-811.

(4) Taylor : The Med. Mind; vol. 1; pp. 313-317.

والمعروف أن مفكرى العصور الوسطى اعتبروا واجبه الأول إحياء النظرة التركيبية (synthetic vision) التى نظر بها القدماء إلى العالم على أنه وحدة منظمة متجانسة . وبصرف النظر عن الترجمة اللاتينية لبعض رسائل أرسطو فى المنطق ، فإن الفصل فى إحياء النظرة السابقة يرجع إلى مؤلفات أوغسطين وبيوثيوس ، والترجمة اللاتينية لمؤلف أفلاطون « طيماوس Timaeus »^(١) . ثم كان أن غلب نفوذ الأفلاطونية الحديثة على النظرة العامة التى حاول مفكرو العصور الوسطى إلقاءها على الكون . ولم يكن ذلك إلا فى القرن الثانى عشر عندما إزداد سلطان أرسطو على الفكر الغربى ، حتى حل أخيراً محل أفلاطون فى القرن الثالث عشر^(٢) . وبالإضافة إلى ذلك فإن العصور الوسطى تقبلت النظريات المسيحية والتعاليم اللاهوتية لا سيما فيما يتعلق بالله والعلاقة بينه وبين المخلوقات . وهكذا وجد مفكرو العصور الوسطى أنفسهم أمام موقف جديد ، هو نفوذ الفلسفة الأرسطية إلى عالم الفكر إلى جانب تعاليم المسيحية ، الأمر الذى استدعى التوفيق بين الجانبين ؛ نظراً لما هناك من تعارض واضح بين قول أرسطو بقدّم العالم وقول المسيحية بالخلق^(٣) . وقد اكتسبت هذه التيارات المتباينة التفكير المدرسى خصائصه الواضحة . فالفلسفة المدرسية مهما اختلفت ميادينها كانت كلها ميتافيزيقية حاولت أن تحل المسائل المنطقية والأخلاقية والنفسية على أسس من الحقائق الثابتة . كذلك امتازت الفلسفة المدرسية بأنها عقلية ، تبدأ دائماً بالبحث عن المبادئ أو الأسس ، فإذا تم العثور على هذه المبادئ أمكن تحقيق التوافق والترابط المنطقى^(٤) .

يوحنا سكوت إريجمينا :

ومن أبرز المفكرين المدرسين فى القرن التاسع يوحنا سكوت إريجمينا

(1) Gilson : op. cit. ; p. 117.

(2) De Wulf : op. cit. ; T. 1. ; pp. 26-27.

(3) Harrle : The Legacy ; pp. 228-229.

(4) Eyre ; op. cit. 811-812.

Johannes Scotus Eriugena (ت ٨٧٧) ، الذى كان من مواليد أيرلند ، ثم تلقى تعليمه بمدرسة القصر على عهد شارل الأصلع^(١) . ويحتل حنا سكوت مكانة فريدة فى الفكر الغربى فى العصور الوسطى بوصفه آخر آباء الكنيسة من ناحية وأول المدرسين من ناحية أخرى^(٢) . ومع أنه كان مسيحيا فى عقيدته ، إلا أنه ظل من الناحية العملية يتبع مذهب الأفلاطونية الحديثة ، مما جعل الجامع الدينية المعاصرة سنة ٨٥٥ ، وسنة ٨٥٩ تأمر بإحراق كتاباته^(٣) . أما فلسفته فتقوم فى جوهرها على أساس التوفيق بين الدين والفلسفة ، لأنه لا فارق عنده بينهما ؛ ولذلك قال عبارته الشهيرة « الفلسفة الحققة هى الدين الحق ، والدين الحق هو الفلسفة الحققة »^(٤) . وقد شرح سكوت فلسفته هذه فى كتابه عن « قسمة الطبيعة *de divisione naturae* » ، أى نظام الوجود ؛ وهى دراسة بدعية فى أسلوب الأفلاطونية الحديثة يوضح فيها تدرج الحقيقة من الأقنوم الثانى الخالد إلى أبسط المخلوقات السريعة الزوال^(٥) . ذلك أنه قسم الطبيعة — وهى الحقيقة — إلى أربعة أنواع ، قسم يُخلق ولا يُخلق ، وقسم يُخلق ويُخلق ، وقسم يُخلق ولا يُخلق ، وقسم لا يُخلق ولا يُخلق . ويبدو أن آراء أريجينيا وفلسفته كانت أعمق من أن تستوعبها عقلية المعاصرين فى القرن التاسع ، فاعتبرت ضرابا من الهرطقة وأعدمت^(٦) . على أنه من الثابت أن سكوت لم يرم إلى اتجاهات هرطقية فى اللاهوت كما أنه لم يكن مستترا فى تفكيره الحر . هذا إلى أن خطه من قيمة سلطة الكنيسة بالنسبة للعقل كمصدر للمعرفة ، أمر لا يتعلق إلا بسلطة آباء الكنيسة فى تفسير الوحي ، ولم يستهدف بأى حال الخط من شأن الوحي نفسه الذى سلم به سكوت تسليما

(1) Cam. Med. Hist.; vol, 3, p. 524.

(2) Harris : The Legacy of the Middle Ages; p.229.

(3) Taylor : The Med. Mind.; vol, 1; pp. 229-230.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ، ص ٧٣ .

(5) Brehier : La Philosophie au Moyen Age; p. p. 51-52.

(6) Harris : The Legacy of the Middle Ages, p, p. 230-234.

تماماً^(١). ولكن من الواضح أن هذا التفكير يتعارض في اتجاهه مع المسيحية في عدة نواح بطريقة لا شعورية ، لأن تعظيمه للالهوت السلبى على حساب الإيجابى من شأنه أن يؤدى إلى اللادرية المطلقة نفسها التى انتهت إليها الأفلاطونية الحديثة^(٢). هذا إلى أن عدم اعترافه بأن الشر مها كان نوعه ليست له حقيقة واقعة يتناقض تماماً مع ما اتصفت به المسيحية من غيرة خلقية . وهكذا نجد فلسفة يوحنا سكوت — إذا أنعمنا النظر فيها — تنتهى الى الربط بين المذهب الطبيعى العلمى والادريه الميتافيزيقي المطلقه. ولعل أهمية هذه الفلسفة من الناحية التاريخية هى أنها توضح كيف ظلت نظرة الأفلاطونية الحديثة إلى العالم تتحور محوراً عميقاً في التفكير الفلسفى المسيحى ؛ الأمر الذى جعل يوحنا سكوت مؤسس الفلسفة المدرسية ، كما يعتبر — بحق — أباً للمذهب العقلى^(٣).

مشكلة الكليات :

وقد شهد القرن التاسع بداية نقاش فلسفى طويل نشأ من عبارة وردت في مدخل فرفيوس (*Prophyry*) إلى مقولات أرسطو عن طبيعة الكليات^(٤). وكان محور هذه المشكلة هو : هل أسماء الأنواع مثل إنسان وحصان مجرد ألفاظ لا وجود لها بالفعل ، أو أنها تعبر عن أنواع موجودة فعلاً ؟ وإذا كان لها وجود فعلى ، فهل هذه الأنواع توجد فعلاً في أفرادها (هذا الإنسان وهذا الحصان) أو أن لها وجوداً منفصلاً قائماً بذاته^(٥) ؟ وبعبارة أخرى عندما نتحدث عن الإنسانية فهل نعنى شيئاً معيناً بالذات واحداً ومشاركاً بين جميع المخلوقات البشرية ؛ أو أنه مجرد لفظ عام مطلق لا يعنى شيئاً مفرداً محدداً ؟^(٦).

(1) Cam Med. Hist.; vol. 5; pp. 786-787.

(2) Gilson : op. cit. ; p. 215-216

(3) De Wail : op. cit.; T. 1. p. 129-131.

(4) Rashed : op. cit.; vol. 1; p. 40.

(5) Eyre : op. cit.; p. 813

(6) Harris : The Legacy of the Middle Ages; p. 214.

وقد مهدت هذه المشكلة فيما بعد إلى انقسام في الرأي بين الفلاسفة . فقال الإسميون أن أسماء الأنواع ليست إلا مجرد أصوات (*mere voices*) أو أسماء مجردة لا تعنى حقائق معينة ترتبط بها ، في حين قال الحقيقيون أن هذه الأسماء تعنى حقائق معينة قائمة فعلاً^(١) . وكانت الغلبة في القرن التاسع للرأى الأخير « الحقيقي » ، فقال أصحاب هذا الرأي أن الأنواع والأجناس التي تقسم إليها محتويات الكون في أذهاننا ليست تقسيمات من صنع العقل البشرى ، وإنما الله هو الذي وضع هذه التقسيمات وفق طبيعة الأشياء ؛ وعلى ذلك فهي تدل على حقائق ثابتة تكمن خلف كل منها^(٢) .

القرن العاشر — البابا سلفستر الثاني :

اتصف القرن العاشر بضعف الحياة الفكرية نتيجة لاضطراب أحوال أوروبا السياسية . وكان من أبرز مفكرى هذا القرن البابا سلفستر الثاني (٩٩٩—١٠٠٣) . الذى أسماه بعض المعاصرين « البابا الفيلسوف »^(٣) . والواقع أنه لم يكن فيلسوفاً كبيراً ، ولم يعلن رأيه بصراحة في أهم مشا كل العصر الفلسفية وهى مشكلة الكليات ؛ ولكنه مع ذلك كان رجلاً مستنيراً مجدداً . وخير ما يدل على انحطاط المستوى الفكرى فى ذلك العصر هو أن معرفة ذلك البابا بعلوم المجموعة الرابعة من الفنون الحرة (وهى الحساب والهندسة والموسيقى والفلك) أدت إلى إتهامه بالسحر والشعوذة^(٤) .

القرن الحادى عشر .

أما القرن الحادى عشر . فكان عصر نشاط فكري كبير توجه أحد كبار

(1) De Wulf; op. cit; T. 1; p. p. 93-94.

(2) Idem; p. 99.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 3; p. 516.

(4) Taylor; op. cit. vol. 1; p. p. 283-286.

(م ١١ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

فلاسفة العصور الوسطى - وهو القديس أنسلم^(١) . وإلى هذا العصر ترجع نشأة الرغبة في الجدل المنطقي ، الصوري العديم الجدوى ؛ الذي ينسب إلى المدرسين بوجه عام .

وأول مثل لدينا للمهتمين بهذا النوع من الجدل الصوري هو برنجاريوس التوري (ت ١٠٠٨) Berengarius of Tours الذي اهتم بمعالجة الدين بالجدل ؛ فأفكر مبدأ التجسد والاستحالة على أساس أن العرض لا يمكن أن يقوم في غياب الذات^(٢) . فإذا كان العرض ملازماً للذات فإنه فيما يتعلق بالقربان الأقدس ظلت ذات الخبز باقية تنضاف إليها صورة جسد السيد المسيح ؛ ومثل ذلك يقال في الخمر بالإضافة إلى دم المسيح ، لأن ذات الخبز والخمر تبقيان بعد التكريس^(٣) . ومن الطبيعي أن مثل هذه الآراء لا بد أن يكون لها رد فعل قوى عند رجال اللاهوت الذين ردوا عليها بأن الأعراض قد تبقى مفارقة للذات بالقدرة الإلهية . كذلك رد القديس بطرس داميان St. Peter Damian (١٠٠٧ - ١٠٧٢) مطالباً بعدم تطبيق أساليب العلم البشري ومناهجها على الكتاب المقدس وما يشمله من آراء دينية^(٤) .

المذهب الإسمي - روسلينوس :

احتل المذهب الإسمي في المنطق مكانة بارزة في التفكير الفلسفي في القرن الحادي عشر ؛ وكان أبرز المفكرين الذين ناصرُوا هذا المذهب حينئذ روسلينوس Roscellinus (١٠٥٠ - ١١٢٠) الذي يحتل مكانة هامة عند بداية هذا الدور الكبير من أدوار الفلسفة المدرسية ، فضلاً عن أنه حدد نقطة البدء لما يمكن أن

(1) Cam. Med. Hist.; vol 5.; p. 793.

(2) Eyre : op. cit.; p. 814.

(3) Gilson : op. cit.; p. 234.

(4) Eyre : op. cit.; p. 815.

نسميه « اللاهوت المدرسي »^(١) .

ويبنى الاسميون رأيهم على أساس مبدأ أرسطو الخالص بأن الحقيقة الكاملة تتمثل في الجزئيات ، وأن الكليات ليست إلا ألفاظا وكلمات لا تعنى شيئا . فلا يمكن أن نتصور إنسانية دون أن نعنى إنسانا معينا ولا بياضا دون أن نعنى شيئا أبيض ، ولا حكمة دون أن نعنى نفسا معينة حكيمة^(٢) . وهنا جاء روسلينوس ليطبق هذا المبدأ الإسمي على اللاهوت في تفسير عقيدة الثالوث المقدس ، فقال : كما أن الأفراد — وهى الجزئيات — موجودة فى أنواع المخلوقات (الأنواع هى الكليات) ؛ فإن الأقانيم هى الموجودة فى الله . فالله فيه من الجواهر بقدر ما فيه من الأقانيم « بحيث نستطيع القول بثلاثة آلهة لو أن العرف يسمح بذلك »^(٣) .

ولذلك اتهم مجمع سواسون الدينى روسلينوس بالهرطقة سنة ١٠٥٣ وأدانته بتهمة القول بثلاثة آلهة Tritheism .

الفرس أنسلم :

أما القديس أنسلم فكان أبرز شخصية بين مفكرى القرن الحادى عشر . ذلك أن مذهبه قام على أساس من الجمع بين العقل والإيمان (la raison et la foi) أو تعقل الإيمان . ويبدو أن أنسلم رأى أن يحارب الآراء الهرطقية بنفس أسلحتها ، فعمل على استغلال الفلسفة لشرح عقائد المسيحية ، والربط بين مختلف أطراف تراث الكنيسة الغربية^(٤) .

والواقع أنه بنى فلسفته على أساس التراث الفكرى للقديس أوغسطين وأفلاطون ؛ بل إنه أعلن فى مقدمة كتابه « مناجاة النفس » أنه تلميذ أوغسطين وأنه يسير

(1) Rashdall : op. cit ; vol. 1 ; p. 41.

(2) De Wulf ; op. cit. ; Tome 1 ; p. p. 103-104.

(3) Brehier : op. cit. ; p. 131.

(4) Harris : The Legacy, p. 235.

وفق آرائه . وكان يرى أن الخطوة الأولى التي على المفكر المسيحي أن يخطوها هي الإيمان ، لأن الإيمان شرط التعقل ، وعلى ذلك لا ينبغي أن يخضع الإيمان للعقل ؛ وإنما للعقل هو الذي يجب أن يخضع للإيمان Credo ut intelligam^(١) .

على أن أهم ما أسهم به أنسلم في بناء المدرسية الأوغسطينية هي الأدلة التي ساقها على وجود الله^(٢) . حقيقة إن هذه الأدلة التي أتى بها أنسلم هي أدلة القديس أوغسطين نفسها ، ولكن أنسلم صورها في صورة أكثر دقة ، فأقامها على أساس نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تقول بأن الوجود عبارة عن سلم مسلسل منتظم ؛ وكل ما تمثل من كمال في درجة من درجات هذا السلم فهو مستبعد من مشاركته في مطابق ذلك البكمال^(٣) . ثم حاول أنسلم أن يثبت وجود الله بأدلة مأخوذة من نواحي ثلاث ، تتشابه فيها الأشياء ولكن تشابهها يتفاوت عما يؤدي بنا إلى علة أولى . أما هذه النواحي فهي الصفات مثل الجمال والعلم ، ثم الماهية التي تتفاوت فيها الأشياء أيضا فالنبات أرقى من الجماد والحيوان أرقى من النبات والإنسان أرقى من الحيوان ؛ وأخيرا الوجود الذي يتبع التفاوت فيه التفاوت في الماهية ، فليس وجود الإنسان كوجود الحيوان مثلا^(٤) .

أما نصيب أنسلم الشخصي الذي أسهم به في التفكير الفلسفي دون أن يستمد من غيره ، فهو الدليل الوجودي (ontologique) . ويقوم هذا الدليل على أساس أن إنكار أي شخص لوجود الله ليس إلا إعترافا منه بوجود شيء عظيم في ذهنه يستحق الإنكار^(٥) . وهذا الشيء العظيم الذي لا يمكن تصور أعظم منه في العقل ، لا بد أن يكون موجودا في الواقع لأن ما لا يتصور أعظم

(1) Gilson: op. cit.; p. 241.

(2) B ehler: op. cit.; p. 122

(3) Gilson : op. cit . p. 243

(4) Eyre : op. cit.; p. 816,

(5) De Wulf : Tome I; p. p. 115 - 117,

منه لا يمكن أن يوجد في العقل فقط ، لأنه في هذه الحالة يصبغ في الإستباطة تصور موجودا مثلاً، متحققاً في الواقع ومن ثم يكون أعظم منه . وعلى ذلك فإن الإنسان يناقض نفسه إذا قال بأن الله تعالى — وهو كائن لا يمكن تصور أعظم منه — غير موجود ؛ وبعبارة أخرى فإن الله لا بد أن يكون موجوداً فعلاً^(١) .

وقد أعترض أحد المعاصرين — وهو جونيلاو gaunilo — الراهب بدير مارموتية Marmontiers على رأى أنسلم ، فقال بأن الله تعالى ليس موضوع إدراك مباشر ، وهو يختلف عن الموجودات التي تقصد بها أشياء معينة نراها أو نتصور صورتها . وعلى ذلك لا يجوز أن نتخذ تعريف اسم الله مقدمة للتدليل على وجوده^(٢) . ولكن أنسلم رد على هذا المعترض قائلاً « أرجع إلى إيمانك وعندئذ تدرك أنك تعقل الله على أنه الموجود الذي لا يتصور أعظم منه » . وهكذا نعود فنقول إن الإيمان هو أساس التعقل في فلسفة أنسلم^(٣) .

الفرد الثاني عشر : مدرسة شارتر

أما القرن الثاني عشر فقد شهد في غرب أوروبا نشاطاً فكرياً غزيراً ، يرجع الفضل في جزء كبير منه إلى مدرسة شارتر بفرنسا . وقد ظهر طابع الفلسفة الأفلاطونية في هذه المدرسة في مؤلفات تييرى رئيس مدرسة شارتر (١١٥٤) الذى شرح سفر التسكوين في ضوء المعانى الأفلاطونية التي وردت في محاورة طيلماوس^(٤) .

على أن بطرس أبيلار Pierre Abelard (١٠٧٩ — ١١٤٢) كان بدون شك أشهر رجال الجدل في القرن الثاني عشر وألمع معلمي عصره ، بحيث أنه

(1) Taylor : op. cit., vol. 1 ; p. 279.

(2) Ibid.

(3) Brehier : op. cit. ; p. p. 124 - 125.

(4) Gilson : op. cit. ; p. p. 268 - 272.

ترك — عن طريق تلاميذه — أثراً غنياً في الدراسات الفلسفية واللاهوتية بقية العصور الوسطى ، فضلاً عن أن تطور اللاهوت المدرسي بلغ ذروته على يديه^(١). والواقع أنه لم يكن — كما دعاه البعض — أباً للفلسفة المدرسية ، إذ ربما كان القديس أنسلم — إن لم يكن يوحنا سكوت أريجيناً — أحق بهذا اللقب ؛ ولكن كتابه « نعم ولا Sic et Non » يعتبر نموذجاً احتذاء من خلفه من اللاهوتيين والفلاسفة ، فاستخدموا الجدل في دحض آراء المعارضين^(٢). ويعرض أيبيلار في هذا الكتاب نحواً من مائة وخمسين مسألة لاهوتية ، يبحثها بطريقة جدلية أكثر منها موضوعية ، معتمداً في هذا البحث على أدلة فلسفية ، ولكن دون أن يجرؤ على أن يقطع فيها برأى حاسم^(٣). أما مسألة الكليات فقد اتخذ فيها رأياً وسطاً عندما قال إن الألفاظ كلية لأننا نقصد بهادلالة كلية؛ ولكن للأشياء والأجناس مقابل في الخارج وهذا المقابل هو « طبيعة الجزئي » مجردة من الأعراض ، مع تشابه الطبيعة في الجزئيات الحاصلة عليها . فالأشياء والأجناس ذاتية في الجزئيات مجردة في العقل^(٤). وفيما عدا ذلك ، فإن أهم ما أسهم به أيبيلار جاء في ميدان الأخلاق ، إذ وضع كتاب « اعرف نفسك » الغرض منه كشف الأخلاق المسيحية بالعقل عن طريق حوار بين فيلسوف ومسيحي . وبفضل هذا الكتاب اعتبر أيبيلار مؤسس علم الأخلاق في العصور الوسطى^(٥).

أما حنا سالسبورى (١١١٠ — ١١٨٠) فكانت فلسفته عمالية معتدلة ، تقوم على أساس فلسفة شيشيرون . وقد أخذ حنا سالسبورى عن شيشيرون الشك المعتدل القائم على التمييز بين ما يعلم وما لا يعلم^(٦). ومن مؤلفاته كتاب « مذاهب الفلاسفة »

(1) Rashdall : op. cit.; vol. 1; p. 43.

(2) Cam. Med. Hist.; vol 5; p. 799.

(3) Harris : The Legacy; p. 236.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ص ١٠٥ .

(5) De Wulf : op. cit.; T. 1; p. 155.

(6) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. p. 806 - 807.

الذى يصور المدارس الفلسفية فى عصره بعد أن يعرض لتاريخ الفلسفة عند اليونان والرومان ؛ وكتاب آخر فى المنطق ، وثالث فى السياسة ونظم الحكم (Polieraticus) (١) .

وإلى جانب القسط الكبير الذى أسهم به الفلاسفة السابقون وغيرهم فى علاج المسائل اللاهوتية ، وجد جماعة آخر من المفكرين غلب عليهم الطابع اللاهوتى فى تفكيرهم ، حتى أننا نعتبرهم لاهوتيين أكثر منهم فلاسفة . والواقع أن العلاقة بين الفلسفة واللاهوت بدت فى ذلك العصر أشد ما تكون وضوحا ، بعد أن أصبحت مدارس اللاهوت لا تتأثر بالمشاكل الفلسفية فحسب ، بل أيضا بأساليب الفلسفة وطريقتها فى التفكير (٢) . وعلى رأس هؤلاء اللاهوتيين كان القديس برنارد (١٠٩١ — ١١٥٣) الذى أعلن أن الفلسفة الوحيدة التى يصح أن يشتغل بها المفكر المسيحى هى « معرفة المسيح المصلوب » . على أن القديس برنارد لم يتطرق فى مهاجمة الفلاسفة والجدليين ، كما فعل غيره من رجال الدين المزمئين ، وإنما كان معتدلا فى موقفه منهم ، وبذلك ترك أثرا عميقا فى التصوف النظرى (٣) .

أما هيو — أستاذ دير سانت فكتور (١٠٩٦ — ١١٤١) — فكان أقوى منه أثرا فى فلسفة التصوف . وقد أقام هيو فلسفته فى التصوف على أساس نظرية المعرفة ، فقسم المعرفة الإنسانية إلى ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى معرفة العالم المحسوس بالحواس والخيال والتجريد ويسمىها عين الجسم (oculus carnis) ، والدرجة الثانية معرفة النفس لذاتها ويسمىها عين العقل (oculus rationis) ، والدرجة الثالثة معرفة الله ويسمىها عين المشاهدة (oculus contemplationis) (٤) .

(1) Gilson : op. cit. ; p. p. 274 - 277.

(2) Rashdall : op. cit. ; vol. 1; p. 44.

(3) Eyre : op. cit. ; p. 819.

(4) Brehier : op. cit. ; p. 189

والقرن الثالث عشر — ازدهار الفقه المدرسية :

يعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبي للفلسفة المدرسية والدراسات اللاهوتية جميعاً في العصور الوسطى . ذلك أنه ظهرت حقائق أدت إلى تغيير وجه الحياة العلمية في القرن الثالث عشر ، أهمها إحياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية ، وقيام الجامعات الأوروبية وبخاصة جامعة باريس ، ثم اتصال الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية (الإسلامية واليونانية والإسرائيلية^(١)) .

أما إحياء تراث أرسطو الفيلسوف ، فيلاحظ أن العالم المسيحي الغربي لم يعرف في الشطر الأول من العصور الوسطى شيئاً من أبحاث أرسطو عدا منطقه الصوري . ولعل عدم الإهتمام بالطبيعة ، الذي بدا واضحاً من المفكرين الغربيين مثل القديس أنسلم ، ليس مرجعه استغراقهم في اللاهوت فحسب ، بل جهل هؤلاء المفكرين بالدراسات القديمة التي توضح لهم أهمية الميدان الطبيعي المحسوس كحقل خصب للتفكير والاستقصاء^(٢) . على أنه في الوقت الذي كان نصيب الدراسات الأرسطية في غرب أوروبا الإهمال والنسيان ، إذا بهذه الدراسات تحظى بتشجيع مفكرى المسلمين وعنايتهم ، وهم الذين توصلوا إلى مؤلفات أرسطو عن طريق ترجمتها عن السريانية^(٣) . وهكذا ظهرت دراسات أرسطية إسلامية ، يشوبها كثير من عناصر الأفلاطونية الحديثة ، وتزعم هذه الدراسات عدد كبير من فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) في المشرق وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٣) في الأندلس ؛ كما أسهم في هذه الحركة بعض اليهود مثق موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤)^(٤) . وسرعان ما وقفت أوروبا على

(1) De Wulf : op. cit, T. I; p. 221.

(2) Eyre : op cit ; p. 820.

(3) Cam. Med. Hist ; vol. 5; p. 811.

(4) Taylor : op cit.; vol. 2 ; p. 420.

الدراسات العربية — وبالتالي الأرسطية — نتيجة للإتصالات بين المسلمين والمسيحيين في عصر الحروب الصليبية ، فاشتدت حركة الترجمة عن العربية إلى اللاتينية ، وعن طريق هذه الحركة — فضلاً عن الترجمة عن اليونانية مباشرة — تعرف غرب أوروبا على دراسات أرسطو الذي عدّ الغرب أن الطبيعة المحسوسة تقدم حقلاً أوسع من اللاهوت غير المحسوس^(١) .

على أن الأرسطية — كما بدت في شروح ابن سينا وابن رشد — اتخذت صورة يمكن تسميتها وحدة الطبيعة أو الوجود ، وهي صورة لم تترك سوى مجال ضيق لتعاليم المسيحية الخاصة بوجود الله والخلق والحياة الأخرى والحساب . وهكذا أصبحت المشكلة الكبرى أمام مفكرى القرن الثالث عشر في غرب أوروبا هي هل يجوز تدريس هذه العلوم الفلسفية والآراء الجديدة جنباً إلى جنب مع الدراسات اللاهوتية في معهد واحد^(٢) ؟ ولم تلبث هذه المشكلة أن تبلورت في جامعة باريس ، تلك الجامعة التي حظيت برعاية البابا انوسنت الثالث لتكون مركزاً عالمياً لتدريب رجال الدين وتعليمهم . وهنا أثار الإشكال السابق عدداً كبيراً من الصعوبات ، فهل يجوز تدريس الميتافيزيقا والعلوم الفلسفية في الجامعة إطلاقاً^(٣) ، وإذا جاز ذلك فهل تستقل كلية الآداب بتدريس هذه الدراسات أم يتم ذلك التدريس تحت إشراف رجال اللاهوت ؟ وأخيراً هل يجوز لرجال المنظمات الدينية الكبرى في القرن الثالث عشر — وهما منظمة الدومينيكان ومنظمة الفرانسيسكان — أن يقوموا بالتدريس في الجامعات^(٤) ؟

وهنا نجد — فيما يتعلق بجامعة باريس بالذات — ، أن صبغتها الكنسية

(1) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century; p. p. 287 — 293.

(2) Eyre : op. cit; p. p. 820 - 821.

(3) Cam. Med. Hist; vol. 5; p. p. 817 - 818.

(4) Eyre : op. cit ; pp. 820-821.

الأولى وعلاقتها بالبابوية ، جعلتها تخضع — إلى درجة ما — لكلمة البابوية التي افزعته آراء أرسطو والشروح التي وضعها فلاسفة المسلمين لهذه الآراء ، فأصدر مجمع باريس الكنسي سنة ١٢١٠ قراراً بتحريم كتابات أرسطو وشروحها^(١) . وقد تقرر هذا التحريم بعد ذلك عدة مرات ، ولكنه لم يجد في منع الأحرار من المفكرين عن دراسة كتب أرسطو ، فأخذت هذه الكتب تنشر في فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، فضلاً عن أسبانيا ؛ حتى سمح البابا أوربان الخامس سنة ١٤١٦ بأن يمتحن طلاب ليسانس الآداب في جميع كتب أرسطو دون استثناء . أما الصراع العنيف بين رجال المنظمات الدينية والأساتذة العلمانيين حول الاستثناء بالتدريس في الجامعة (جامعة باريس) ، فقد انتهى بانتصار الفريق الأول ، حتى أننا نجد أبرز أساتذة القرن الثالث عشر — مثل بوناغيتورا وروجر بيكون والقديس توما ودونس سكوت — ينتمون جميعاً إما إلى جماعة الفرانسيسكان أو الدومينيكان^(٢) .

والواقع ، أنه إذا نظرنا إلى النشاط الفلسفي في القرن الثالث عشر فإنه يمكننا التمييز بين أربعة تيارات اختلف بعضها عن بعض في مسالكها تجاه الأرسطية . فهناك أولاً أقلية من الرشديين أبرزهم سيجر البرابنتي ، وهم الذين قبلوا تعاليم أرسطو كما صورها العرب وشرحوها دون تحفظ ؛ وبعد ذلك يأتي فريق الأوغسطينيين الذين تشبعوا بأكثر قدر ممكن من الأرسطية مع التمسك بتعاليم أوغسطين وآرائه ومن ورأى الفلاسفة الأفلاطونية . وأبرز مفكري هذا الفريق القديس بوناغيتورا ؛ ثم يأتي ثالثاً فريق من المفكرين ظهر في أكسفورد من الأوغسطينيين الفرانسيسكان ، وهؤلاء لم يعطوا الميافيزيقا قدراً من عنايتهم مثلما أعطوا العلوم الطبيعية التجريبية والرياضيات ، وعلى رأس هذا الفريق يأتي

(1) Rashdall : op. cit. ; p. 356.

(2) De Wulf ; op. cit. Tome I, p. p. 236 - 237.

وأنقل كذلك كتاب (الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى المؤلف) .

روجر بيكون . وأخيراً يأتي فريق الأرسطيين الدومينيكان ، وهم الذين تمسكوا بفلسفة أرسطو الأصلية واتخذوها أساساً لتعاليمهم وهاجموا آراء الشراح والمفسرين الذين شرحوا هذه الفلسفة وفسروها . وأبرز مفكرى هذا الفريق القديس توما الأكويني^(١) . وسنتناول كل فريق من هذه المذاهب الأربعة بكلمة قصيرة :

(١) أما الرشديون الذين تزعمهم سيجر البرابنتى (١٢٣٥ - ١٢٨٤) في القرن الثالث عشر، فكانوا يرون في تعاليم أرسطو — كما شرحها ابن رشد — علماً قائماً بذاته وفناً مثالياً يجب أن يدرس كما هو ، دون مراعاة لما بينه وبين الدين من خلاف . وهكذا يبدو أن هؤلاء الرشديين اعتمدوا على شروح ابن رشد واعتبروها خير صورة لفلسفة أرسطو ، وبذلك أثاروا حركة عرفت بالرشدية اللاتينية^(٢) . وكان سيجر زعيم هذه الطائفة يتصور العلاقة بين الإيمان والعقل تصوراً خاصاً جديداً ، إذ أنه لم يضعهما في مستوى واحد حتى يختار بينهما ، ولكنه حول التعارض بين العقل والإيمان إلى تمايز بين نظام طبيعى منسوخ ونظام فائق للطبيعة ناسخ^(٣) . ذلك أنه قال ان الإيمان يكشف لنا عن نظام فائق للطبيعة أراد الله لنا وأعلنه علينا ، فنحن نتقبله إلى جانب ما يعقله العقل . أما العقل الطبيعى فلا يعام سوى النظام الطبيعى الذى من الممكن أن يكون حقاً لو لم يستبدل به الله النظام الفائق للطبيعة^(٤) . ثم يقول انه إذا أعان الوحي أموراً لا تستنبط بالأدلة الطبيعية فليس للفلسفة أن تعرض للمعجزات وإنما للطبيعات تبيحها بحثاً طبيعياً . وهكذا جاءت آراء سيجر خطراً على الجهود التى بذلها المدرسيون للتوفيق بين العقل والدين^(٥) .

(١) Eyre : op. cit. ; p. p 821 - 822.

(٢) Brehier : op. cit. ; p. 336.

(٣) Cam. Med. Hist; vol. 5; p. 821.

(٤) De Wulf : op. cit. ; T. 2; p. p. 95 - 99.

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ٢٠٩ - ٢١١ .

(ب) وأما الأوغسطينيون فقد تمسكوا بآراء القديس أوغسطين وبفلسفة أفلاطون من خلفها. ويبدو الفارق واضحاً بين آراء هذا الفريق وفلسفة اللومينكان في أربعة نواحي؛ أولاً في نظرية المعرفة إذ يقول الأوغسطينيون بأن للنفس عقليين: عقل أدنى تتجه به نحو المحسوسات وعقل أعلى تتجه به نحو ذاتها ونحو الله، وثانياً قول الأوغسطينيين بأن المخلوق يتركب من هيولى وصورة، وثالثاً قولهم بأن المخلوق من صور متعددة بتعدد الكمالات، ورابعاً إصرار الأوغسطينيين على علاقة الروح بالجدس^(١).

وكانت نظرة القديس بونا فنتورا St. Bonaventura (١٢٢١ — ١٢٧٤) زعيم الأوغسطينيين إلى الفلسفة تتفق مع نظرة القديس أوغسطين؛ إذ كان يرى أن الإنسان خلق ليعرف الله ويحبه ويجد سعاده في هذا الطريق — طريق الله. وهكذا اعتبر مهمة الفلسفة مقتصره على معاونه اللاهوت، لأن الفلسفة الحققة تدور حول الله، في حين يجب أن يتجه اللاهوت إتجاهاً صوفياً نبجاً. وقد صنف بونا فنتورا مؤلفات عديدة في الفلسفة واللاهوت والتصوف، تدور موضوعاتها حول شرح آرائه السابقة، والتي يعتبر أهمها نظريته في المعرفة ووجود عقليين للنفس^(٢).

(ج) وأما فرانسكان اكسفورد Oxford Franciscan فقد وجهوا اهتمامهم نحو الرياضيات والعلوم الطبيعية، وبذلك أدوا إلى أوروبا خدمة جليلة، إذ ترتب على أنجائهم وجهودهم مولد العلوم الطبيعية الحديثة^(٣). وأبرز فلاسفة هذا الفريق هما جروستست Grossetest (١١٧٥ — ١٢٥٣) ثم تليذه روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٠ — ١٢٩٢). وكان جروستست أستاذاً

(1) Eyre : op. cit., p. 823.

(2) Gllson : op. cit., p. 439 - 451.

(3) Eyre : op. cit., p. 826.

بجامعة اكسفورد ثم مديراً لها ، كما ترجم وشرح وألف كثيرا من الكتب^(١) .
أما مذهبه فكان أقرب إلى آراء للقديس أوغسطين ، ولكنه في الناحية العلمية
اتجه اتجاهها تجريبيا فاستخدم الأسلوب الرياضي في التدليل ، واعتقد أن الرياضيات
وحدها تفسر الظواهر الطبيعية . ويبدو أن جروستست أخذ هذا الاتجاه عن العالم
المعرب الحسن بن الهيثم الذي كان كتابه « المناظر » بمثابة الدستور العلمي
لأساتذة اكسفورد^(٢) .

أما روجر بيكون فكان أوغسطينيا أيضا ، جعل للاهوت المقام الأول ،
وميز بين الدين والعلم في تفكيره وكتاباتة . ويبدو أن بيكون استفاد كثيرا من
المؤلفات الإسلامية وبخاصة مؤلفات ابن سينا والحسن بن الهيثم . على أن أهم
ما أخذه بيكون عن علماء المسلمين كان الاهتمام بالمنهج التجريبي في البحث ،
والإيمان بأهمية هذا المنهج ؛ حتى أنه قسم وسائل المعرفة إلى ثلاث هي النقل
والاستدلال والتجربة (Per auctoritatem et rationem et experientiam)
وقال إن النقل والاستدلال لا يؤديان إلى معرفة حقه ما لم تثبت التجربة صحة
ما يأتیان به^(٣) . أما فوائد التجربة فهي تأكيد النتائج التي نصل إليها بالاستدلال ،
كما تؤدي التجربة إلى حقائق جديدة توصلنا إلى علم جديد قائم بذاته هو العلم
التجريبي scientia experimentalis الذي يمكننا من السيطرة على الطبيعة^(٤) . وإذا
كان روجر بيكون هو أول من استخدم اصطلاح « العلم التجريبي » السابق ، فإنه
يوضح لنا أن التجارب العلمية التي يعتمد عليها ذلك العلم تمتاز بأعمادها على الأجهزة
والآلات المختلفة^(٥) .

(1) Taylor : op. cit.; vol 2 ; p. p 146 - 147.

(2) Brehler : op. Cit. ; p p 272 - 277.

(3) De Wulf : op. cit.; Tome 2 ; p p 134 - 135.

(4) Cam. Med. Hist ; vol. 2; p.p. 825 - 826.

(5) Eyre : op. cit.; p. 827.

(د) وأخيرا يأتي فريق الأرسطيين الدومنيكان الذين عملوا على إقامة دعائم فلسفة متسقة تقوم على أساس التعاليم الأرسطية ، ولكنها تتفق مع أحكام الدين والعقيدة^(١) . وقد قام اثنان من فلاسفة هذا الفريق بإقامة ذلك البناء الفلسفي ، هما ألبرت الكبير (١٢٠٦-١٢٨٠) وتلميذه القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) . وهكذا يمكن القول بأن ألبرت وتوما قد نصّرا تعاليم أرسطو ؛ مع ملاحظة أن الفضل يرجع إليهما في التفرقة لأول مرة بشكل واضح بين الفلسفة واللاهوت . فمن الممكن أن تكون من أتباعهما في الفلسفة دون أن تكون مسيحيا ؛ كما أنه من الممكن أن تكون مسيحيا مثلهما دون أن تتبعهما في آرائهما الفلسفية . وعن طريق هذه التفرقة قدم هذان الفيلسوفان خدمة جليلة للباحث العلمي إذ أعطياه براءة تحرره من سيطرة اللاهوت عليه وتحكمه فيه . و بذلك أصبح للباحث حريه تامة في التنقل خلال أرجاء العالم الطبيعي دون أن تكون للسلطة الدينية حق التدخل في عمله^(٢) .

ألبرت الكبير :

أما ألبرت الكبير فأهم ما يميز فلسفته ظاهرة الإصرار على التفرقة بين الفلسفة واللاهوت — وهي التفرقة التي تعتبر بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الغربي، لأنها جاءت في الواقع تمييزاً بين دعاوى ينهض عليها الدليل ويوجد ما يثبتها علمياً ودعاوى أخرى لا تسندها أدلة واضحة سوى « هكذا ورد في الكتاب المقدس » أو « هكذا قال آباء الكنيسة »^(٣) .

وليس معنى ذلك أن ألبرت حاول أن يقلل من شأن اللاهوت . فقد كان قديسا وراهبا في منظمة الدومنيكان ، ثم أستاذا اللاهوت في جامعة باريس ؛ وأخيرا

(1) Taylor: op. cit. ; p. ; vol. 2; p. 452.

(2) Olson : op. cit.; p. 503.

(3) Eyre : op. cit, p.p, 828 - 829.

أسقفا على كولونيا ، كما ألف كثيرا من التصانيف اللاهوتية والفلسفية والعلمية ورجع إلى الأفلاطونية كما رجع إلى الأرسطية^(١) . ولكنه عرف الأرسطية على حقيقتها ، وعرضها على معاصريه عرضا غير مغرض ، فقال ان أرسطو هو المصدر الأول في معرفتنا للطبيعيات لأنه عرف الطبيعة أكثر من غيره ؛ وبذلك استطاع ألبرت أن يقدم فلسفة أرسطو -- لأول مرة -- في ثوب مسيحي^(٢) . وهنا يتالك ألبرت شجاعته فيصرح بأن مبادئ اللاهوت لا تتفق مع الفلسفة لأن الأول يقوم على الوحي في حين تقوم الفلسفة على العقل ؛ ولكنه مع ذلك يوصى باستخدام الفلسفة في اللاهوت لحل مشاكله^(٣) . على أنه يؤخذ عليه أنه لم ينته في آرائه إلى مذهب مستقل مترابط ، وأنه استوعب المذاهب الفلسفية السابقة دون أن يخرج منها برأى خاص ، الأمر الذي جعل تلاميذه ينقسمون من بعده إلى فريقين فريق سار في ركاب الأفلاطونية الحديثة وفريق سار في ركاب الأرسطية^(٤) ؛ والفريق الأخير أقوى أثرا وأشد ظهورا وكان على رأسه توما الأكويني صاحب أروع المذاهب العقلية في العصور الوسطى .

الفريسي توما الاكوييني :

أما توما الاكوييني (١٢٢٥ — ١٢٧٤) فكان هو الآخر من الرهبان الدومينكان ، تتلمذ على ألبرت الكبير ثم صار أستاذا بجامعة باريس . وقد دون كثيرا من الشروح والمؤلفات الفلسفية ، حاول فيها أن يقدم فلسفة أرسطو إلى معاصريه في صورة بريقة مغرية الأمر الذي أوقعه في صراع مع الأوغسطينيين من ناحية ومع الرشديين من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ أن توما الاكوييني اعتمد

(1) Cam. Med. Hist. ; vol. 5 ; p. 824.

(2) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسط ص ١٦١ — ١٦٨ .

(3) Brehier : op. cit. ; p. 300.

(4) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٦١ — ١٦٨ .

في آرائه الفلسفية الخالصة على طريقة ابن رشد في شرح فلسفة أرسطو ، في حين ألف في الجانب اللاهوتي عدة مؤلفات بلغت شأواً بعيداً في مهارة البناء وسمو الصياغة والطريقة^(١) .

وقد امتازت فلسفته بالترفة الواضحة بين العلم واللاهوت فقال ان الفلسفة لا يمكن أن تقدم أدلة قاطعة لإثبات مبادئ المسيحية لأن العقل البشري يتقبل هذه المبادئ لا اعتقاده فقط أنها من لدن الله ؛ وأقصى ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو تنفيذ مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين في الدين^(٢) . على أن ثمة عنصراً مشتركاً بين الفلسفة واللاهوت هو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التي تسندها السلطة المقدسة دون أن يقيم الأدلة الفلسفية على وجود الله وما هيته وقدرته^(٣) . وهنا يسوق القديس توما خمسة أدلة على وجود الله ، مستمداً منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص : وأول هذه الأدلة فكرة المحرك الذي لا يتحرك فكل ما يتحرك يحركه شيء سواء ، ولما كان التسلسل اللانهائي مستحيلاً ، فإننا سنصل في النهاية إلى شيء يحرك بقيه الأشياء دون أن يتحرك هو ، وهذا الشيء هو الله . والدليل الثاني يقوم على أساس العلة الأولى ، إذ لا يمكن أن تكون جميع الموجودات فاعلة لنفسها ، بل لا بد أن يكون لكل شيء علة أوجدته ؛ ولما كان التسلسل اللانهائي مستحيلاً فلا بد من وجود علة خالقة أولى هي الله^(٤) . أما الدليل الثالث فهو ضرورة وجود مصدر أساسي لكل الموجودات هو الله ؛ وواضح أن هذا الدليل يكاد يكون الدليل نفسه السابق له . ويعتمد الدليل الرابع على تفاوت الموجودات في الصفات والكمالات ، والتفاوت لا يأتي

(١) Rahhadall : op. cit. ; vol. 1; p. 365

(٢) Eyre : op. cit. ; p. 880.

(٣) De Wulf : op. cit. ; Tome 2, p. 13.

(٤) Olsson: op. cit.; p. 531.

إلا نتيجة للإضافة إلى ما هو غاية في صفة معينة ، وعلى ذلك لا بد من وجود شيء .
تام الكمال هو غاية الكمالات التي تصدر كلها عنه ، وهذا الشيء هو الله . وأخيراً
يعتمد الدليل الخامس على أن كل الموجودات — حتى التي لا حياة فيها — تعمل
لتحقيق غاية معينة ، مما يدل على أنها لا تعمل عرضاً بل قصداً مدفوعة بقوة كائن
سواها خارج عنها ؛ وهذه القوة هي قوة الله ^(١) .

ومن الواضح أن الأدلة السابقة تقوم على أساس الوصول إلى علة الموجودات
الطبيعية ، لأن القديس توما يرى أن الإيمان يتوقف على معرفة الطبيعة ، الأمر
الذي استوجب إطلاق اسم « اللاهوت الطبيعي » Natural Theology على هذا
القسم من فلسفته ^(٢) . وبعد ذلك يتعرض القديس توما لماهية الله تعالى فيرى أن
الله جوهر نفسه لأنه كائن غير مركب لا فرق فيه بين جوهر ووجود ، وهو كامل
من جميع النواحي ، والأشياء التي تشبهه في بعض النواحي لا تشبهه في البعض
الأخر ؛ وهو إرادة وإرادته هي جوهره ؛ ويمتاز الله بالقدره والعناية والعقل والفضائل
التأملية والعملية جميعاً ^(٣) . ثم يتناول القديس توما مشكلة الخلق والعلاقة بين
الخالق والخلق ، فيقول إن كل الموجودات — خلا الله — مخلوقة لأن الله خلق
العالم من العدم . وأرقى المخلوقات هم الملائكة وهي مخلوقات روحية كثيرة العدد ،
يبلغون كما لهم العقلي بفيض إلهي . أما الإنسان فيلبي للملائكة في المرتبة ، وبعبارة
أخرى يحتل الإنسان مكانة وسطى بين الملائكة والأعجام . والإنسان مؤلف
من روح وجسد ، والروح هي النفس الخالدة التي تدرك الأشياء بقوة العقل ،

(١) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوروبية ص ١٧٤ — ١٧٧ .

(٢) Etre : op. cit. ; p. 830.

(٣) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٩ — ٢٤٣ ، يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوروبية ص ١٧٨ — ١٨٢ .

(م ١٢ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

والعقل جزؤ من روح كل فرد من الأفراد^(١). وهنا يعرض القديس توما للمشكلة السكليات عندما يبحث في العقل، فينتفق مع أرسطو في أن السكليات لا وجود لها خارج الروح، ولكن العقل حين يعقل السكليات فهو يعقل أشياء موجودة خارج الروح^(٢). أما فلسفة توما الأخلاقية فقد حاول فيها أيضاً التوفيق بين فلسفة أرسطو وآراء للمسيحية مما جعل الطريقة التي عالج بها المشاكل الأخلاقية فريدة في نوعها بين أبحاث الفلاسفة المدرسين^(٣). وتقوم فلسفة توما الأخلاقية على أساس أن الشر غير مقصود لأن الكائنات كلها ترمى إلى التشبه بالله في الخير. كذلك يقول توما إن سعادة البشر الكاملة تقوم على التأمل في الله، لا على اللذائذ الدنيوية، لأن الله هو الغاية القصوى. والعقل الطبيعي هو مجموع القواعد الخلقية التي تقر الخير وتنذ الشر^(٤).

وإذا كان القديس توما قد وجه كل إهتمامه نحو الدراسات المتعلقة بالله وبالإنسان، فإنه قنع فيما عدا ذلك من دراسات طبيعية بالمناهج التي وضعها الأرسطيون في الطبيعة وعلم الكون، (الكسملوجيا *Gosmology*) وعلم الأحياء؛ ولعل هذا هو السبب في إهمال آراء توما في هذه العلوم فيما بعد عندما تقدمت العلوم الطبيعية واتخذت أساساً المعرفة الحقيقية. ولكن القديس توما لم يتبع أستاذه أرسطو في العلوم السابقة إتباعاً أعمى، وإنما كان في بعض النواحي — لا سيما فيما يتعلق بالفلك — يضيف إلى نتائج أرسطو أنه لا يستطيع تأكيدها أو التسليم بها^(٥).

• • •

(1) Gilson : op. cit.; pp. 536-537.

(٢) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٤٣ .

(3) Harris : The Legacy; 245.

(4) De Wulf: op. cit; Tome 2; p. 24

(5) Eyre : op. cit.; pp. 835-836.

على أن هذه الأرسطية الجديدة أو التوماوية (Thomism) لم تسلم من معارضة بعض المعاصرين الذي ساءتهم جرأة توما في الخروج على آراء السلف وبخاصة القديس أوغسطين . هذا إلى أن سياسته في فصل الفلسفة عن اللاهوت جعلت الأولى تبدو قائمة بذاتها دون أن تفقد شيئا من خصائصها ، في حين اضطر اللاهوت إلى أن يتجه وجهة معينة جديدة^(١) . لذلك غضب رجال اللاهوت واضطر اسقف باريس سنة ١٢٧٧ إلى تحريم دراسة عدد كبير من المسائل الفلسفية منها بعض المبادئ الأرسطية والتوماوية^(٢) . وفي نفس السنة السابقة أصدر رئيس أساقفة كانتربروري بإنجلترا أيضا قرارا بتحريم تدريس بعض المبادئ التوماوية في أكسفورد ، وتكرر هذا التحريم سنة ١٢٨٤ ثم سنة ١٢٨٦ . على أن البابوية لم تلبث أن وقفت موقفا مغايرا من تعاليم توما وآرائه حتى انتهى الأمر بإعلانه قديسا سنة ١٣٢٣^(٣) .

يوحنا دونس سكوت :

وكانت نتيجة ما أثر حول فلسفة توما أن انقسم الفلاسفة من بعده إلى فريقين : التوماويين — ومعظمهم من الدومنيكان ، وأتباع بونا فنتورا ومعظمهم من الفرانسكان^(٤) . وكان أبرز الفلاسفة عند نهاية القرن الثالث عشر من الفريق الأخير ، هو يوحنا دونس سكوت (١٢٦٦ — ١٣٠٨) Johannes Duns Scotus الذي يشبه القديس توما في تمسكه بنظرية أرسطو في المعرفة ، ولكنه كان أوغسطينيا ينتمي إلى بونا فنتورا . لذلك حاول أن يرفع من شأن اللاهوت ، ويجعل منه علما عمليا يهدف إلى تدبير أفعالنا أكثر منه إلى تعريفنا حقائق معينة^(٥) .

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٠٣ .

(٢) Cam. Med. Hist ; vol. 5, p. 822.

(٣) Brehier : op. cit.; pp. 341-343.

(٤) Eyre : op. cit., p. 836.

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٤ .

وبذلك ابتعد يوحنا دونس عن آراء توما الأكويني ، بل أنه قلب نظريه توما في المعرفة رأساً على عقب بقوله إن المفكر المسيحي يجب أن يصدر فكره عن الإيمان وأن يجعل من الوحي محوراً لمذهبه — وهكذا يمضي يوحنا سكوت في تعقب آراء القديس توما لمعارضتها دون أن يدرك حقيقتها^(١) . فهو في البرهان على وجود الله يبدأ بفكرة مطلق الإمكان ؛ وهي الفكرة التي تؤدي بنا إلى علة أولى ممكنة ، والعلّة الأولى الممكنة موجودة ضرورة وبذلك نصل إلى أن الله موجود لا ممتناه . ومن هنا يستطيع الميتافيزيقي — وموضوعه الوجود من حيث هو كذلك — البرهنة على وجود الله دون اللجوء إلى برهان الحرك الأول الذي قال به القديس توما^(٢) . كذلك يرفض دونس سكوت ما قاله القديس توما في الصفات الإلهية من أن هذه الصفات تمايزه تمايزاً ذهنياً . بل أنه يعترف من جهة أخرى بأننا لا نستطيع أن نجعل بين الصفات تمايزاً عينياً فندخل الكثرة على الذات الإلهية^(٣) . لذلك يبتدع تمييزاً يحسبه وسطاً هو « التمييز الفعلي الصوري من جهة الشيء » ؛ ولكن فاته أن التمييز الفعلي من جهة الشيء هو في الواقع تمييز عيني ، فكيف يكون صورياً في الوقت نفسه^(٤) ؟ . أما في الإرادة فهو مثل جميع الأوغسطينيين — يقدم الإرادة على العقل لأنها تأمر العقل وتوجهه^(٥) ؛ كما يرى في خالق العالم أن العالم حادث ولا يمكن افتراض القدم ، وبذلك وضع ما جاء به الوحي من خلق العالم موضع الإلزام وأعطى اللاوجود وجوداً سابقاً بعكس ما قال به القديس توما من ارتباط الخليفة بعلمها بغض النظر عن الزمان^(٦) .

(1) De Wulf : op. cit.; Tome 2; p. 66.

(2) Idem; p. 72.

(3) Gilson : op. cit.; pp. 593-599.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٢٩ .

(5) Harris ; The Legacy of the Middle Ages; p. 248.

(6) Eyre : op. cit.; p. 837.

وهكذا يبدو من آراء دونس سكوت أن فلسفته امتازت — على الرغم مما فيها من عناصر انشائية — بطابع عام من النقد والهدم^(١). ففرضه الأساسى كان مناقضة آراء القديس توما من جهة وتوسيع نطاق اللاهوت من جهة أخرى، ولكنه فى جميع ذلك لم يحقق أغراضه ولم يوفق فى فلسفته ؛ الأمر الذى جعل منه بداية للأحلال الذى تعرضت له الفلسفة المدرسية بعد ما بلغت هذه الفلسفة من رقى وتقدم فى القرن الثالث عشر^(٢).

القرن الرابع عشر — انحلال الفلسفة المدرسية :

إذا كان القرن الثالث عشر يمثل — كما سبق أن ذكرنا — العصر الذهبى للفلسفة المدرسية ، عند ما اتجهت هذه الفلسفة نحو التقريب بين العقل والدين ؛ فإن الحال اختلف بالنسبة للقرن الرابع عشر^(٣). وقد سبق أن رأينا كيف أخذ الاتجاه ضد العقل يقوى منذ أواخر القرن الثالث عشر على يد يوحنا دونس سكوت ؛ وكان الغرض من ذلك الاتجاه الرفع من شأن الدين واللاهوت . وقد قضى هذا الاتجاه على جهود مفكرى القرن الثالث عشر وهدد بالفصل بين العقل والدين ، مما جعل القرن الرابع عشر يبدو سلبياً بل هداماً ، هذا على الرغم مما شهدته هذا القرن من تقدم فى العلوم الطبيعية^(٤).

ومن أبرز مفكرى القرن الرابع عشر الذين أخذوا يتشككون فى أهمية العقل ويتمسكون بالدين وأحكامه ، وإيم الأوكامى (١٣٠٠ — ١٣٥٠) William of Okham ، وهو من فرانسكان اكسفورد . وكثير من لا يعرفون

(1) Harris : The Legacy; p 248.

(2) Brehier : op. cit.; p, 391.

(3) De Wulf : op. cit.; Tome 2, p. 154.

(4) Eyre ; op. cit ; p. 838.

ولينم الأوكامى لا يجهلون الركن الأساسى من تفكيره لأن جون لوك وخلفاءه من الحسين استمدوا منه نظريته فى المعرفة^(١) ، وهى النظرية التى تعتبر محور تشكك أوكام فى الفلسفة والعلم . ذلك أنه يرى أن المعرفة العقائيه التجريدية واقعة على معان مجردة ، وهذه المعانى عبارة عن إدراكات غامضة تعبر عن الجزئيات تعبيراً عاماً غير مجدٍ^(٢) . فالألفاظ الدالة على معان - - مثل إنسان - - تدل على أشياء غير واضحة ، فى حين أن الألفاظ الدالة على جزئيات - - مثل سقراط - - تدل على الأشياء نفسها ولكن بوضوح . وبعبارة أخرى فإن الاسم - - لا المعنى - - هو موضوع العلم ، على أساس أن هذا الاسم يرمز إلى الجزئيات^(٣) . ومن هنا سعى مذهب أوكام بالاسمية ، واعتبره الاسميون فى القرن الخامس عشر مؤسس مدرستهم^(٤) . وإذا كان بعض النقاد يرى أن أوكام أفسد الفلاسفة المدرسية بعد أن جرد المعنى من قيمته الموضوعية ، وأنه تورط فى أغلاط ومغالطات من السهل كشفها بالرجوع إلى مؤلفات أرسطو والقديس توما^(٥) ؛ إلا أن البعض الآخر من الباحثين الحداثيين يعارضون هذا الحكم على أوكام ويرون أنه كان مهتماً باستعادة الصواب إلى فلسفة أرسطو بعد أن ينقيها من مؤثرات أوغسطاين والعرب ؛ وأن شرح النقاد لأوكام قد أفسدته رغبتهم فى إيجاد حالة من التدرج بين الفلاسفة المدرسية والفلسفة الحديثة^(٦) .

* * *

(1) Ibid .

(2) Gillsen : op. cit. : pp. 641-642.

(٣) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٤١ .

(٦) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

ومهما كان الأمر ، فإن وليم الأوكامى يعتبر آخر أعلام الفلاسفة المدرسين^(١) . وسرعان ما اتضح فى نهاية القرن الرابع عشر أن جميع الظروف مهيأة للانتقال إلى مرحلة جديدة فى الفلسفة . ولم تلبث هذه الظروف من ناحية والحوادث التاريخية التى امتاز بها القرنان الخامس عشر والسادس عشر من ناحية أخرى ، أن أدت جميعها إلى دخول الفلسفة فى دور آخر عظيم بدأ حوالى سنة ١٦٠٠^(٢) .

(1) Gilson : op. cit, p. 655.

(2) Eyre : op. cit., p. 843.

الباب السابع

الفكر السياسي والنشاط التشريعي

مميزات الفكر السياسي في العصور الوسطى :

امتاز الفكر السياسي في أوروبا العصور الوسطى بطابعه العالمي ، إذ يدور هذا الفكر حول محور رئيسي هو قيام عالم واحد يمثل في جانبه الديني تراث الإمبراطورية الرومانية وسلطانها ، وفي جانبه الروحي تقاليد المسيحية وكنيستها^(١) . وبعبارة أخرى فإن هذا الفكر قام على أساس وجود إمبراطورية وكنيسة ؛ أو إمبراطور وبابا يرعى الأول الأمور الدنيوية في حين يرعى الآخر المصالح الروحية^(٢) .

فالفكرون السياسيون في العصور الوسطى لم يؤمنوا بأن الإمبراطورية الرومانية زالت بانقراض الوثنية ، بل اعتبروها قائمة في ظل المسيحية ، كما يبدو ذلك بوضوح في تفكير دانتي الذي لم يعترف بوجود فجوة بين الإمبراطورية الرومانية القديمة وإمبراطورية العصور الوسطى ؛ وقال بأن أحداث القرن الخامس لم تؤثر مطلقاً في تطور الإمبراطورية الرومانية واستمرارها^(٣) . حقيقة إن الإمبراطورية انتقلت إلى الشرق ، أو — حسب تعريفه — اتجه النسر شرقاً نحو العالم اليوناني (se fece Greco) ؛ ولكن المهم هو أنه ظل محلقاً في الفضاء مستمراً في طيرانه دون أن يتوقف . وكان الرومان في نظر دانتي هم شعب الله

(1) Bowle : Western Political Thought; p.180.

(2) Hearnshaw: The Social and Political Ideas of some Great Med. Thinkers; p. 12.

(3) Carlyle : The Political Theory in the West; vol. 3; p 170.

المختار المفضل (populo-Santo)، كما أنه اعتبر امبراطورية الغرب — عندما تم إحيائها — وريثة التراث الرومانى القديم^(١). وفى كل هذه الآراء عبر دانتي عن وجهة نظر العصور الوسطى تعبيراً أميناً صادقاً، مما جعل وجهة النظر هذه تبدو فى صورة محاولة لربط الآراء السياسية المتعاقبة بالامبراطورية الرومانية بتعاليم المسيحية الخلقية^(٢).

وهكذا ظلت نظرة الغربيين إلى العالم طوال العصور الوسطى على أنه مجتمع سياسى دينى تستند وحدته النهائية إلى قوة الله وإرادته. وهذا العالم الذى يضم جميع الناس يقوم من أجل هدف مشترك ويحكم وفق قانون واحد يمثل فى جانبه الدنيوى التقاليد الرومانية وفى جانبه الروحى تقاليد المسيحية^(٣). وإذا كان قد حدث خلاف بين المفكرين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حول هذه النظرية فإن الخلاف لم يكن حول صحتها لأن الجميع آمنوا بها، وإنما كان حول طريقة تطبيقها وضبط السلطتين الزمنية والروحية داخل نطاق مجتمع واحد هو مجتمع المسيحية السياسى^(٤).

وعندما ازداد الفكر عمقا فى العصور الوسطى، أخذ المفكرون يتساءلون عن الأساس الفكرى للمجتمع، وعندئذ توصلوا إلى نتائج كان لها أبعاد الأثر فى الفكر السياسى. والواقع أنهم لم يكونوا مبتكرين فى النتائج التى توصلوا إليها، لأنهم نادوا بما سبق أن قال به أرسطو من أن سبب قيام المجتمع هو أن الإنسان اجتماعى بالطبع^(٥). وبعبارة أخرى فإن مفكرى العصور الوسطى اتبعوا قول استاذهم أرسطو فى أن الفرد لا يمكن أن يستسيغ الحياة الانفرادية بعيدا عن بنى جنسه لأنه

(1) Bowle : Western Political Thought; p 235.

(2) Eyre : op. cit., p. 278.

(3) Hearnshaw: The Social and Political Ideas; p.12.

(4) Oierke : Political Theories of the Middle Ages; pp.9-10.

(5) Bowle : op. cit., p. 62.

في هذه الحالة إما أن يكون حيوانا دون مستوى البشر أو ملاكا أعلى من مستوى البشر^(١). وهكذا قال القديس أوغسطين أن الطبيعة الانسانية اجتماعية ، كما تمسك بقية مفكرى العصور الوسطى بأن الأساس الأول للمجتمع هو طبيعة الانسان نفسها. وقد وضعوا هذه القاعدة في قالب عملي ، فقالوا ان الغرض من النظم الاجتماعية هو تنفيذ القانون الطبيعي ، ومن هذا يبدو أن النظرية السياسية قامت في أوربا العصور الوسطى على أساس تصور قانون طبيعى ودولة طبيعية^(٢).

على أن لفظ « الطبيعة » استخدم في الفكر السياسى للدلالة على معان متناقضة مختلطة . فهذا اللفظ استخدم في أول الأمر للتعبير عن الأوضاع البدائية ، ومن ثم أصبحت الحالة الطبيعية يقصد بها إما حالة الكمال التى تمتاز بالنشاط والبعده عن التعقيد أو حالة المهبجية الأولى وعدم النظام . هذا فضلا عن استخدام لفظ « الطبيعى » في الفكر السياسى بمعنى السوى أو العادى ، وعلى ذلك فإن طبيعة الإنسان لا تتمثل في حالته البدائية وإنما في الحالة التى يصبح عليها إذا تم نضجه^(٣). وتبعاً لوجهة النظر هذه ، لا يكون هناك داع لربط « الحالة الطبيعية » بالزمن ، وإنما هى حالة مثالية يجب أن يجاهد الإنسان في سبيل الوصول إليها . وإذا كان الأمر كذلك فإن القانون الطبيعى يصبح في هذه الحالة مجموعة مبادئ من السلوك الطيب التى يتحلى بها البشر -- من الجانب المثالى -- لتصبح هذه المبادئ أساس الأخلاق . وهذا المعنى الأخير « للطبيعة » هو المعنى نفسه الذى قصده جبهة المفكرين بوجه عام في العصور الوسطى ؛ فهم عندما يتحدثون عن « قانون الطبيعة » إنما يقصدون مجموعة ضخمة من المبادئ الخلقية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان ليصل إلى مرتبة الكمال البشرى^(٤). ويتبع ذلك أن المجتمع الذى

(1) Poole : Med. Thought; p. 214.

(2) Eyre : op. cit., p. 279.

(3) Jacob : The Legacy of the Middle Ages, p 510.

(4) Clarke : op. cit., pp. 74-75.

يقوم عل أساس القانون الطبيعى كان له — عند هؤلاء المفكرين — هدف خاقى محدود . وهن الواضح أن مفكرى العصور الوسطى استمدوا هذه الأفكار من آراء الرواقين من جهة ومشرعى الرومان فى أواخر عصور الحضارة القديمة من جهة أخرى^(١) . وقد أدت جميع هذه الآراء إلى الاعتراف بالقانون الطبيعى الذى يشمل مبادئ الأخلاق المتفق عليها فى جميع أنحاء العالم المتحضر والملائمة لجميع البشر؛ وبذلك تختلف عن القوانين الوضعية المحلية الخاصة بأمم معينة، وتسمو عليها^(٢) .

على أن هناك ظاهرة كان لها أثر كبير فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى ، تتمثل فى التباين الذى أثير بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى . وبعبارة أخرى فإنه كان لا بد من التفرقة بين القوانين والنظم التى قامت على أساس الطبيعة ، وتلك التى قامت على أساس العرف والتقاليد^(٣) . فالأولى لها قيمة خلقية جوهرية جذيرة بالأهمية ، فى حين كانت الأخرى لا تقوم إلا على أساس قواعد تجريبية ربما أدت إلى غرض نافع فى بعض الحالات ، ولكن ينقصها الطابع الخلقى الشامل الذى يميز القانون الطبيعى . وقد عبر مفكرو العصور الوسطى عن هذا التباين تعبيرا لاهوتيا ، فقال القديس خريستوم (فم الذهب) «عندما أتحدث عن الطبيعة فأنا أعنى الله لأنه هو الذى أبدع العالم^(٤)» . وهكذا اتضح للمفكرين أن هناك فجوة واسعة بين الحالة المثالية للإنسان كما تصورها الطبيعة ، وبين النظم السياسية القائمة فعلا على أساس القوانين الوضعية ؛ لأنه بدا من المستحيل التوفيق بين عادات الإنسان وقوانينه الضرورية وبين الفكر الإلهى الذى نبت منه القانون الطبيعى . ففى ظل القانون الطبيعى ينبغى ألا تكون هناك حكومة ولاحكام أو محكومون لأن جميع الناس أحرار وسواسية ؛ وبالتالي لا ينبغى

(1) Bowle : op. cit., pp. 82-84.

(2) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 5-6.

(3) Gierke : op. cit., pp. 76-78.

(4) Eyre : op. cit., pp. 280-281.

أن يكون هناك عيب أو أرقاء ولا يصح أن يبقى أى أثر للملكية الفردية ، لأن الناس الأحرار المتساويين لهم أن يتمتعوا بكل ما خلقه الله على قدم المساواة .

ولكن من الواضح أن تطبيق هذه الآراء يؤدي إلى حالة من الفوضى والاضطراب لأن المجتمع لا يمكن أن يستغنى عن حكومة أو ملكية فردية ، كما أن عنصر الرق كان ركنا أساسيا في بناء المجتمع الأوربي في العصور الوسطى^(١) . لذلك أتى المفكرون السياسيون بنظرية تردى الإنسان وسقوطه ، فقالوا إنه كان من الممكن أن يكتفى المجتمع بهذه المبادئ الأساسية من القانون الطبيعي وذلك قبل أن يضل الإنسان سواء السبيل ، أما وقد سقط الإنسان وتردى في الخطيئة فقد أصبح من الضروري وجود قوانين وضعية تتمشى مع الوضع الجديد الذى تردى إليه الإنسان^(٢) . وعلى هذا الأساس نظر المفكرون في العصور الوسطى إلى القوانين الوضعية على أنه ينقصها السمو والكمال اللذين يتصف بهما القانون الطبيعى ؛ ومع ذلك فإنه لا بد من هذه القوانين الوضعية لوقف الشرور وعلاج المثالب التى لازمت الإنسان منذ أن تردى في الخطيئة^(٣) .

وهنا نعود فنؤكّد أن هذه التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية إنما هى في الواقع تقرير للفكرة الكلاسيكية ، واسكن في صيغة لاهوتية . وقد عبر عن هذه الفكرة في القرن السابع القديس إيسيدور (٥٦٠ - ٦٣٦) حين قال « إن جميع القوانين إما إلهية أو بشرية ، فالقوانين الإلهية تعتمد على الطبيعة في حين تعتمد البشرية على العرف ، وبالتالي فإن هذه القوانين الأخيرة يختلف بعضها عن بعض لأنها تتباين بتباين الأمم »^(٤) . أما في القرن الثانى عشر فقد

(1) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 18.

(2) Carlyle : op. cit , vol. 1, pp. 144-146.

(3) Eyre : op. cit., p 281.

(4) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 106-108.

كتب جراثيان قائلاً « هناك قوتان تحكمان البشر ، هما قوة القانون الطبيعي وقوة العادة والتقاليد . والقانون الطبيعي هو ما نصت عليه التشريعات السماوية والإنجيل ، من أنه يتعين على كل إنسان أن يسلك تجاه غيره المسلك نفسه الذي يرضيه لنفسه »^(١) .

وخلاصة القول إن مفكرى العصور الوسطى بدءوا تفسيرهم الفكري للنظم الاجتماعية والسياسية على أساس ثلاثة مبادئ وضعوها نصب أعينهم دائماً الأول : هو تصورهم للقانون الطبيعي على أنه يعبر عن أقصى حالات السمو البشري ، وأن هذا القانون مستمد من الفكر الإلهي ليكون مصدراً للأخلاق . والثاني : هو الاعتقاد بأن القوانين الوضعية ونظم الدول العلمانية قامت من وجهة النظر المثالية على أساس القانون الطبيعي ، ولكنها تختلف اختلافاً جوهرياً عن القانون الطبيعي في تباينها بين مكان وآخر وفي أنها راعت العادات والتقاليد التي جاءت نتيجة حتمية للحد من آثام الإنسان^(٢) . والثالث : هو وجود فرق واضح ثابت بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ، كما ظهر ذلك بجملاء في جميع المناقشات والأبحاث التي درأت حول النظم السياسية ، وعماً إذا كانت هذه النظم طبيعية تتفق مع المبادئ العامة للأخلاق أو عرقية جاءت نتيجة خطأ الإنسان وكوسيلة لعلاج هذا الخطأ وإقرار الأمن والسلام^(٣) .

وفي ضوء هذا التباين بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ، عالج مفكرو العصور الوسطى ثلاث مشا كل كبرى هي الرق والملكية والدولة .

(1) Taylor : op. cit., vol. 2, pp. 297-298.

(2) Eyre : op. cit , p. 281,

(3) Idem, p. 282.

الرق :

أما مسألة الرق فتمثل لغزا عسراً في الفكر السياسي منذ أيام اليونان ، عندما نوقشت هذه المسألة في ضوء الفروق التي سبق أن أشرنا إليها . وقد وصل أرسطو إلى نتيجة هامة بخصوص الرق ، فقال انه أمر طبيعي لأن بعض الناس يصلحون بفضل طبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ولا شيء غير ذلك^(١) . أما مفكرو العصور الوسطى — وقد سبقهم في ذلك الرواقيون إلى حد ما — فاتخذوا رأياً في الرق معارضاً لرأى أرسطو على طول الخط . ذلك أنهم نظروا إلى المسألة من وجهة نظر تعاليم المسيحية التي تقول بأن الناس جميعاً متساوون أمام الله وأن روح العبد تعادل تماماً في أهميتها روح السيد الحر^(٢) . على أننا نجد من ناحية أخرى أن الرق ظل قائماً — في صورة أو أخرى — في أوروبا العصور الوسطى ؛ ومع أن المفكرين رفضوا الاعتراف بأنه وضع طبيعي إلا أنهم التمسوا له مبرراً عرفياً في بعض الحالات . وهكذا نظر هؤلاء المفكرون إلى الرق على أنه ظهر نتيجة الخطيئة والشر ، ولكنهم اعتبروه نظاماً تقليدياً لا بد منه لوقف بعض الاتجاهات الآثمة في المجتمع البشري^(٣) . فالعصور الوسطى لم تحكم على الرق مطلقاً بالبطلان أو عدم الصلاحية ، ولكنها أنكرت وجود « الرق الطبيعي » وتمسكت بأنه يجب على السيد أن يسلك دائماً مسلكاً طيباً تجاه عبده^(٤) . وبعبارة أخرى فإن العصور الوسطى اعتبرت الرق مسألة عادة وعرف لا بد منها لتصريف أمور المجتمع مع الاعتراف بعدم سلامة هذا الوضع .

(1) Carlyle : op. cit., vol. 1, p. 7.

(2) Cam. Med. Hist., vol 6, pp. 613-614.

(3) Poole : Med. Thought, p. 214.

(4) Carlyle : op. cit., vol. 1, p. 123.

الملكية الفردية :

أما المسألة السياسية الثانية التي عاجلها مفكرو العصور الوسطى في ضوء الخلاف بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية فهي مسألة الملكية . وفي هذه المسألة أيضاً ورثت العصور الوسطى وجهة النظر القديمة التي قال بها الرواقيون والتي نادى بأن القانون الطبيعي لا يعترف بالملكية الفردية . فجميع الأشياء — من الناحية المثالية — يمتلكها جميع الناس من أجل منفعتهم المشتركة العامة^(١) . ولكن فلاسفة العصور الوسطى ومشروعها كان عليهم — كما هو الحال في مسألة الرق — أن يواجهوا حقائق الحياة القائمة ومطالبها العملية ؛ ومن هنا اعترفوا بقيام الملكية الفردية في كل مكان على أساس أن القوانين الوضعية تبرر بقاءها .

وقد اتخذت مشكلة الملكية قالباً هاماً في العصور المسيحية ؛ نتيجة للطابع الروحي الذي امتاز به الدين السماوي الجديد^(٢) . وهنا اكتشف بعض الكتاب في أوائل العصر المسيحي آثاراً لنظرية الاشتراكية المتطرفة في الإنجيل^(٣) . ولكن مفكرى العصور الوسطى لم يأخذوا مطلقاً بهذه النظرية وإنما حكموا التباين بين الطبيعة والعرف ؛ فقالوا إن جميع الممتلكات وفقاً للقانون الطبيعي — وهو القانون الإلهي — تعتبر ملكاً لله الذي وهبها لعباده جميعاً للانتفاع بها^(٤) . ولكن عندما تردى الإنسان في الخطيئة ، أدى حرصه وبخله إلى استحالة بقاء هذا الوضع الخاص بشيوع الملكية ، ومن ثم أصبحت الملكية الفردية أمراً ضرورياً لمواجهة جشع الإنسان من ناحية ولضبط هذا الجانب غير الطيب من

(1) Gierke : op. cit., p. 80 & Carlyle : op. cit., vol., 1, pp. 43-44.

(2) Eyre, op. cit., p. 283.

(٣) « جميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً ؛ والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج » . (العهد الجديد — سفر أعمال الرسل الإصحاح الثاني ؛ ٤٤ — ٤٥) .

(4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 614.

تصرفاته من ناحية أخرى^(١) . وعلى ذلك فإن الملكية الفردية جاءت نتيجة للعرف واعتمدت في بقائها على القوانين الوضعية . وعلى الرغم من أنها لا تمت إلى النظم الطبيعية أو إلى التشريعات السماوية بصلة ؛ فإنه يجب احترامها كعلاج للخطأ الذي تردى فيه الانسان .

وكان لنظرية الملكية الفردية هذه — مع ما اتصفت به من طابع نظري — نتائج عملية هامة ميزت وجهة نظر العصور الوسطى ، عن غيرها من وجهات النظر التي عالجت هذه النظرية منذ عصر الفيلسوف لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) . فنظرية العصور الوسطى في الملكية اعتمدت قبل كل شيء على القوانين البشرية الوضعية وعلى ذلك فإن ما يعطيه القانون الوضعي للانسان يمكن أن يسترده القانون نفسه دون أن يكون في ذلك مساً بالعدالة^(٢) . لذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأن الفرد ليس له الحق في التمسك بملكية خاصة قبل الحكومة الزمنية التي يعيش في ظلها . كذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأنه لما كان المبرر الرئيسي لقيام الملكية الفردية هو أن هذه الملكية جاءت وليدة الخطيئة البشرية حتى أصبح بقاءها ضرورياً لعلاج هذه الخطيئة ومقاومة الجشع الانساني ؛ فإن هذه الملكية يجب ألا تستخدم إلا داخل نطاق الغرض من قيامها . وهنا يقرر القديس أوغسطين بأن الفرد الذي لا يحسن استخدام أملاكه يفقد حقه في الاحتفاظ بهذه الأملاك^(٣) . وبناء على هذه الآراء السابقة لم يعترف مفكرو العصور الوسطى بمبدأ الملكية المطابقة للمعنى الحديث الذي نفهمه . فالقديس توما الأكويني يقول إن الملكية الفردية ليس معناها امتلاك الأشياء وحيازتها بحسب ، بل أيضاً حسن استخدام هذه الممتلكات والتصرف فيها . فالفرد ليس له حق إلا في امتلاك الضروريات التي يحتاج إليها ، وكل ما عدا ذلك يجب أن يكرسه للصالح العام .

(1) Carlyle : op. cit., vol 2, pp. 137-139.

(2) Eyre : op. cit., p. 283.

(3) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 140-142.

ومعنى ذلك أن دفع الصدقات لم يكن ضرباً من الإحسان في نظر مفكرى العصور الوسطى ، وإنما كان فرضاً حقاً على القادرين^(١) .

وخلاصة القول إن الفارق بين النظرية الحديثة ونظرية العصور الوسطى، عن الملكية ، هو أنه في حين نميل نحن إلى الاعتقاد بأن الملكية الفردية تحول لنا حقاً مطلقاً على الأشياء المملوكة ؛ إذاً بوجهه نظر العصور الوسطى تتجه نحو اعتبار الملكية الفردية نوعاً من الأمانة أو الهبة التي حصل عليها الفرد بتحويل من العرف .

الدولة :

أما المسألة السياسية الثالثة التي عالجها مفكرو العصور الوسطى في ضوء الاعتبارات السابقة ، وبخاصة التفرقة بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ؛ فكانت مشكلة قيام الدولة العلمانية أو الوحدة السياسية . وقد بلغت هذه المشكلة درجة كبيرة من الخطورة في أوائل العصور الوسطى ، عندما كان يخشى أن يستغل بعض دعاة المسيحية تعاليم الدين الجديد في اتجاه غير إجماعى^(٢) . وعلى الرغم من أن هذه الخطوة لم تتم ، إلا أنها تركت أثراً واضحاً في الفكر السياسى للعصور الوسطى، بل إنها ظهرت جلية في كتاب « مدينة الله Civitas Dei » للقديس أوغسطين وهو الكتاب الذى فاق أثره أى كتاب آخر في سياسة العصور الوسطى^(٣) .

وتتمثل الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الكتاب في المقارنة بين مدينة الله — وهى التى تضم مجموعة المؤمنين الأبرار من عباد الله — ومدينة الأرض . (Civitas terrana)^(٤) . وهنا نشير إلى أن الخلاف ما زال قائماً حول ما يقصده .

(1) Eyre : op. cit., p. 284.

(2) Olerke : op. cit., pp. 2-4.

(3) Poole : Medieval Thought, p. 48.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 607.

(م ١٣ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

القديس أوغسطين بمدينة الأرض، وعما إذا كان المقصود بهذه المدينة هي الامبراطورية الرومانية في العصر الوثني بالذات أو غيرها^(١). ولكن الثابت هو أنه يقصد بوجه عام ما يمكن أن نسميه الوحدة السياسية أو الدولة، التي يصير القديس أوغسطين في أكثر من موضع على وصفها بأنها تمثل روح الشر والإثم^(٢). ذلك أن «مدينة الأرض» نشأت من شهوة الإنسان ورغبته الجارحة في السيطرة والتحكم (*libido dominandi*) كما أن بقاءها مبني على أسس من سفك الدماء والحرب والسلب والعنف.

ولم يكن القديس أوغسطين وحده هو الذي عبر عن هذا الشعور العدائي نحو الوحدة السياسية أو الدولة في العصور الوسطى؛ إذ لم يلبث البابا جريجوري السابع بعد ذلك بستة قرون أن أظهر هذا الشعور نفسه وأخذ يتساءل «من منا يجهل أن الملوك والحكام استمدوا أصلهم من أناس لا يعرفون الله، وأنهم يستجيبون لإغراء الشيطان فيحكمون شهوتهم العمياء في السيطرة على إخوانهم من البشر». كذلك نجد هذا الرأي نفسه يردده بعد ذلك البابا أنوسنت الثالث، ثم ظهر في المرسوم البابوي الشهير الذي أصدره البابا بونيفيس الثامن^(٣).

ومع أن هذا الحكم الجائر على الدولة العلمانية ترك أثراً واضحاً في الفكر السياسي للعصور الوسطى، إلا أننا لا يصح أن نتخذ نموذجاً لتعاليم تلك العصور لأن الكتاب أنفسهم الذين تطرفوا في وجهة النظر السابقة، لم ينكروا في بعض المواضع مبررات قيام الدولة^(٤). ذلك أن مفكرى العصور الوسطى بوجه عام اعتبروا الوحدة السياسية وليدة الإثم، ولكنهم لم يقرروا بأن الدولة آتمة على طول

(1) Hearnshaw : Some Great Political Idealists of the Christian Era, pp. 17-18.

(2) Jacob : The Legacy of the Middle Ages, pp. 512-513.

(3) Eyre : op. cit., p. 285.

(4) Hearnshaw - The Social and Political Ideas, p. 20.

الخط . وهنا نجدهم مرة أخرى يستغلون الفرق بين النظام الطبيعي والنظم الوضعية ، فقالوا ان القانون الطبيعي يقضى بالمساواة التامة بين جميع الناس أمام الله ، وأنه ليس لفرد — بحكم الطبيعة — أن يدعى السيطرة على أقرانه من البشر^(١) . ولكن نتج عن الخطيئة التي تردى فيها الإنسان أن ظهرت في الدنيا نزعة نحو العنف ورغبة في السيطرة ، الأمر الذي أدى إلى تحكم بعض الناس في غيرهم . على أن هذا لم يكن — في نظر مفكرى العصور الوسطى — إلا جانباً واحداً من المشكلة . ذلك أن الحكومة العلمانية — على الرغم من التسليم بأنها جاءت وليدة الإثم — أصبح بقاؤها ضرورياً لعلاج الشرور التي فاضت بها الحياة الدنيا^(٢) .

فالحكومة الدنيوية إذا جاءت عن طريق الخطأ ، ولكنها أصبحت العلاج الإلهي للأخطاء البشرية ، ومن ثم وجب احترامها وطاعتها^(٣) . ويبدو هذا الرأي واضحاً في كتاب دانتي عن الملكية (De Monarchia) ، فهو يعلم بأن الحكومة الدنيوية آئمة في تكوينها ونشأتها ، ولكنه يعترف بأن السلام لا يمكن أن يسود الحياة العملية إلا بقيام سلطة قاهرة تمنع العنف وتقر العدالة^(٤) .

وخلاصة القول ، أن رأى السائد في العصور الوسطى بخصوص هذا الموضوع هو أن الدولة العلمانية نبتت أصولها من أوضاع آئمة ، لأنها لا تقوم على أساس المساواة الطبيعية بين الناس ؛ ولكن بقاء هذه الدولة أمر ضرورى لعلاج ما تفيض به الحياة البشرية من آثام . والدولة في علاجها لهذه الآثام تعتمد على الله

(1) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 126-128.

(2) Idem, p. 130.

(3) Idem, vol. 2, pp. 146-147.

(4) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 126. & Bowle - op. cit., p. 233-236.

ولذلك يجب أن تحظى بالاحترام والطاعة من جميع المسيحيين المخلصين^(١).

* * *

وقد ظهر أثر المبادئ والآراء السابقة بوضوح في تطور الفكر السياسي في غرب أوروبا في العصور الوسطى . من ذلك أن القول بأن الحكومة الزمنية — مع كونها غير طبيعية — إلا أن لها وظيفة دينية مقدسة في علاج الآثام والشروع ؛ هذا القول أدى مباشرة إلى نظرية حق الملوك الإلهي أو المقدس^(٢) . حقيقة إن هناك عوامل أخرى كثيرة أسهمت في بناء هذه النظرية ونموها ، لا سيما قول الفريق الإمبراطوري — أثناء النزاع مع البابوية — بأن الإمبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة ؛ ولكن الفكرة التي قامت عليها نظرية حق الملوك الإلهي تكمن بوجه عام في رأى العصور الوسطى في الدولة الزمنية . فالعصور الوسطى نظرت دائماً إلى الحاكم العلماني على أنه أداة الله في القضاء على العنف والشر^(٣).

على أنه إذا كانت العصور الوسطى قد قالت بأن الحاكم العلماني — سواء كان ملكاً أو إمبراطوراً — يتقلد منصبه بمقتضى حق إلهي ، إلا أن هذه العصور لم تقر مطلقاً مبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين عن أفعالهم ، لأن هذا المبدأ لم يكن إلا فكرة قديمة أحيائها ملوك القرن السابع عشر^(٤) . والواقع إن التنكر لمبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين يعتبر تطبيقاً جديداً لنظرية العصور الوسطى عن الحكومة الدنيوية^(٥) . فنفكرو العصور الوسطى اعتبروا الملكية — أى الحكومة الزمنية — ليست إلا وظيفة وأمانة ، وأنه يتحتم على

(1) Eyre : op cit., p. 286.

(2) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 21.

(3) Oierke - op. cit , pp. 30-32,

(4) Eyre - op. cit , p. 286.

(5) Cam. Med. Hist., vol. 8, p. 642.

صاحب هذه الوظيفة الوفاء بالتزامات ثابتة معينة^(١) . وقد أدت هذه النظرية في النهاية إلى القول بأنه لما كانت الدولة العلمانية وحاكمها قد جاءا نتيجة للأنتم وعلاجه ، فإن الحكمة من بقائهما أصبحت رعاية مصالح الأفراد الذين تألفت منهم هذه الدولة ، وليس للحاكم أن يفرض على هؤلاء الأفراد التزامات غير مشروطة^(٢) . ومن الواضح أن هذه الفكرة — التي تختلف عن كثير من النظريات السياسية القديمة والحديثة إزاء الدولة — تمثل رأياً خطيراً على جانب كبير من الأهمية . ذلك أنها تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم في ضوء مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة^(٣) . وهنا يلخص القديس توما الأكويني أهم مظهر للنظرية السياسية في العصور الوسطى فيقول «إن المملكة ليست ملكاً للملك ، وإنما الملك ملك للملكة» .

Regnum non est propter regem sed rex propter regnum
ويفسر ذلك بأن الله أقام ماوك الأرض لتحقيق مكاسبهم الخاصة ، وإنما لتحقيق الصالح العام . ثم يضيف القديس توما إلى ما سبق ، قوله بأن القانون المدني يجب أن يستهدف الصالح العام ، وإلا فقد صفتته الإلزامية كقانون^(٤) .

بل إن بعض مفكرى العصور الوسطى لم يترددوا في نقد نظرية الملكية المطلقة ؛ فحنا الساليسورى يفرق بين الملك والطاغية أو الدكتاتور ، ويقول ان الأول يخضع للقانون فى حين يتجاهله الثانى . ولما كانت الملكية نظاماً إلهياً مقدساً فإن إساءة الملك استخدام سلطته تعتبر خيانة فى حق الله ؛ وهنا يوصى حنا الساليسورى باستخدام السيف لمعاقبة الملك المستبد على هذه الخيانة . كذلك

(1) Gierke : op. cit., p. 34,

(2) Cam. Med. Hist, vol, 8, p. 642.

(3) Gierke - op. cit., p. 34.

[4] Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 6 .& Bowle -op. cit , p. 208.

يقرر أن قتل الطاغية في هذه الحالة ليس أمراً مسموحاً به فحسب ، بل يعتبر هذا الإجراء « حقاً وعدالة ^(١) *aequum et iustum* » .

والواقع أن الطغاة المستبدين احتلوا أسفل درك في التفكير السياسي في العصور الوسطى ، حتى أن دانتي أفرد لهم في الجحيم ذميراً خاصاً يغلي بالدماء ليعذبوا فيه . أما القديس توما الأكويني فقد أصر دائماً على أن مقاومة الطاغى ليست حقاً للمحكومين بل واجباً عليهم ^(٢) . وهكذا يبدو أن العصور الوسطى في غرب أوروبا لم تقر مطلقاً فكرة عدم مسئولية الحكام ، كما قالت بأن التعسف يضيع حقوق الحكام ، لأن القانون العائلي يجب أن يغال فوق الدولة وقوانينها الوضعية . وهذه الآراء هي التي تمثل في مجموعها فكرة العصور الوسطى عن الحرية ^(٣) .

ومن الواضح أن القول بأن سلطة الملك يجب أن تقوم على أساس مراعاة الصالح العام لرعاياه ، وأن لهؤلاء الرعايا الحق في عصيان الملك إذا أخل بالمبادئ التي تبرر قيامه في منصبه ؛ هذه الآراء لا يفصل بينها وبين مبدأ سيادة الشعب سوى خطوة قصيرة . هذا إلى أن مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس أمام الله ، يحمل في طياته كثيراً من دلائل الديمقراطية ومبادئها ^(٤) . ويتضح هذا الرأي في ضوء التأكيدات الكثيرة التي صدرت عن مفكرى العصور الوسطى بأن الملك خاضع لقوانين الجماعة التي يحكمها ، أو كما قال القديس أمبروز من أن الملك مقيد بقوانينه ^(٥) . وفي القرن الثاني عشر فرق هنا السالבורى بين الملك والطاغية على هذا الأساس ^(٦) ، كما تبين هذه الفسكرة المشرعون الإقطاعيون في القرن

[1] Carlyle : op. cit , vol 3, pp. 143-145.

[2] Carlyle : Med. Thought, pp. 210-216.

[3] Eyre : op. cit., p. 287.

[4] Clarke : op. cit , pp. 37-38.

[5] Carlyle : op. cit, vol. 1, pp. 163-164.

[6] Haskins : The Social and Political Ideas, p. 78.

الثالث عشر، مثل بومانوار Beaumanoir الذى قال بأن ملك فرنسا مقيد بتقاليد شعبه^(١). ومثل حنا الأبلينى Jean d'Ibelin الذى أكد هذا المبدأ نفسه فى دستوره الخاص بمملكة بيت المقدس اللاتينية، ومثل المشرع الانجليزى براكتون Bracton الذى عبر عن الفكرة السابقة فى قالب تهكمى لطيف فقال بأن الملك « لا يصبح أن يكون دون أى شىء آخر، عدا الله والقانون » !^(٢)

فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا السلطة هبة من الله وهبها عباده، وهؤلاء الأخيرون أنابوا عنهم ملكا لمباشرة هذه السلطة؛ لذلك تجب عليهم طاعة الملك مادام يباشر سلطاته على الوجه السليم. ومن هذه الفكرة نستطيع أن ناتمى جذور نظرية العقد الاجتماعى التى نادى بها بعض المفكرين الأوربيين فيما بعد^(٣). بل إن هذه النظرية ظهرت واضحة فى القرن الثانى عشر فى مؤلفات مانجولد Manegold الذى استخدم فعلا لفظ « عقد Pactum » فى تفسير العلاقة بين الحكام والمحكومين^(٤).

ومهما كان الأمر، فإن فكرة تحديد سلطة الحكومة من جهة وفكرة المساواة الأصلية الطبيعية بين جميع الأفراد والطوائف من جهة أخرى، هابلا شك أهم ما تميخض عنه الفكر السياسى فى أوروبا العصور الوسطى.

القانون الرومانى :

فإذا انتقلنا إلى دراسة القانون الرومانى فإننا نجد أنفسنا هنا أيضا مضطرين إلى الرجوع إلى العصر الرومانى نفسه لنتتبع جذور النشاط التشريعى فى أوروبا

(1) Bowle : op. cit., p. 185.

(2) Eyre : op. cit., p. 288.

(3) Gierke : op. cit., p. 88.

(4) Carlyle : op. cit., vol. 3, pp. 166-169.

«العصور الوسطى»^(١). ذلك أن القانون الأساسى للجمهورية الرومانية كان عبارة عن نظام تقليدى خاص بالمواطنين الرومان الذين يتمتعون بالجنسية الرومانية وحدهم. ولكن عندما أصبحت روما عاصمة لعالم البحر المتوسط ، اضطرت المحاكم الرومانية أن تكمل القانون المدنى الخاص بالمواطنين الرومان (ius-civile) بقانون آخر عام أكثر شمولاً ومرونة ، ولا يختص بالمواطنين الرومان وحدهم (ius gentium)^(٢). وقد روعى فى هذا القانون الأخير أن يتناول العلاقات بين أهالى جميع بلاد الامبراطورية ؛ ومن ثم احتوى كثيراً من التشريعات والنصوص القانونية الهامة التى تشمل الحجاج والشركات والزواج والوراثة وغيرها. ولما كان هذا القانون العام أوسع أفقاً وأكثر شمولاً من قانون المواطنين الأول ، فإنه أخذ يؤثر فيه تأثيراً سريعاً. وسرعان ما تداخل القانونان بعضهما فى بعض نتيجة للتوسع فى منح الجنسية الرومانية لأهالى الولايات الرومانية من ناحية ، ولانتشار آراء الرواقين ذات الصبغة العالمية من ناحية أخرى^(٣). والمعروف أن الفلسفة الرواقية نادى بأن توجيهات العقل تؤلف قانوناً طبيعياً (ius naturale) يربط جميع الناس برابط خلقى متين ، وبالتالي يسمو على التشريعات المحلية التى تسنها كل دولة^(٤).

وهناك ثمة تطور طرأ على القانون الرومانى عندما حاول دقلديانوس إصلاح مرافق الإمبراطورية وانقاذها من الهوة التى انزلت إليها ، فجعل إرادة الإمبراطور — ممثلة فى مراسيمه — هى الإرادة العليا التى يجب أن تسمو على جميع ماعداها من تشريعات وقوانين. وهكذا أصبح القضاء خدام الإمبراطور — لا العدالة — فيجب أن يلموا أولاً بالأوامر الإمبراطورية ويحرصوا على تنفيذها

(1) Cam Med. Hist., vol. 5, p. 698.

(2) Cam Med Med. Hist., vol. 5, p. 700 & Stephenson : Med. Hist., p. 13.

(3) Eyre : op. cit., p. 41.

(4) Idem, pp. 13-14.

في أحكامهم ، ثم بعد ذلك يأتى دور التشريعات المدنية وأقوال الفقهاء والمشرعين . ومع ذلك فإن هذا التطور لم يقض على قواعد القانون الرومانى الراسخة ، فاستمرت الإجراءات القضائية تسير وفق الأسس السابقة^(١) .

وسرعان ما أدت كثرة الأوامر والمراسيم الإمبراطورية وتعارضها ، إلى نوع من الفوضى فى شئون القضاء والتشريع ، الأمر الذى تطلب جمع المراسيم الامبراطورية الصادرة منذ عهد الامبراطور قنسطنطين وتبويبها ، وهى المجموعة التى تمت فى عهد الإمبراطور ثيوديسيوس الثانى سنة ٤٣٨ م ونسبت إليه^(٢) . وكان التشريع العلمى المنظم قد اختفى تقريباً منذ أخذ العالم الرومانى ينحدر فى طريق التدهور ، فسادت أوروبا عند مستهل العصور الوسطى قوانين عرفية ترجع إلى عادات الشعوب الجرمانية المختلفة التى غزت العالم الرومانى . وسرعان ما تأثر كثير من هذه الشعوب الجرمانية — لاسيما القوط — بمجموعة القوانين الرومانية التى جمعها ثيوديسيوس الثانى ، الأمر الذى ساعد على بقاء بصيص من الحضارة الرومانية فى غرب أوروبا فى العصور المظلمة التى اعقبت سقوط الامبراطورية الغربية^(٣) . هذا وإن كان من الثابت أن غزوات البرابرة فى القرن الخامس لم تقتلع جذور القانون الرومانى من غاليا وإيطاليا وأسبانيا^(٤) .

على أن أهم عمل قانونى شهدته أوروبا العصور الوسطى ارتبط باسم جستنيان امبراطور الدولة الشرقية (٥٢٧ — ٥٦٥) . والحق إن مقام به هذا الامبراطور من جمع القانون الرومانى وتبويبه وتنظيمه ، حقق لاسمه الخلود على صفحات التاريخ . وكانت المحاكم الرومانية فى ذلك الوقت — فى القرن السادس — تعتمد على مجموعتين قانونيتين : مجموعة تشمل الأوامر والتشريعات التى سنّها

(1) Stapheson : Med. Hist., p. 36.

(2) Thompson : op. cit. vol. 1, p. 94.

(3) Cam. Med Hist., vol. 2, pp. 55-56.

(4) Meynail : The Legacy of the Middle Ages, p. 364.

الأباطرة ، وأخرى تشمل كتابات المشرعين والفقهاء من رجال القانون^(١) . وكانت آخر محاولة بذلت لجمع تشريعات الأباطرة وتنظيمها هي المحاولة التي انتهت باخراج مجموعة ثيودسيوس الثانى كما سبق . ومع ذلك فإن هذه المراسيم الإمبراطورية ظلت مفككة متناثرة ينفقها الكثير من التنظيم والإنسجام . أما كتابات فقهاء الرومان وأقوالهم فقد أوشكت أن تتدثر وتضيع نتيجة لإهمالها وتشتتها وصعوبة الرجوع إليها في مكان واحد ، الأمر الذى هدد بخرمان الأجيال التالية من أعظم نواحي التراث الفكرى الرومانى^(٢) . لذلك ففكر جستنيان في جمع مختلف أطراف القوانين والتشريعات السابقة — إمبراطورية وغير إمبراطورية — مما كان له أثر بالغ في مستقبل القانون الرومانى بوجه خاص وتاريخ العصور الوسطى بوجه عام^(٣) .

ولم يسكد جستنيان على عرش الإمبراطورية البيزنطية حتى عين تريبونيان على رأس لجنة من رجال القانون لجمع الدساتير الإمبراطورية ونشرها ، فأتمت اللجنة عملها في أقل من عامين وصدرت المجموعة الإمبراطورية التي نسبت إلى جستنيان (Codex Justinianus)^(٤) . وتشمل هذه المجموعة — التي صدرت سنة ٥٢٩ — أكثر من أربعة آلاف وستائة وخمسين مرسومًا أو تشريعًا إمبراطوريًا ، بعضها أصدره جستنيان والباقي أصدره أسلافه من الأباطرة^(٥) . ولما كان الإمبراطور جستنيان قد استمر في إصدار كثير من التشريعات والأوامر الإمبراطورية بين حين وآخر ، فإن هذه الأوامر المستحدثه أطلق عليها اسم المتجددات أو القوانين الجديدة (Novellae Constitutiones)^(٦) . ثم كان أن

[1] Eyre : op. cit., p. 40

[2] Cam. Med. Hist., vol. 5; pp. 702-703.

[3] Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 8.

[4] Cam. Med. Hist ; vol. 2, p. 50.

[5] Vasiliev : Hist. de l'Empire Byzantin; Tome 1; p.p. 189-190.

[6] Cam. Med. Hist.; vol. 2; p. 62.

زاد جستنيان عدد أعضاء اللجنة التشريعية الأولى ، وعهد إليها بمهمة أصعب هي جمع وتبويب تراث المشرعين ورجال القانون الرومان . وأخيراً تمخض هذا الجهد الضخم سنة ٥٢٩ عن صدور الموسوعة (Digesta) وهي تجمع خلاصة ما كتبه فقهاء العصر العالى (١٣٠ ق.م - ١٨٤ م) ، وتقع في خمسين كتاباً ، ينقسم كل منها إلى فقرات ، على رأس كل فقرة بيان باسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب وموضوعه^(١) . وبذلك حافظت هذه الموسوعة على أسلوب كبار فقهاء العصر العالى أمثال بولس وألبين وغيرهما^(٢) . على أن هذه الموسوعة كانت أضخم من أن يستطيع الرجوع إليها طلاب القانون في سهولة ، ولذلك أصدر جستنيان موجزاً يسهل على الطلاب استخدامه، وسمى هذا الموجز (القواعد Institutiones) .

ومن مجموعة الدساتير الإمبراطورية والموسوعة وموجز القوانين، نتج ما عرف باسم « مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis » . ولسنا في حاجة إلى التدليل على أهمية هذه المجموعة — وبصفة خاصة الموسوعة — التى لولاها لضاعت جهود فقهاء الرومان ولأصبح من الصعب بل المستحيل الوقوف على دراساتهم القانونية^(٣) . أما وقد حفظت الموسوعة هذه الدراسات والتشريعات التى انجبتها عبقرية الرومان فقد أصبح من الممكن استغلالها في القيام بنهضة قانونية في أوروبا متى سمحت الظروف بذلك . ولم يكن من المنتظر أن تشهد أوروبا مثل هذه النهضة في الظروف العسيرة التى مرت بها في الفترة المظلمة الممتدة حتى القرن الحادى عشر؛ وإن كان من الثابت وجود مدارس قانونية حينئذ في روما وبافيا ورافنا^(٤) . ومهما كان الأمر فإن جانباً كبيراً من جوانب النهضة الأوروبية التى

(1) Idem; p. 60.

(2) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century; p.p.196-197.

(3) Vasiliev : op. cit.; Tome 1, p. 192.

(4) Vinogradoff : Roman Law in Med. Europe; p.p. 38-43.

سطعت في القرن الثاني عشر تمثل في العناية بالدراسات القانونية وإحياء التشريعات الرومانية التي أمكن الوقوف عليها من مجموعة جستنيان . ومن الثابت أن رائد هذه النهضة القانونية في القرن الثاني عشر كان إرنريوس الذي تمتع برعاية ماتيلدا أميرة تسكانا^(١) ، والذي جعل من مدينة بولونا الإيطالية مركزا لمدرسة قانونية عظيمة ناصرت البابوية ونافست مدرسة رافنا ربيبة الإمبراطورية^(٢) . وقد بدأ إرنريوس بدراسة مجموعة جستنيان ، ثم اتخذها محورا لتدريس القانون في بولونا بطريقه منظمه ، معتمدا في ذلك على المناقشة والبحث زيادة على الشرح ، مما يعتبر بداية لنهضة قانونيه فعلية^(٣) .

ويطلق لقب الشراح (glossators) على خلفاء إرنريوس لمدة قرن أو أكثر من الزمان . ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثاني عشر حتى ظهر بعض تلاميذ إرنريوس الذين برزوا في العلوم القانونية ، مثل بلجاروس ومارتين وهوجو ويعقوب ؛ وهم الذين أطلق عليهم اسم الدكاترة الأربعة . ويبدو من الوثائق المعاصرة أن هؤلاء الأساتذة الأربعة حصلوا على شهرة واسعة كمستشارين للإمبراطور فردريك بربروسا في مجمع رونساجليا Roncaglia سنة ١١٥٨^(٤) . أما السبب في إطلاق اسم « الشراح » على خلفاء إرنريوس من أعلام القانون ، فهو أنهم وجهوا جهودهم نحو شرح القانون وعمل تفسيرات وشروحات (glosses) لمواده^(٥) . وامتازت هذه الشروح في أول الأمر بالإيجاز المطلق ، حتى أنها لم تتجاوز كلمات قليلة بين الأسطر وفقا للطريقة الشائعة حينئذ في شرح نصوص الإنجيل . ولكن بتعاقب الشراح ازدادت التفسيرات والتعليقات حتى خرجت من بين الأسطر فامتدت إلى الهوامش الجانبية ، بل لقد فاقت في بعض الأحيان حجم النص

(1) Rashdall : op. cit.; vol. 1; p. 115.

(2) Vinogradoff : op. cit., p. 36.

(3) Rashdall : op. cit; 1; p.p 120-124.

(4) Meynall : The Legacy; p. 367.

(5) Cam. Med. Hist.; vol. 2; p.p. 736-737 .

الأصلي^(١). وأخيرا ضاقت الهوامش عن الشروح والتفسيرات ، فاستلزم الأمر تخصيص كتب خاصة لشرح النصوص القانونية ؛ ومن هذه الكتب ما تناولت كتابا بالتحليل العام — وسمى هذا النوع المجلد Summa ومنها ما اهتم بالمبادئ العامة التي تستقي من كتاب أونص ، وسمى هذا النوع المبادئ Brocarda^(٢).

وهكذا لم تقف جهود شراح بولونا عند تهذيب النصوص القديمة وتحديد معانيها ، وإنما تعدت ذلك إلى تحليل المواد القانونية وشرحها على أساس مناقشتها وتفنيدها في ضوء الأسلوب المنطقي الذي ازدهر في القرن الثالث عشر^(٣). وقد ساعد على ظهور هذه النهضة القانونية في الشطر الأخير من العصور الوسطى ازدهار التجارة ، وحاجة النشاط التجارى إلى دراية بالأصول القانونية من ناحية ، وتفكك النظام الإقطاعى وقيام الملكيات القوية التي ألقت نفسها في حاجة إلى قوانين أوسع أفقا من القوانين المحلية من جهة أخرى . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من نزاع بين البابوية والإمبراطورية ، وحاجة كل فريق إلى دعم مركزه عن طريق الحجج والاسانيد القانونية . ولم يلبث أن امتد الإهتمام بالدراسات القانونية من بولونا وإيطاليا إلى بقية البلدان الأوروبية ، حيث اهتمت الجامعات الناشئة بدراسة القانون اهتماما متفاوتا الدرجات حسب الظروف التي أحاطت بكل منها^(٤).

القانون السكسنى .

وفيا عدا القانون الرومانى ، شهدت العصور الوسطى تقدما كبيرا في القانون السكسنى ، وهو القانون الذى ترجع مبادئه الأولى إلى عصر الإمبراطورية^(٥).

(1) Vinogradoff : op cit.; pp. 46-47.

(2) Haskins : The Renaissance; p. 204.

(3) Meynail : The Legacy of the Middle Ages; p.p. 369-370.

(4) Vinogradoff : op. cit.; pp. 59-131.

(5) Cam, Med. Hist., vol. 5: p.705.

والمقصود بالقانون الكنسى (Canon law) القانون الدينى الذى أخذت به الكنيسة الغربية ذات النفوذ الواسع فى أوروبا العصور الوسطى . فإذا كانت الدولة فى حاجة إلى قانون لتنظيم مرافقها المختلفة ، فإن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى لم تكن أقل حاجة من الدولة إلى قانون خاص بها ؛ لا سيما بعد أن صارت الكنيسة قوة عالمية تجاوزت حدودها كافة الحدود السياسية ، وتمتعت بكل مال الدولة من مقومات . ويكفى أن الكنيسة الغربية كان لها رئيسها الأعلى وهو البابا ، ولها أراضها الواسعة ، ورعاياها من جمهور المسيحيين فى مختلف البلدان الغربية ، كما كانت لها أحكامها وقوانينها ومحاكمها بل سجونها^(١) . وهكذا تمتع رجال الكنيسة بسلطة قضائية واسعة وصارت دور القضاء الكنسية تباشر نفوذاً واسعاً فى غرب أوروبا ، فى وقت غدت المحكمة البابوية بمثابة محكمة استئناف عليا ، تستأنف أمامها القضايا من مختلف بلدان غرب أوروبا وعندئذ يكون مصيرها إما النقض أو الإبرام^(٢) .

على أن هذا النشاط القضائى الذى باشرته الكنيسة استلزم وجود عدد كبير من المتخصصين فى أحكام القضاء الكنسى من جهة ، كما استلزم تنظيم القانون الكنسى وتبويبه ليسهل الرجوع إليه وتداوله من جهة أخرى . والواقع أنه جاء وقت فى العصور الوسطى صارت القوانين الكنسية تعانى كثيراً من مظاهر الإرتباك والتناقض . والمعروف أن القانون الكنسى يستمد أحكامه من الكتاب المقدس وأقوال القديسين ، زيادة على قرارات المجامع الدينية والمراسيم البابوية^(٣) . وكان لابد من ترتيب هذه المادة وتنظيمها ، ولكن لم تبذل محاولات جدية فى هذا الصدد حتى كان القرن الحادى عشر ، وعندئذ ظهرت عدة محاولات قام بها برخارد اسقف وورمز (Burchard of Worms) وانسلم اسقف لوكسا

(1) Haskins : The Renaissance; p.p. 213-214.

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government; p. p. 359-381.

(3) Stephenson : Med. Hist.; p. 340 & Cam. Med. Hist.; vol.5, p.706.

(Anselm of Lucca) وايقو Ivo اسقف شارتر^(١) . على أنه لا يوجد شك في أن أهم محاولة شهدتها العصور الوسطى لتنظيم القانون الكنسي كانت تلك التي قام بها جراشيان Gratian في القرن الثاني عشر ، وهو الذي نجح في فصل اللاهوت عن القانون الكنسي ثم تنظيم هذا القانون وترتيبه^(٢) ، وقد وضع جراشيان مجموعة للقانون الكنسي نسبت إليه وانقسمت إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتألف من مائة باب وباب تعالج مصادر القانون الكنسي ، والقسم الثاني يشمل نحواً من ست وثلاثين قضية مختارة مع مناقشة هذه القضايا في ضوء القانون الكنسي ، وأخيراً يشمل القسم الثالث خمسة أبواب في العبادة والطقوس الكنسية^(٣) . وسرعان ما أحرز عمل جراشيان أهمية كبرى حتى جعلته الكنيسة في مقدمة مجموعة القانون الكنسي Corpus Juris Canonici التي قامت بجمعها . وهنا نلاحظ أن البابوية اختارت لمجموعة القوانين الكنسية اسماً مطابقاً لاسم مجموعة جستنيان في القانون المدني (Corpus Juris Civilis) مما يدل على أن القانون الكنسي اقتفى أثر القانون الروماني في تطوره^(٤) . والواقع أن العلاقة بين القانون الكنسي والقانون المدني الروماني كانت قوية واضحة ، كما بدت في ثلاث نواح هامة : أولها أن القانون الروماني كان مصدراً قوياً استقى منه القانون الكنسي ، وثانيها أن القانون الكنسي اقتفى أثر القانون الروماني في تطوره وترسم خطاه في دراسته ، وثالثها أن القانون الكنسي جاء بمثابة رد فعل قوى للقانون الروماني حتى يكون للبابوية سند قوى تستند إليه كما استندت الامبراطورية إلى القانون المدني^(٥) .

(1) Eyre : op. cit. p. 275.

(2) Gabriel le Bras : The Legacy of the Middle Ages; p. 326

(3) Haskins : The Renaissance; p. 215.

(4) Stephenson : op. cit. vol. 1, pp. 341.

(5) Rashdall : op. cit.; vol. 1, pp 132-134.

ومن البابوات الذين عنوا عناية فائقة بتنظيم القانون الكنسى وتبويبه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) والبابا لوكيوس الثالث (١١٨١ — ١١٨٥) والبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١)^(١). وهكذا تم تنظيم القانون فأصبح مادة قائمة بذاتها تدرس فى الجامعات الأوربية الناشئة إلى جانب القانون الرومانى . هذا إلى أن البابوية رأت فى انتشار القانون الكنسى توسيعاً لنفوذها وتقوية لسلطانها ، وأدركت أن هذا القانون يحد منافساً خطيراً فى القانون الرومانى — الذى ييجاد دائماً سلطة الإمبراطورية والأباطرة — لذلك لجأت البابوية سنة ١٢١٩ إلى تحريم دراسة القانون الرومانى على رجال الدين فى جامعة باريس .

وخلاصة القول إن العصور الوسطى شهدت نشاطاً كبيراً فى ميدان القانون والتشريع ، وهو نشاط أخذ فى الازدياد كلما اقتربت تلك العصور من نهايتها نتيجة لازدياد النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى القارة الأوربية .

(1) Cam, Med. Hist, vol., 5, pp. 713-714.

الباب الثامن

العلوم

ظلت الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر بأن العلوم — بمعناها البحث الحديث — لم تكن معروفة في أوروبا العصور الوسطى . ومن الواضح أن هذه الفكرة تحوى كثيراً من الخطأ والمبالغة ، لأن العصور الوسطى بوجه عام عرفت العلوم والدراسات العلمية بنسبة تفاوتت بتفاوت النشاط الفكري الذي شهدته تلك العصور^(١) .

والواقع أنه يمكن تقسيم تاريخ العلوم في العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى أو المظلمة وتشمل الفترة بين سنتي ٤٠٠ ، ٩٠٠ ومهمتها إيصال بقايا تراث الفكر القديم إلى العصور التالية ؛ والمرحلة الثانية وتشمل الفترة بين سنتي ٩٠٠ ، ١٢٠٠ وهي التي شهدت تدفق العلوم والمعارف العربية على غرب أوروبا ، وأخيراً تأتي المرحلة الثالثة الممتدة حتى نهاية العصور الوسطى وتثل عصر ازدهار الدراسات العلمية ، وهو الإزدهار الذي أدى إلى النهضة العلمية في العصور الحديثة^(٢) .

الدور الأول : التطور العلمي في فجر العصور الوسطى :

يبدو أن الجانب الذي وصل إلى العصور الوسطى من التراث العلمي للعصور القديمة لم يكن عظيماً في كمه أو موضوعه ، لأن الرومان كانوا قومًا عمليين لم يهتموا كثيراً بما خلفه اليونان من تراث علمي ؛ فاكتفوا بتختصرات أبحاث اليونان

(١) Hearnshaw : Med. Contributions to Modern Civilization, p. 106.

(٢) Idem ; pp. 114-115.

وأهملوا أصول هذه الأبحاث التي ظلت مجهولة في غرب أوروبا حتى القرن الثاني عشر، عندما عرفها الغربيون عن العرب. ومع ذلك فإن بعض المختصرات والكتيبات اليونانية حظيت بأهمية كبيرة في غرب أوروبا في العصور الوسطى، مثل كتابات جان Galen في الطب التي ظلت متداولة حتى عرفت مؤلفاته كاملة في مدرسة سالرنو في القرن الحادى عشر؛ وذلك من طريق ترجمة هذه المؤلفات عن التراجم العربية التي نقلت عن الأصل اليوناني^(١). أما في الرياضيات، فقد شغف الرومان بالمساحة والتخطيط، حتى صرفهم إهتمامهم بهذه الناحية عن الرياضيات البحتة. وقد قام منلاوس السكندري Monelaos of Alexandria ببعض أبحاث فلسفية في روما سنة ٩٨ م، كما ألف بحثاً في حساب الأوتار وآخر في الكرويات، ولكن قدر لهذه الأبحاث التي وضعها منلاوس أن تظل في طي النسيان حتى القرن الثاني عشر عندما عرفها غرب أوروبا لأول مرة في العصور الوسطى^(٢).

ويبدو أن هيمنة الكنيسة واللاهوت في العصور الوسطى كانت من العوامل الأساسية التي أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات العلمية، لأن العقيدة المسيحية — كما قال المعاصرون — تقوم على أساس الإيمان في حين يعتمد العلم على العقل^(٣). ويكفى أن يطالع الفرد على كتابات مفكرى العصور الوسطى — مثل القديس أوغسطين — ليدرك مدى التأخر العلمى الذى كانت عليه بلاد الغرب المسيحية. هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعى المحيط بهم. فالقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) يبدى دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيداً للتأمل في إرتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب ويهملون التأمل في أنفسهم. بل إن القديس أوغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض التي عرفها اليونان قبل ذلك

(1) Dampier: A Hist. of Science; pp 61-62.

(2) Thompson: op. cit; vol 2; p. 777.

(3) Cam. Med. Hist.; vol; 8; 661.

يقرون ، ويصرح بأن فكرة التقاطيرين — الذين يحيون في الجهة المقابلة من سطح الأرض — إنما هي فكرة خاطئة هرطقية^(١). وإلى جانب هذا الإنحطاط في التفكير العلمي ، انتشر الإعتقاد في الخرافات والمعجزات بين أهالي أوروبا العصور الوسطى ، حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية^(٢). على أنه ليس معنى ذلك أن التفكير العلمي انعدم تماماً في هذه الفترة المظلمة من أوائل العصور الوسطى ؛ إذ وجد من المفكرين من أعطى الدراسات العلمية قسطاً من عنايته . فالفيلسوف المعروف بيوثيوس (٢٨٠ — ٥٢٤) دون عدة رسائل عظيمة ونافعة ، أحداها في علم الحساب (De institutione arithmetica) والثانية في الموسيقى (De institutione musica) والثالثة في علم الهندسة (Geometrica)^(٣). كذلك زود مارتينوس كابلا (ت ٥٠٠) غرب أوروبا بدائرة مغارف كاملة في تسعة كتب تناولت الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، زيادة على النحو والجدل والبلاغة وغيرها . ويبدو أن الفلك والرياضيات بوجه خاص احتلت مكانة خاصة عند المعاصرين لأهميتها في تحديد الأعياد الدينية^(٤).

ولم تكن الدولة البيزنطية في حال أحسن من الغرب من حيث التقدم العلمي . ذلك أن الإمبراطور جستنيان أغلق مدارس آثينا سنة ٥٢٩ ، وبذلك انطفأت شعلة علوم اليونان وفلسفتهم في هذا الركن الشرقي من أوروبا ، وفر إلى البلاط الفارسي جمع من علماء تلك المدارس ؛ مما جعل عاصمة الفرس أعظم مركز ثقافي في ذلك العصر ، فازدهرت فيها الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة بعد أن التقت فيها علوم اليونان بعلوم الهند^(٥).

(1) Thorndike: A Hist. of Magic and Experimental Science, vol. 1; pp. 504-522.

(2) Coulton: Life in the Middle Ages; ; vol. 1; pp. 41-44.

(3) Hearnshaw: Med Contributions to Modern Civilization; p. 116.

(4) Cam. Med. Hist. 4 vol. 3; p. 535

(5) Vasiliev: op cit.; Tome 1, p. 198.

ثم كان أن ظهر الإسلام وقامت الدولة الإسلامية ، فأدى فتح العرب لفارس والشام ومصر إلى انتقال التراث العلمى الذى خلفه اليونان والفرس والهندوس إليهم ؛ وأصبحت بغداد مركزا نهضة علمية كبرى فى الوقت نفسه الذى قامت النهضة السكارولنجية فى غرب أوروبا . على أنه يلاحظ أن هذه النهضة الأخيرة كانت تعليمية ، اهتمت بإحياء الآداب دون أن يكون للعلوم نصيب منها^(١) . وتمثل أقصى ما وصلت إليه المعرفة العلمية فى غرب أوروبا فيما بين القرنين السابع والتاسع فى موسوعة ايسيدور القشتالى (ت ٦٣١) ومؤلفات بدى (ت ٧٣٥) ومعجم سالومونيس Glossae Salomonis الذى وضع فى دير سانت جال ونسب إلى سالومونيس الثالث رئيس أساقفة كونستانس . وجميع هذه المؤلفات الثلاثة السابقة استلهمت مادتها واستمدت معلوماتها من كتاب التاريخ الطبيعى لمؤلفه . يلىنى العالم الرومانى القديم^(٢) .

الدور التالى : وصول علوم العرب إلى غرب أوروبا :

وإذا كانت العلوم قد اضمحلت فى غرب أوروبا فى أوائل العصور الوسطى ، فإنها ازدهرت فى الشرق الإسلامى . ولم يكن كل العلماء الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية من العرب ، لأن كثيرا منهم كانوا فرسا أو يهودا مستعربين ؛ ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التى أضحت اللغة العالمية السائدة من حدود الهند والصين شرقا إلى أسبانيا غربا^(٣) . وقد امتازت هذه النهضة الإسلامية من أول الأمر بطابعها العالمى ، مما جعل الفرق واضحا بينها وبين النهضة السكارولنجية من جهة والنهضة البيزنطية فى القرن التاسع من جهة أخرى^(٤) . ذلك أن الظروف

(1) Thompson : op. cit. ; vol. 2; p. 777.

(2) Hearnshaw : Med. Contributions; p 118.

(3) Dampier : op. cit.; p. ٤2.

(4) Eyre : op. cit.; pp.294- 295.

الجغرافية والتاريخية شاعت أن تجعل الدولة الإسلامية ملتقى التيارات الفكرية اليونانية والفارسية والهندية . وليس هذا هو موضع الغرابة وإنما الملاحظ هو أن الرياضيات الهندية تقدمت وتطورت مستقلة بعيدة عن نفوذ الرياضيات اليونانية حتى التقى التياران معا في كنف المدارس الإسلامية وبين رجاها^(١) .

وبضيق بنا المقام عن ذكر أسماء علماء العرب المبرزين فيما سنتي ٧٥٠ ، ١١٠٠ ؛ وما قام به هؤلاء العلماء من أعمال تركت أثرا بارزا في تاريخ الحضارة ؛ ولكننا نكتفي بالإشارة إلى بعضهم . فمن هؤلاء العلماء جابر بن حيان الكوفي في القرن الثامن الذي اشتغل بالكيمياء وألف فيها موسوعة كبيرة ضمنها وصف كثير من المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل ، مثل حامض النيتريك (ماء الفضة) والبوتاس وروح النشادر وغيرها ؛ كما وصف كثيرا من العمليات الكيميائية مثل التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور^(٢) . وبعد ذلك يأتي الخوارزمي في القرن التاسع ، وهو الرجل الذي نبغ في الرياضيات والفلك والجغرافيا ، ومزج الرياضيات اليونانية بالهندية ، ووضع قواعد علم الجبر وصنف فيه . ثم يأتي البتاني المتوفى سنة ٢٩٠ هـ ، وهو من أعلام الفلكيين بفضل ماتوصل إليه من نتائج بارزة جديدة في علم الفلك^(٣) . أما الرازي (ت ٩٢٣) فكان من أشهر أطباء العرب وألف كثيرا من المراجع الكبيرة في الطب ؛ وشاركه في هذا الميدان العلمي ابن سينا (١٠٣٧) الذي كان أشهر أطباء المسلمين على الإطلاق ، حتى أن كتابه « القانون » يعتبر أكبر دائرة معارف طبية عرفها الشرق والغرب جميعا في العصور الوسطى^(٤) . أما الحسن بن الهيثم (ت ١٠٣٠) فكان من أشهر العلماء في الطبيعة فاشتغل بالعدسات والبصريات وكتب في

(1) Dampier : op. cit. ; p. 100.

(2) Cam Med. Hist. ; vol ; 8 ; p. 667.

(3) Delambre : Hist. de l'astronomie du Moyen Ages ; pp. 10-60.

(4) Cam. Med. Hist. ; vol. 4 ; p. 297.

الفضوء والمرایا رسائل عديدة ، اعتمد عليها واستفاد منها بعد ذلك بقرنين روجر بيكون في الغرب^(١) . وأخيرا نختتم هذه السلسلة من مشاهير علماء الإسلام بلاشارة إلى عمر الخيام — أبرز الرياضيين في الربع الأول من القرن الثاني عشر . على أن الحياة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي أخذت تستنفد قوتها تدريجيا منذ ذلك الحين بعد أن حمل المسلمون لواء المعرفة في العالم — شرقية وغربية — عدة قرون توصلوا فيها إلى معارف ونتائج جديدة ، لم يعرفها معاصروهم من الأمم إلا عنهم ؛ الأمر الذي جعل الحضارة الإسلامية — باعتراف الغربيين — أعظم حضارة شهدها العالم على الإطلاق في العصور الوسطى^(٢) .

ذلك أن العرب استخدموا نظام الأعداد الهندي واستخدموا الصفر في الحساب^(٣) ، وكشفوا عن أصول الجبر وأضافوا إليها حتى خالقوا منها علما حقيقيا طبقوه على الهندسة . أما في الهندسة وحساب المثلثات ، فإنهم لم يبقوا عند معلومات اليونان التي توصل إليها إقليدس وغيره ، وإنما جددوا وأضافوا إضافات جديدة لم يعرفها غيرهم من قبل ؛ فأدخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات وأقاموا الجيوب مقام الأوتار وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا في أبحاث الخروطات ؛ كما تقدموا بالميكانيكا ووصفوا كثيرا من آلاتهم في كتبهم . وفي النلك انتشرت المراصد العربية في جميع بلدان المشرق والمغرب^(٤) ، واستطاع علماء المسلمين تعيين انحراف سمت الشمس تعيينا دقيقا وحددوا طول السنة الشمسية بالضبط ، ووضعوا جداول لأمكنة الجداول السيارة ، وتوصلوا إلى نظرية دوران الأرض ؛ واستخدموا الاسطرلاب والبوصلة ، كما صححوا كثيرا من لأخطاء التي وقع فيها من سبقهم ولا سيما ما يتعلق بتقدير بطليموس السكندري لعرض البحر المتوسط^(٥) .

(1) Dampier op. cit., p. 101.

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, pp. 778-779.

(3) Ball : A Short Account of the Hist. of Mathematics; p. 156.

(4) Cam Med. Hist , vol. 4, pp. 278-299.

(5) Delambre : op. cit., pp. 10-60.

أما في الطبيعة فقد توصل المسلمون إلى نتائج فائقة في الجسديت والبصريات والمرآيا السكزية ، وأجروا تجارب لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته ، كما حللوا النظريات المتعلقة بالجاذبية ومركز الثقل^(١) . كذلك في الكيمياء توصلوا إلى كثير من العناصر وحاولوا تحليلها أو تركيبها ، واستخدموها في تجاربهم أجهزة لم تكن معروفة من قبل ، كما استخدموا القوة الناجمة عن انفجار البارود في دفع قذائف إلى مسافات بعيدة . وأخيراً خطا المسلمون بالطب خطوات واسعة فشخصوا كثيراً من الأمراض المستعصية ، واستغلوا معلوماتهم في الكيمياء لإيجاد علاج لها ، كما ألفوا كثيراً من المراجع الجامعة في وصف الأمراض وطرق علاجها وخصائص الأدوية^(٢) .

ولا يتسع هذا البحث للافاضة في أهمية النتائج العلمية التي توصل إليها العرب في الوقت الذي كانت أوربا تتخبط في ظلمات الجهل . ولكن المهم هو أن هذه العلوم والنتائج التي توصل إليها المسلمون أخذت تنتقل إلى غرب أوربا قبل أن يبدأ نجم الحضارة الإسلامية في الأفول^(٣) . أما المعابر الرئيسية التي انتقلت منها هذه الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي فكانت أسبانيا ثم صقلية ثم المشرق حسب ترتيب أهميتها^(٤) . وعلى الرغم من أن المسلمين كان لهم مركزان ثقافيان كبيران في الغرب هما الأندلس وصقلية ، إلا أن الاتصالات الثقافية بين الغرب المسيحي من جهة والدراسات العربية من جهة أخرى ظلت محدودة حتى أواخر القرن الحادى عشر . ولعل من أسباب ذلك صعوبة تعلم اللغة العربية ، حتى ظهر فريق من الأوربيين أدركوا أهمية هذه الدراسات وأقبلوا

(1) Singer : From Magic to Science; p 90.

(2) Browie : Arabian Medicine, pp. 55-73.

(3) Cam. Med Hist., vol. 8, p 667.

(4) Hearnshaw. Med. Contributions, p, 123.

على ترجمتها إلى اللاتينية في حاسة ومثابرة^(١). وأول هؤلاء المترجمين الأوربيين كان قنسطنطين الإفريقي (Constantinus Africanus) ، وهو من مواليد قرطاجة ، رحل إلى الشرق حتى انتهى به المقام سنة ١٠٥٦ في دير مونت كاسينو حيث انتظم به راهباً إلى أن توفي سنة ١٠٨٧ . وقد قام قنسطنطين هذا بترجمة بعض المؤلفات العربية أهمها الكتاب الذي ألفه على بن العباس في القرن العاشر في الطب^(٢) ، هذا فضلاً عن بعض التراجم العربية لكثير من المؤلفات اليونانية القديمة مما ترك أثراً عميقاً في دراسة العلوم في جنوب إيطاليا ، حتى أن مدرسة الطب في سالرنو تدين بنشأتها إلى تراجم قنسطنطين الإفريقي . كذلك ظهر في دير ريشنو Reichenau — وهو أحد الأديرة البندكتية في سويسرا — راهب اسمه هرمان الكسيح (Hermann the Cripple) (١٠١٣ - ١٠٥٤) ، كتب أبحاثاً هامة في الرياضيات والفلك استعان بها خلفاؤه في القرن التالي . وإذا كانت معرفة هرمان هذا باللغة العربية موضع شك كبير ولا سيما أن عاهته حالت دون سفره إلى أسبانيا أو غيرها من مواطن الدراسات العربية إلا أن كتاباته تعبر عن كثير من التيارات والمؤثرات العربية ، مما يرجح وصول هذه المؤثرات إليه عن طريق رجال العلم المتنقلين في ذلك العصر^(٣) . ثم كان أن اشتد تيار حركة الترجمة عن العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ففي صقلية وجنوب إيطاليا ترجم ايوجينيوس البالرمي (Eugenius of Palermo) كتاب المراثيات لبطليموس السكندري عن العربية سنة ١١٥٠ وأعقب ذلك ترجمة مؤلفات أخرى لبطليموس السكندري وبخاصة في الفلك والرياضيات عن العربية . واشتهر من المترجمين الصقليين عندئذ فوج بن سالم اليهودي (ت ١٢٨٥)^(٤) .

(1) Hearnshaw : Med. Contributions, p 123

(2) Rashd il : op cit , vol 1, p 81.

(3) Hearnshaw : Med. Contributions; p. 120.

(4) Singer : op. cit , p. 81.

على أن أسبانيا كانت الملتقى الطبيعي للفتين العربية واللاتينية ، بعد أن ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وازدهمت مدنها بالمؤلفات العربية في العلوم والنسفة وغيرها . ثم كان أن ساعد سقوط طليطلة في أيدي المسيحيين سنة ١٠٨٥ على اتجاه كثير من طلاب المعرفة إليها لآزود من الدراسات العربية الإسلامية سواء كانت خالصة أو مترجمة عن اليونانية ، حتى أصبحت طليطلة بالذات المركز الرئيسى لحركة الترجمة عن العربية^(١) . ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا في ذلك العصر للوقوف على المعارف العربية وترجمتها إلى اللاتينية أديلارد البائى وهرمان وجيرارد الكريمنى وروبرت الشستري وغيرهم^(٢) . هذا فضلا عن اليهود والمستعربين الأسبان الذين عكفوا على ترجمة المؤلفات العربية مثل دومونيقوس جونديسالني Dominicus Gundisalvi و بطرس ألفونسى Petrus Alfonsi وحنا الأشبيلي John of Seville وغيرهم . وإلى ريموند رئيس أساقفة طليطلة يرجع الفضل في انتعاش حركة الترجمة عن العربية ، إذ أنشأ مكتبا لترجمة أمهات الكتب التى ذخرت بها طليطلة في النصف الأول من القرن الثانى عشر^(٣) .

وقد ترتب على هذه الحركة ثورة علمية وفكرية شاملة في غرب أوروبا . ذلك أن المعارف الجديدة التى نقلت من العربية إلى اللاتينية جعلت الأوربيين يفيقون من الظلمة والجهالة التى عاشوا فيها قرونا طويلة ويقبلون على الدراسات العلمية الجديدة في شغف ونهم . ففي الحساب عرفت أوروبا نظام الأعداد الهندى عن العرب ، وهو النظام الذى تتغير فيه قيمة الرقم بتغير وضعه من خانة الآحاد إلى العشرات أو المئات . . . ؛ وبذلك أخذت أوروبا تنبذ نظام الأرقام الرومانية 'المقيم الذى وقف عقبة كشودا في سبيل تقدم العمليات الحسابية'^(٤) . وقد نسب

(1) Hearnshaw : Med. Contributions, p 123

(2) Singer : From Magic to Science, p. 80.

(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 353.

(4) Eyre : op. cit., p. 298

الأوروبيون هذا النظام العددي الجديد إلى الخوارزمي العالم الرياضى الشهير الذى ترجمت بعض أبحاثه إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر^(١). ويرجح أن البابا سلفستر الثانى (ت ١٠٠٣) — الذى قضى بعض السنوات فى شمال أسبانيا — كان من أوائل الأوربيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربى إلى الغرب ؛ هذا بالإضافة إلى ما قام به ذلك البابا من تشجيع ترجمة بعض المؤلفات العربية التى توضح وظيفة الاسطرلاب^(٢). أما الصفر فلم تعرف أوروبا استعماله إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر ؛ حتى قال بعض الكتاب المحدثين إن فكرة الصفر تعتبر أعظم هدية قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا^(٣). ونستطيع نحن أن ندرك أهمية الصفر فى علم الحساب إذا تصورنا كيف يكون الحساب بلا صفر . وفى سنة ١١٤٥ ترجم روبرت الشستري كتاب الخوارزمي فى الجبر إلى اللاتينية ، وبذلك عرف الغرب الأوروبى علما جديدا لأول مرة . أما فى الهندسة وحساب المثلثات فقد ترجم كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية ، وبخاصة جداول حساب المثلثات التى وضعها الخوارزمي والتى ترجمها أدلارد الباثى^(٤). وفى الفلك ترجم الأوربيون كتاب « الزيج الصابى » للبتانى عدة مرات إلى اللاتينية فازدادت معرفة الغربيين بهذا العلم . أما فى الطبيعة ، فقد ترجمت بعض مؤلفات الحسن بن الهيثم (ت ١٠٢٠) والخازن البصرى (ت ١٠٣٨) إلى اللاتينية ؛ وعن هذه المؤلفات استقى روبرت جروسست Robert Grosseteste وروجر بيكون وغيرهما معلوماتهم . كذلك ترجم الأوربيون مؤلفات جابر بن حيان الكوفى فى الكيمياء ، كما ترجموا بعض مؤلفات الرازى وابن سينا فى الطب^(٥).

(1) Bail : op. cit., p. 156.

(2) Hearnshaw : Med. Contributions, p. 120.

(3) Eyre : op. cit., p. 229.

(4) Bail : op. cit., p. 165.

(5) Hearnshaw : Med. Contributions, p. 127.

المرور الثالث : ازدهار العلوم في غرب أوروبا :

ويبدو أن وصول هذه المعارف العلمية الجديدة إلى غرب أوروبا أثار فزع الكنيسة التي خشيت أن ينشأ عن الإهتمام بها إضعاف شأن اللاهوت وإهماله^(١) على أن الكنيسة كانت لا تستطيع منع تداول هذه المعلومات ودراستها ، ومن ثم لجأت إلى التوفيق بينها وبين اللاهوت حتى لا ينتهى الأمر إلى زعزعة الثقة في تعاليم الكنيسة^(٢) . ومع أن العصور الوسطى لم تعرف خطأ فاصلاً — كالذى نعرفه اليوم — بين مظاهر الدين ومظاهر العلم ؛ إلا أننا يمكننا تقسيم المجتهدين في القرن الثالث عشر إلى فريق حصر إهتمامه الرئيسى في اللاهوت والعقيدة وفريق آخر اتجه نحو العلوم^(٣) . وعلى رأس الفريق الأول كان أسكندر الهالبسى (Alexander of Hales) والقديس توما الأكوينى ، في حين برز من الفريق الثانى روبرت جروسستست أسقف لنكولن (ت ١١٥٣) ، وميخائيل سكوت الذى تتمتع برعاية الإمبراطور فردريك الثانى والبرت الكبير Alibertus Magnus (ت ١٢٨٠) ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً يأتى روجر بيكون (ت ١٢٩٤)^(٤) . وهنا تسترعى نظرنا ظاهرتان واضحتان ، الأولى أن معظم هؤلاء الأعلام من المهتمين بالعلوم الجديدة كانوا من الإنجليز — مثل أديلارد البائى وروبرت الشسترى ودانييل المورلى (Daniel of Morley) وجروسستست وروجر بيكون ؛ في حين كان ميخائيل سكوت إنجليزياً من أصل أيرلندى . أما الظاهرة الثانية فهى أن معظم هؤلاء الأعلام كانوا من منظمة الدومينكان أو منظمة الفرانسكان ، وإن كان الفارق واضحاً بين هاتين المنظميتين الدينيتين . فبينما كان علماء الدومينكان يغلب

(1) Coulton : Life in the Middle Ages, vol 2, pp. 58-62.

(2) Taylor : Med. Mind, vol 2, p. 432-436.

(3) De Wulf - op cit, pp. 256-259.

(4) Dampier - A Hist of Science, p 91.

عليهم طابع المحافظة في الناحية الفكرية ، والرغبة في التوفيق بين العلوم القديمة والجديدة للمحافظة على كيان التقاليد والدين ؛ إذا بالفرانسكان يغلب عليهم طابع التطرف والمغالاة ونقد القديم والثورة عليه^(١) .

على أن قصور عقلية العصور الوسطى في مجال التفسير العلمي حال دون إدراك وحدة الطبيعة ، فالإنسان في العصور الوسطى اعتقد أن كل شيء له قيمة وأهمية منفصلة عن قيمة أى شيء آخر وأهميته. وكان روجر بيكون هو الذى أدرك أكثر من غيره أن الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة ومتآلفة، وهو التآلف الذى يؤدي إلى وحدة الطبيعة ؛ فقال بأن الطبيعيات والكيمياء والفلك والرياضيات تؤدي إلى وظائف مختلفة لشيء واحد هو الطبيعة . هذا مع الإعراف بأن سيكون آمن بكثير من الآراء والمعتقدات التى سادت عصره وأهمها أن الغرض الأساسى من الدراسات العلمية والفلسفية هو خدمة اللاهوت^(٢) . ويبدو أن يكون استقى الإلهام الأول لأفكاره من جروسست الذى أخضع الطبيعيات والكيمياء والفزيولوجيا وغيرها لهندسة الكون . فجميع المظاهر الطبيعية في نظر جروسست كان يمكن ارجاعها إلى خطوط وزوايا ومسطحات ، والدائرة هى الشكل التام لأن الضوء ينتشر على شكل دائرى^(٣) .

أما النتائج التى توصل إليها سيكون --- رائد البحث العلمى بمعناه الحديث — فىمكن تلخيصها فيما يلى : أولا . أنه حاول وضع نظام للمعرفة الطبيعية يفوق المستوى الذى كان قائما في عصره ويعتمد قبل كل شيء على المشاهدة والتجربة ؛ وثانيا أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الأجنبية والقديمة فحاول أن يتعلم اليونانية والعبرية على أسس علمية وكذلك العربية . وثالثا أنه طبق أسسه به

(1) Thompson : op. cit, vol 2 p. 785.

(2) Dampier : op. cit., p. 160.

(3) Thorndike : Hist of Magic; vol, 2, p.p. 436-456.

التجريبى فى الوصول إلى نتائج هامة فى البصريات والعدسات والنلك والجغرافيا والرياضيات وغيرها^(١). وهكذا استطاع ييكون أن يتنبأ بإمكان الوصول إلى اختراع سفن تسير بآلات دون حاجة إلى مجدف أو شراع ، وطائرات يحرك الإنسان أجنحتها كما يفعل الطير ، ومفرقات ملتهبة تبيد الجيوش ، وروافع ضخمة لرفع الأثقال ، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام ، ومصاييح تضى دون أن ينفذ وقودها . . . إلى غير ذلك من الاختراعات التى توصل إليها الإنسان فعلا فيما بعدوالتي تثبت أن ييكون رسم للعالم الحديث الطريق الذى سار فيه^(٢).

ومن هذا يبدو أن علماء الغرب فى العصور الوسطى لم ينقصهم النشاط الفكرى وإنما أعوزهم التنفيذ العملى . فعلماء العصور الوسطى كانوا أقل جهلا مما تتصور ، فلم يوجد منهم من اعتقد أن الأرض مسطحة ، كما عرفوا سبب خسوف الشمس فى حين قضى أحدهم — وهو أديلارد الباثى — عامين فى دراسة ظاهرة المد والجزر وتوصل إلى نظرية معقولة لهذه الظاهرة ؛ كما قال بمبدأ خلود المادة وعدم فناؤها وإن لم يستطع إثبات هذا المبدأ لعدم توافر المعامل والأجهزة أمامه^(٣). أما نظريات البصريات والعدسات فقد استقاها علماء الغرب من العرب ، فأفاض روجر ييكون فى وصف العدسات وأهميتها فى تكبير الكتابة ورؤية ما لا يمكن رؤيته بالعين المجردة . هذا فى حين قضى دونس سكوت Duns Scotus شتاء فى باريس فى حساب الاعتدالين مستعيناً بالرياضيات العربية واليونانية^(٤).

ومعنى ذلك أن العالم الحديث يدين للعصور الوسطى بكثير من قواعد التقدم العلمى . فالقرن الثالث عشر كان لا يقل عن عصر النهضة الإيطالية فى سرعة التقدم العلمى . وقد بلغت المعرفة العلمية فى القرن الثالث عشر درجة

(١) Hearnshaw : Med. Contribution ; p p. 142-143,

(٢) Thorndike : cit.; vol. 2, p.p. 654-655.

(٣) Thompson : op. cit.; vol. 2, p. 786.

(٤) Ibid.

من الخزارة والتنوع واجتذاب اهتمام الناس ، بحيث أصبح من المتعذر الاكتفاء بمؤلفات بلينى وإيسيدور . وهنا ظهرت مجموعة من مؤلفي الموسوعات العلمية الضخمة مثل اسكندر نكام Alexander Neckham (١١٥٧ — ١٢١٧) الذي كتب في « طبيعة الأشياء »^(١) ، وبارثولميونجليكوس Bartholomew Anglicus الذي ألف في « خصائص الأشياء » . وفيما عدا هذين الانجليزيين ظهر فنسان الفرنسي Vincent de Beauvais (ت ١٢٦٤) الذي كتب ثلاثة مؤلفات هي « مرآة الطبيعة » و « مرآة العقيدة » و « مرآة التاريخ »^(٢) .

ولا يفوتنا في ختام هذا العرض السريع للتطور العلمي في العصور الوسطى أن نشير إلى الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٤ — ١٢٥٠) الذي كان أكبر راع للعلم والعلماء في عصره^(٣) . وليس هذا مجال الكلام عن شخصية فردريك الغريبة ذات الجوانب المتعددة ، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أنه أولع بالبحث عن كل أمر غريب للوقوف على حقيقته ؛ كما شغف بمختلف الدراسات اللغوية والفلسفية والرياضية والفنية والعلمية^(٤) وقد انتهز فردريك فرصة حضوره إلى الشرق للمشاركة في النشاط الصليبي وأخذ يبحث في المسائل المتعلقة بالهندسة والفلك والمنطق والبصريات . أما اهتمامه بالطب ووظائف الأعضاء فكان عظيما . وقد حظى برعاية الامبراطور فردريك الثاني عدد كبير من العلماء أشهرهم ميخائيل سكوت الذي دخل بلاط الامبراطور حوالي سنة ١٢٣٧ وكتب له عدة أبحاث في العلوم الطبيعية والمنطق والفلك والميتافيزيقا والكيمياء^(٥) . كذلك اتصل ليونارد البيزى — أشهر علماء الرياضة في عصره — ببلاط الإمبراطور فردريك بوحل عدة مشا كل رياضة في حضرة الامبراطور ، كما ألف له بعض المصنفات

(1) Gilsen : op. cit. ; p.p 326-327.

(2) Idem; p 402.

(3) Kantorowicz : Frederick the Second; p.p. 334-336.

(4) Haskins : Studies in Med. Culture; p 124.

(5) Thorndike : op. cit ; vol. 2, pp. 316-317.

الرياضية^(١). وقد اعتاد فردريك الثانى أن ينعم بجوائز سخية على كل عالم يقدم إليه شيئاً جديداً يسترعى انتباهه فى ميدان العلم ، مما جعل منه أكبر راع للدراسات العلمية فى عصره^(٢).

* * *

وهكذا شهدت العصور الوسطى نشاطاً علمياً غزيراً استمر منذ ظهور المسيحية حتى القرن السادس عشر. والواقع أنه يمكن اختيار سنة ١٤٥٣ لتكون حداً فاصلاً بين النشاط العلمى فى العصور الوسطى والحديثة ، إذ ظهر فى هذه السنة بحثان علميان قاما على أساس الطريقة العلمية التجريبية بحيث يبدو أن أقرب إلى طريقة التفكير الحديثة منهما إلى طريقة العصور الوسطى. أما البحث الأول فقد كتبه رجل بلجيكي اسمه أندرياس فساليوس Andreas Vesalius ويتناول البحث فى تركيب الجسم الإنسانى وبنائه (De Fabrica Corporis Humani) ؛ فى حين كتب البحث الثانى رجل بولندى اسمه نيقولا كوبرنيقوس Nicholas Copernicus ويتناول فيه حركة الأجرام السماوية ودورانها ؛ (De revolutionibus orbium coelestium)^(٣).

(1) Kantorowicz : Fredrick the Second; pp. 341-343

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p.p. 787-790.

(3) Hearnshaw : Med. Contributions; p.p. 111-112.

الباب التاسع

الآداب

التطور الأدبي واللغوي في فجر العصور الوسطى :

لم تقتصر مظاهر ضعف الإمبراطورية الرومانية وانهيارها على ما أصابها من تدهور إداري واقتصادي واجتماعي ، وإنما انعكست صورة هذا الانحلال أيضاً في انحطاط اللغة اللاتينية وغروب شمس الأدب الكلاسيكي القديم^(١) . على أنه ربما كان في إطلاق لفظ « انحطاط » على التغيير الذي اعتري اللغة والأدب عند نهاية العصور القديمة شيء من التطرف أو البعد عن الواقع ، إذا نظرنا إلى هذه التغييرات على أنها جانب من التطور العام الذي مرت به أوروبا لتلائم اتجاهات العصور الوسطى وحضارتها . فهذه التغييرات إذاً يمكن اعتبارها تعويضاً عن الخسائر التي ألت بالحضارة القديمة ، أو بعبارة أخرى يمكن اعتبارها محاولة لإحلال شيء جديد محل آخر قديم مفقود^(٢) .

والواقع أن اللغة اللاتينية تعرضت لتغييرات ضخمة في مدى القرنين ونصف القرن الواقعة بين تاكيتوس (٥٥ ... ١٢٠) وأوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) . ذلك أن انتشار المسيحية في الغرب خلال هذه الفترة لم ينشأ عنه إدخال ألفاظ جديدة من أصل يوناني فحسب ، بل أدى أيضاً إلى استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التي أتت بها المسيحية . وقد نجم عن هذا التطور تغيير عظيم أصاب

(1) Poole : Med. Thought, p 6

(2) Taylor : The Med Mind; pp. 12-12,

اللغة اللاتينية نتيجة لتطرق كثير من الألفاظ العامية والدارجة إلى اللغة الفصحى من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والكلمات الجديدة من جهة أخرى^(١). ويبدو هذا الفارق واضحا عند المقارنة بين اللغة اللاتينية الفصحى كما كتبها شيشرون، واللغة اللاتينية الجديدة أو الدارجة التي استخدمها كتاب العصر المسيحي منذ تروتيان (حوالي سنة ٣٠٠ فصاعدا). وهكذا انتهى عصر البلاغة والميلان الذي امتاز فيه الأسلوب اللاتيني باختيار اللفظ وانسجام العبارة واتزان الجملة، وحل عصر جديد انسابت فيه الكلمات وفقا لانسباب الأفكار، دون عناية باختيار اللفظ أو العمل على تحقيق نوع من الانسجام بين مختلف العبارات^(٢). من ذلك أن الفعل لم يعد يأتي في نهاية الجملة ليختتمها، كما هو الحال في اللاتينية الكلاسيكية، وإنما صار يأتي حيثما شاء له الفكر دون مراعاة لأصول الأسلوب. كذلك استخدمت كثرة من الألفاظ للتعبير عن معان لم يستعملها فيها مطلقا كتاب العصر الكلاسيكي؛ بل كان من الصعب فهمها على هؤلاء الكتاب. أما قواعد النحو الكلاسيكية، فلم تعد تحظى بعناية كتاب العصر المسيحي الجديد الذين أضروا بها وخرجوا عليها، بحيث لم يكدهم يجل القرن الثالث إلا كان هناك نوع من اللاتينية العامية تشبه إلى حد كبير اللاتينية التي سادت غرب أوروبا بعد ذلك بثلاثة قرون—إذا استثنينا الألفاظ المدخلة التي أتت عن طريق الجرمان. وهذه اللاتينية العامية أو الدارجة^(٣) هي التي أصبحت فيما بعد أمما للغات الرومانية في أوروبا، وهي اللغات المشتقة عن أصل روماني لاتيني كالفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية. هذا وإن كانت اللغة الجرمانية — التي احتفظت بسيطرتها على الجهات الشمالية من أوروبا — قد أسهمت

(1) Foligno : Latin Thought; p. 22.

(2) Thompson : op cit , vol, 2, p. 794.

(٣) مررت هذه اللاتينية عادة باسم *Lingua rustica* أو *Lingua vulgaris* أو *Lingua plebeia*، وكلها مائة ادقات بمعنى اللغة العامية أو الدارجة أو الشعبية.
(م ١٥ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

هي الأخرى بألفاظ عديدة في اللغات الرومانسية، وذلك عن طريق احتلال الفرنجة لغاليا والقوط الغربيين لأسبانيا والمباردين لإيطاليا^(١).

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأخر الذي أصاب أوربا في ذلك العصر يتمثل في تدهور مستوى الخط والكتابة في المخطوطات أو الوثائق الحكومية المعاصرة. ففي العصور القديمة كانت الكتب تدون على مجاميع من أوراق البردى أطلق عليها اسم (volumina)، ولكنها منذ القرن الأول الميلادي أصبحت تدون على صفحات من الرقائق الجلدية مقطوعة على هيئة مربعات قائمة الزوايا وأطلق عليها اسم المجاميع أو الكتب المربعة (codices quadrati). ومعظم المخطوطات التي ترجع إلى العصر الميروفنجي أو القوطي من هذا النوع. أما الخط فكان على ثلاثة أنواع هي الحروف الكبيرة (majuscule)؛ والحروف البوصية (unical)، والحروف الصغيرة (minuscule). ولم يلبث أن أدى انتشار الجهل إلى فساد الخط وتعذر قراءته، فوقع الكتاب في أخطاء عديدة، مما أفسد الكتابة إفساداً يبدو بوضوح في الترجمة اللاتينية للإنجيل في ذلك العصر^(٢).

أما دعائم هذا الأدب اللاتيني الجديد فقد أرسى قواعدها في ميدان النثر القديس جيروم في ترجمته اللاتينية للإنجيل (vulgate)، والقديس أوغسطين في كتاباته اللاهوتية، لاسيما «مدينة الله» و«الاعترافات»^(٣). ذلك أن ترجمة الإنجيل اللاتينية لم تؤثر شكلياً في أدب العصور الوسطى لعدة قرون فحسب، بل أثرت أيضاً في تفكير هذه العصور. ويسكني للتدليل على ذلك أن اللاهوت وعلم الكنائس (ecclesiology)، والقوانين والتشريعات، والتاريخ، تأثرت كلها إلى حد واضح بترجمة الإنجيل اللاتينية. فبعض النظم الكنسية — مثل ضريبة العشور — مأخوذة عن الكتاب المقدس. كما أن الملكيات البربرية التي قامت

(1) Taylor - op cit, vol. 2, pp. 250-252

(2) Thompson - vol. 2; 794-795.

(3) Taylor: The Med. Mind, vol. 2, p. 180.

في أوروبا العصور الوسطى أخذت بمبادئ الحكومة الثيوقراطية التي وُزِدَتْ عنها أكثر من إشارة في العهد القديم بوجه خاص^(١). أما القديس أوغسطين فقد وضع في كتابه «مدينة الله» فلسفة سياسية لأوروبا العصور الوسطى ظلت قائمة حتى القرن الثالث عشر^(٢). وتدور هذه الفلسفة حول محور واحد هو أن الكنيسة من عمل الله وأن لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية، في حين أن الدولة من عمل الإنسان، ولذلك فهي تتصف بالنقص والشر ولا بد من خضوعها لنفوذ الكنيسة. وتختلف «الاعترافات» في طابعها عن «مدينة الله» لأنها عبارة عن ترجمة شخصية روحية تفيض بالزهد والتقوى في قالب فلسفي يتسم بطابع الأفلاطونية الحديثة^(٣).

وفي هذا الأدب الجديد امتزجت الوثنية والمسيحية، والدين والدنيا، والقديم الجديد؛ مما كان له أبعاد الأثر في النواحي الحضارية والتاريخية. ولم يكسب الميل القرن الرابع إلا كان هذا الاتجاه الأدبي الجديد قد شق طريقه حتى تم له الانتصار في القرن السادس عند ما ظهر بوضوح في ميداني النثر والشعر^(٤).

أما الشعر المسيحي فقد أصبح يعتمد على أوزان إيقاعية، وتخلّى عن المقاييس الكلاسيكية المعروفة، الأمر الذي جعل الترانيم والأناشيد الكنسية تمتاز بنوع من الوقع الموسيقي ساعد على انتشارها وبالتالي على انتشار المسيحية بين الشعوب البدائية^(٥). وكان أول من برز من شعراء المسيحية هو الشاعر كوموديان Commodian الذي عاش قرب منتصف القرن الثالث، ثم ظهرت بعد ذلك ترانيم القديس امبروز

(١) لأنه مُولد لنا ولد، ونُعطى ابنا وتكون الرئاسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبا حشيرا إلها قديرا أبأ أبديا رئيس السلام ؟؟
« سفر اشعيا ٩ : ٦ »

(2) Gilson : op. cit., p. 127.

(3) Eyre : op. cit., p. 806.

(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 796.

(5) Taylor : op. cit., vol. 2, pp. 216-217.

والأشعار الدينية التي نظمها برودنتيوس . وقد امتاز شعر برودنتيوس هذا — وهو شاعر أسباني (٣٤٨ — ٤٠٥) بروحه العالية التي تهز المشاعر وتبحث على الأمل وتبحث على التواضع^(١) . هل أن أبدع شعراء للمسيحية الأوائل كان القديس بولينوس النولاوي St. Paulinus of Nola (٣٥٣ — ٤٣١) ، وهو مواطن من غاليا قضى حياته قسيساً متواضعاً في كنيسة سانت فيليكس بنولا في جنوب إيطاليا . وقد ظهرت في أشعاره تلك القوة التي فتت من ضد الحكام المضطهدين للمسيحية وأتباعها ، وبثت روحاً قوية في المسيحية وأنصارها^(٢) .

ولم تكن جميع الأشعار التي نظمها الشعراء المسيحيون دينية في موضوعها ، إذ وجد عدد كبير من شعراء القرنين الخامس والسادس كانوا مسيحيين بحكم المولد ، ولكنهم ظلوا وثنيين في تفكيرهم وتقاليدهم . ومن الغريب أن هذا النوع من الشعراء كانوا جميعهم من غاليا التي ظلت تحتفظ بقوى واضحة من التقاليد الكلاسيكية ، على الرغم من خضوعها لسيطرة الفرنجة والقوط الغربيين والبرجنديين^(٣) . ومن أمثلة هذا النوع من الشعراء أوزونيوس Ausonius في القرن الرابع (٣١٠ — ٣٩٥) الذي امتازت جميع أشعاره بمذاق كلاسيكي وثني^(٤) . وفي القرن الخامس ظهر سيدنيوس أبولينارس Sidonius Apollinarius الذي عرف بصدق إيمانه حتى تولى منصب أسقف كليرمونت ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد اعتاد أن يكتب في أوقات فراغه رسائل جميلة لأصدقائه تفيض بالاتجاهات الكلاسيكية ، كما خلف مجموعة من الأشعار تعبر عن التقاليد الكلاسيكية والوثنية وإن امتازت بروحها المسيحية الصادقة . ومثل هذا القول ينطبق أيضاً على فورتناتوس Fortunatus (٥٣٠ — ٦٠٣) ، وهو شاعر من

(1) Waddell : Med. Latin Lyrics, p. 297.

(2) Idem, pp. 291-296.

(3) Paris : Littérature Française, pp. 22-23.

(4) Waddell : op. cit., p. 291.

شعراء العصر الميروفنجي قضى حياته في غاليا يعمل في بلاط بعض ملوك الفرنجة^(١). أما عن النثر في هذه الحقبة ، فقد ظهرت مجموعة من الكتاب اللذين عالجوا التاريخ والفلسفة والسياسة وغيرها . وأبرز هؤلاء الكتاب سلبكيوس سفروس Sulpicius Severus الذي كان قانونيا غلبت عليه روح الرهبانية ؛ فكتب مؤلفا عن حياة القديس مارتن التوري - الذي عرفه شخصا - وكان لهذا الكتاب أثر كبير في انتشار الديرة بالغرب ، فضلا عما امتاز به من أسلوب لاتيني صحيح^(٢) أما جريجوري التوري Gregory of Tours فامتازت كتابته بعدم وجود أى أثر فيها للتقاليد الكلاسيكية والوثنية ؛ فهو يمثل العصور الوسطى تمثيلا صادقا في اللغة والروح . وقد كتب كتابا عن « تاريخ ملوك الفرنجة » يعتبر مصدرنا الأساسى عن تاريخ غاليا في ذلك العصر ، ويمتاز بأسلوبه اللاتيني الدارج وملاحظاته الطريفة ومعلوماته النافعة^(٣) .

وعلى العكس من غاليا ، افتقرت إيطاليا في القرن الخامس إلى كتاب ملحوظين ، سواء أكانوا مسيحيين أم وثنيين . وربما كان عدم الاستقرار الذى ساد إيطاليا في ذلك القرن مسئولا عن انهيار الانتاج الأدبى . أما في القرن السادس - عند ما استقرت أوضاع البلاد تحت حكم الملك ثيودريك القوطى - فقد أخذ الوضع يتغير في إيطاليا . وكان أكبر كتاب ذلك العصر الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٠ - ٥٢٥) الذى يعتبر أبرز أدباء الغرب المسيحي بأكمله ، لا إيطاليا وحدها^(٤) . ففيه اجتمعت أجمل خصائص التراث الكلاسيكى والتقاليد الوثنية مع مثالية المسيحية وفلسفتها الأفلاطونية . ذلك أنه تهيأت لبيوثيوس عدة صفات جعلت منه شخصية بارزة في عصره ، إذ كان من رجال

(1) Idem, p. 300.

(2) Thompson : op. cit., vol 2; 758.

(3) Paris : op. cit., p. 27.

(4) Foligno : op. cit., p. 50.

الدولة المبرزين ، كما أنه انحدر من أعرق البيوت الرومانية في إيطاليا ، هذا زيادة على أنه آمن بالمسيحية إيمانا صادقا عميقا . وقد قدم إلى الفكر الغربي خدمة جليلة بترجمة منطق أرسطو إلى اللاتينية ، فضلا عن الأبحاث الخاصة التي كتبها في الحساب والهندسة والموسيقى . على أن أعظم ما قدمه للفكر الغربي كان كتابه « سلوى الفلسفة » الذي كتبه وهو في سجنه . ويشبه هذا الكتاب اعترافات القديس أوغسطين في أن المؤلف ترجم لنفسه ترجمة روحية في ضوء الفلسفة المسيحية^(١) .

أما كاسيدورس (Cassiodorus) وزير ثيودريك فكان كاتباً من طراز آخر . إذ ألقت رسائله التي كتبها ضوءاً ساطعاً على أحوال إيطاليا السياسية والحضارية في عهد القوط الشرقيين^(٢) . وقد ألف كاسيدورس كتاباً في تاريخ القوط ، ولكنه فقد ولم يصلنا وكان من المحتمل أن يمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ إيطاليا في القرن السادس ، مثل المعلومات التي أمدنا بها جريغوري التتوي عن تاريخ غاليا في العصر نفسه . وعلى الرغم من أن كاسيدورس لم يكتب شيئاً يمكن اعتباره أدبا خالصا ، وأنه لم يكن فيلسوفاً أو شاعراً ، إلا أن أثره في أدب العصور الوسطى لا يمكن إغفاله ، لأنه حاول أن يثبت فائدة العلوم الدنيوية وأهميتها^(٣) ، كما أنه قام بتأسيس دير فيفار يوم في أواخر أيامه ومنح مكتبته الخاصة لذلك الدير ، هذا فضلا عن مثابرته على البحث والكتابة ؛ كما سنسنة طيبة للأديرة والديرين في المحافظة على التراث الكلاسيكي وفي محاولة تأليف كتب جديدة .

والواقع أنه لم يصلنا من إيطاليا في العصر القوطي إلا إنتاج مؤرخ واحد هو جوردين Jordanes — صاحب كتاب « تاريخ القوط » . وأهمية هذا

(1) Brehier : op. cit., pp. 10-13.

(2) Taylor : op. cit , vol. 2, pp 93-97.

(3) Poole: Med. Thought, p 6.

المؤلف هو أنه أول كاتب من البرابرة يصلنا إنتاجه ، ولذلك أمتاز أسلوبه اللاتيني بالخشونة والضعف ؛ ولكنه — لأول مرة — يدخل الأساطير والقصص الخرافية الجرمانية في الأدب الغربي ^(١) .

أما أسبانيا فقد انجبت إلى جانب الشاعر برودنت كاتبا مبرزاً — هو أرزيوس Orosius — الذى كان تلميذاً للقديس أوغسطين والذى وضع مؤلفاً عنوانه « سبع رسائل تاريخية للرد على الوثنيين » وقد حاول فى هذا المؤلف أن يدلل بأمثلة من التاريخ على أن متاعب الإنسانية وسقوط الامبراطوريات ليس شيئاً جديداً ، وأنه من التعسف أن ينسب المعاصرون المصائب التى حلت بأوروبا حينئذ إلى المسيحيين وديانتهم . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يعتبر تاريخاً حقيقياً إلا فى الجزء الأخير منه فقط ، الذى ينتهى بحوادث سنة ٤١٧ ، والذى تنحصر أهميته التاريخية فى علاج الأحداث المعاصرة ، إلا أنه حصل على شهرة واسعة فى العصور الوسطى ^(٢) . وفى الوقت الذى بلغت قوة القوط الغربيين ذروتها فى أسبانيا ، ظهر إيسيدور أسقف أشبيلية (ت ٦٤٦) الذى امتاز بأسلوبه بالخصب البارع ^(٣) .

على أن معين الغرب أخذ ينضب فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس ، بحيث لم يبق من التراث الكلاسيكى إلا بصيص خافت من النور عند نهاية القرن السادس ، كما اعترف بذلك جريجورى التورى نفسه . وفى الوقت الذى كان جريجورى التورى يكتب تاريخه فى غاليا (٥٣٨ — ٥٩٤) ، أخذ البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) يوجه كل جهوده وبإمكانات منصبه نحو الوعظ والإرشاد وحياة القديسين والأبحاث اللاهوتية ،

(1) Thompson : op. cit., vol 2, p. 799.

(2) Taylor : op. cit. pp. ٤2-83.

(3) Foligno : op. cit., pp 25-26.

صارفاً بصره — وأبصار من حوله — عن الكلاسيكيات^(١) . ذلك أن هذا البابا كان معادياً للتراث الكلاسيكي الذي أوشك أن يزول في ذلك الوقت لولا جهود الرهبان الإيرلنديين في حفظ هذا التراث^(٢) . وقد بدأ غروب الأدب الكلاسيكي سنة ٥٢٩ على وجه التحديد ، وهي السنة التي أغلق فيها جستنيان مدارس آثينا الفلسفية القديمة ، كما أسس فيها القديس بندكت ديرته المعروف في مونت كاسينو^(٣) . ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم الدراسات الكلاسيكية في الأفول سريعاً من غرب أوروبا .

ولكن شاء حسن حظ الحضارة الأوروبية أن يحظى الأدب اللاتيني الكلاسيكي في ذلك العصر ببعض المريدن والأنصار على الرغم من روح العداء التي أحاطت به من كل جانب . ذلك أنه لا يوجد شك في أن الكنيسة ودت حينئذ لو أنهار بناء الأدب الكلاسيكي بأكمله لأنه وثني الأصل ؛ بل وجد فعلاً من زعماء الكنيسة — مثل جريجوري العظيم — من كان يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق ذلك . ولكن إعجاب المعاصرين بسحر الأدب الكلاسيكي وسمو مستواه ، ساعد على حفظ ذلك التراث من الضياع^(٤) . هذا إلى أن الطبقة المثقفة في المجتمع الأوروبي رغبت في حماية هذا التراث الروماني القومي من جهل البرابرة الذين تدفقوا على غرب أوروبا وهددوا حضارته بالضياع في القرنين الخامس والسادس . ويبدو أن هذه الرغبة في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضي حركت مشاعر المثقفين من المسيحيين والوثنيين على حد سواء ، حتى استطاع رجال مثل كاسيدورس وإيسيدور أن يعقدوا اتفاقية ضمنية بين الكنيسة والآداب الدنيوية^(٥) .

(1) Poole : Med. Thought, p. 7.

(2) Cam, Med. Hist, vol 3, p. 501.

(3) Vasiliev : op, cit.; Tome I, p. 198.

(4) Thompson : op, cit., vol. 6, p. 806.

(5) Hall : Introduction to the Study of Classical Texts, pp, 68-71.

وفي الوقت الذي أصيب الأدب اللاتيني بفتور في القرن السابع وأوائل الثامن ظهرت نهضة عظيمة في أيرلند تزعمتها الكنيسة والأديرة الأيرلندية ، وقدر لها أن تحفظ الكثير من مظاهر التراث الأدبي الكلاسيكي من الضياع^(١) . وهكذا استطاعت أيرلند أن تحمل مصباح المعرفة في ذلك العصر المظلم الذي انتشرت فيه الفوضى ومظاهر عدم الاستقرار في بلاد غرب أوروبا^(٢) . وسرعان ما أدى حب الأيرلنديين للهجرة إلى انتشار نهضتهم وذيعوها في البلاد المجاورة ، لا سيما بعد أن أسسوا أديرة شهيرة في صلب القارة ظلت محورا للنشاط الفكري عدة قرون . وقد بلغت هذه الحركة ذروتها في القرن الثامن على عصر بدى (٦٧٥ — ٧٣٥) ، وهو الأديب الفذ الذي يمثل عصرا اكتملت فيه صورة الأدب اللاتيني في العصور الوسطى^(٣) . ولم تمض أيام على وفاة بدى حتى ولد ألكوين (٧٣٥ — ٨٠٤) الذي يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكري في أيرلند وبريطانيا من ناحية وغاليا وبقية الغرب من ناحية أخرى ؛ والذي كان أبرز أعلام النهضة الكبيرة التي تعدها شارلمان بالرعاية في أواخر القرن الثامن .

النهضة الطارئة ونهضة :

والواقع أن الفضل يرجع إلى النهضة الكارولنجية في إنقاذ الأدب اللاتيني من الهوة السحيقة التي تردى فيها في القرن السابع ، كما أنها منحت قوة دافعة ظهر أثرها بعد ذلك في النهضة الأوتيه أو السكسونية في ألمانيا وفي المدارس الديرية العظمى التي ازدهرت في القرنين التاسع والعاشر . وهنا نسجل أن الانحلال السياسي الذي تعرض له غرب أوروبا في القرن التاسع لم يصحبه — لحسن الحظ — تدهور في الدراسات الأدبية ، الأمر الذي جعل القرنين التاسع

(1) Cam Med. Hist., vol. 3, pp. 501-506.

(2) Poole : op. cit., p. 8.

(3) Eyre : op. cit., vol. 2, p. 368.

والعاشر يحتفظان بمستوى ثقافى لائق فى الدراسات الأدبية كالتاريخ والشعر^(١) .

وقد جمع شارلمان حوله — فى بلاطه بمدينة آخن (اكس لاشابل) — أبرز علماء عصره الذين أجتذبهم من بلاد أوربا مثل الكوين من إنجلترا وبولس المباردى وبطرس اليزى وثيودلف الأورليانى ورابان مور مقدم دير فولدا ؛ هذا فضلا عن سكرتيره اينهارت ومساعدته إنجلبرت^(٢) . وامتازت النهضة الكارولنجية باتساع أفقها وصبغتها التعليمية ، وتغلب الطابع الدينى عليها . واحتل التاريخ والتدوين التاريخى ركنا هاما من هذه النهضة ، فكتب بولس المباردى « تاريخ المباردين » ، كما كتب اينهارت « تاريخ حياة شارلمان » . ويعتبر الأخير من أهم كتب التراجم فى العصور الوسطى على الرغم من تقيد المؤلف بمنهج المؤرخ الرومانى سيتونيوس Suetonius (٦٩ — ١٢١) فى تراجمه لأباطرة الرومان^(٣) . وقد أصبحت هذه الترجمة التى وضعها اينهارت لحياة شارلمان مثالا يحتذى فى الكتابات التاريخية المعاصرة ، حتى أن ثلاثة من الكتاب قاموا بوضع تراجم حياة لويس التتق ، ابن شارلمان وخليفته^(٤) .

وهناك جانب آخر من الكتابات التاريخية هو الحوليات التى مهدت فى العصر الكارولنجى لمولد نوع جديد من التدوين التاريخى ، قدر له أن يظل قائما حتى نهاية العصور الوسطى . ذلك أن هذه الحوليات لم تكن مجرد وقائع وصفية ، وإنما كانت — كما يبدو من اسمها (annals) — سردا لأهم أحداث السنوات المتعاقبة ، كل سنة على حدة . وقد نشأ هذا النوع من التدوين التاريخى لأول مرة فى الغرب فى نورثمبرلاند بإنجلترا حيث جرت العادة فى الأديرة بتدوين الحوادث الكبيرة أولا فأولا . ومن المحتمل أن يكون الكوين هو الذى نقل هذا

(1) Thompson - op. cit., vol. 2, p. 801.

(2) Waddell : The Wandering Scholars, p. 30.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 517.

(4) Lavisce : op. cit., Tome 2, Livre 1, p. 347.

الأسلوب إلى غالبا، حيث آمن شارلمان بأهميته فأمر الأديرة باتباعه في تدوين حوادثها^(١). وكانت هذه الحوليات صغيرة، قليلة الأهمية في الأديرة الصغيرة إذ أنها لم تعدد ذكر الأحداث المحلية؛ ولكنها صارت في الأديرة الكبيرة — مثل دير لورخ Lorsch ودير سانت برتن St. Bertin — على جانب كبير من الأهمية وغزارة المادة التاريخية. وإلى جانب هذه الحوليات الديرية، وجد نوع آخر عرف باسم الحوليات الملكية (Annales Royales) التي دونت تحت إشراف رجال البلاط، وتناولت تاريخ الكارولنجيين منذ تقسيم شارل مارتل لمملكته بين أبنائه. كذلك لم تهمل الكتابات التاريخية في العصر الكارولنجي سير القديسين؛ هذا زيادة على الكتب التاريخية المتعددة التي تناولت أخبار الحروب والحوادث مثل كتاب «تاريخ الحروب الأهلية» لمؤلفه نيثارد Nithard في القرن التاسع^(٢).

وإذا كان الشعر قد فاق النثر في العصر الكارولنجي، فإن هذا التفوق لم يكن في الجودة بقدر ما كان في الكثرة، لأن الاتجاه السائد غلب استعمال الشعر في مختلف شئون الحياة، حتى أن معظم الأدباء المعاصرين — مثل بولس وألكوين وأنجابرت وثيودلف قرضوا الشعر. كذلك خلف لنا ذلك العصر نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغاني المآثر — Chansons de Geste — التي تناول بعضها أعمال شارلمان أو أحداثا هامة تمت في عهده^(٣). على أن الطابع الغالب على الشعر الكارولنجي كان دينيا لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة، زيادة على أن شعراء ذلك العصر استلهموا أشعارهم من شعراء المسيحية مثل برودثوس وفورتناوس^(٤). وكان أبرز شاعرين في العصر الكارولنجي

(1) Thompson : op. cit , vol, 2, p, 802

(2) Taylor : op, cit., vol. 1, p p, 234-235.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p, 816-824.

(4) Paris : op. cit., p p, 48-50.

على الإطلاق — سواء في الشعر الديني أو الديني — هما والفرد سترابو
Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) أحد رهبان دير ريخنو ، وسدوليوس
سكوت Sedulius Scotus (٨٤٨ — ٨٧٤) ، وهو راهب أيرلندي استقر
في ليبج . وقد كتب الأول في شعر الحكمة والشعر الغنائي ورسائل دينية منظومة ،
كما خلف قطعة رائعة عنوانها « وصف الحديقة hortulus » وصف فيها حديقة
دير ريخنو^(١) . أما الثاني فقد ألف بقية من الأغاني الجميلة (Carmina) امتاز
بعضها بدقة النظم — مثل « الحوار بين الوردة والزنبقة » — والبعض الآخر
من أغاني الشراب التي تجلت فيها شخصية هذا الراهب الأيرلندي المرح . على
أن أهم ما قام به سدوليوس سكوت ، كان ترجمة بعض أجزاء من الإنجيل في قالب
شعري ؛ وما زالت بعض هذه الأشعار الدينية تستخدم في ترانيم الكنيسة حتى
اليوم^(٢) . ومهما كان الأمر فإنه يؤخذ على شعر العصر الكارولنجي بعده عن
الحياة العامة ، وضعف الصلة التي تربطه بالحياة الشعبية ؛ هذا بالرغم من وفرة
هذا الشعر وغزارته^(٣) .

ولعل خير ما يصور لنا مدى العناية بالأدب الكلاسيكي في القرن التاسع
هو أن عدد ما وصل إلينا من المخطوطات الكلاسيكية — التي يرجع أصلها
إلى العصور القديمة والتي أعيد نسخها في القرن التاسع — بلغ سبعا وثلاثين
وثلاثمائة — مخطوط ؛ في حين أنه لم يصل إلينا من هذا النوع من مخطوطات
القرن العاشر سوى مائة وخمسة عشر مخطوطا ، ومن القرن الحادي عشر سوى
ستة وخمسين مخطوطا^(٤) . وكان رائد هذه الحركة العظيمة هو الكوين ، الذي أخذ
يعمل في جد ونشاط لتصحيح المخطوطات القديمة وتنظيمها وإعادة نسخها مصححة

(1) Waddell : The Wandering Scholars, p. 32.

(2) Waddell : Med. Latin Lyrics, p.p. 319-320.

(3) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p. 153.

(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 802.

وذلك بعد أن تعرضت هذه المخطوطات في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن للإهمال والتخريف والمضياع^(١). ويعتبر أهم ما قام به الكوين في هذا الباب مراجعة الترجمة اللاتينية للكتاب للقدس مراجعة دقيقة شاملة. أما سرفاتوس لوبوس Servatus Lupus — مقدم دير فريير — فكان أعظم المهتمين بالأدب الكلاسيكية لللاتينية في القرن التاسع، كما أن رسائله التي كتبها في هذا الموضوع ألقت ضوءاً ساطعاً على هذه الآداب^(٢).

وفي وسط هذه التيارات الكنسية والكلاسيكية، ظل الأدب الجرمانى القومى يحاول أن يشق لنفسه طريقاً ولو ضيقاً. ومن المعروف أن شارلمان كان جرمانياً بحكم أصله وطبيعته، ولذلك لا نعجب إذا حرص على الاحتفاظ بمجموعة من الأغاني والأشعار الجرمانية، كما حاول أن يجمع قواعد اللغة الجرمانية، بل أطلق على الرياح والأشهر أسماء جرمانية^(٣). أما الأغاني الجرمانية، فكانت حينئذ عبارة عن مجموعة من أناشيد الحب والحرب والمغامرة، ولكن الكنيسة اعتبرت هذه الأغاني صورة من صور الوثنية، فوقفت منها موقفاً معادياً، حتى أحرقها لويس الثقي — خليفة شارلمان — وبذلك حرمانا من هذا المصدر القيم للأدب الجرمانية وأصولها اللغوية.

أقرره العاشر :

ر بما بدا من كلامنا السابق عن النهضة الكارولنجية أن هذه النهضة اقتصرَت على غالبا وجزء من ألمانيا، وهى الجهات التى كانت تمثل قلب الإمبراطورية الفرنجية. ولكن حدث فى القرن العاشر، عندما نهضت ألمانيا فى ظل الأسرة السكسونية

(1) Guizot : Hist. de la Civilisation en France, Tome 2, p. 185.

(2) Thompson : op. cit, vol. 2, p. 802.

(3) Taylor : op. cit, vol 2, p. 249

أن انتقلت النهضة الأدبية إلى شمال ألمانيا حيث ازدهرت في أديرتها^(١). ذلك أن الإمبراطور أوتو العظيم لم يعمل على اقتفاء أثر شارلمان في الجانب السياسى فحسب، بل أيضا في الجانب الحضارى ، مما أدى إلى ازدهار الثقافة في ألمانيا . وكان رائد هذه الحركة الفكرية برونو Bruno رئيس أساقفه كولونيا ، الذى أظهر اهتماما بالغا بتشجيع العلم والثقافة ، كما دفعه شغفه بعلوم القدماء إلى تعلم اللغة اليونانية من الرهبان الأيرلنديين في ألمانيا^(٢). وهكذا تمخضت النهضة الأوتية أو - السكسونية - عن بضعة أعلام مثل ويدوكند Widukind مقدم دير كورفي وأمهر كتاب التاريخ في ألمانيا ، وهورتسوitha التى دونت مجموعة من القصص الدرامية في أسلوب لاتينى على درجة كبيرة من الجودة والنقاوة جعلت علماء النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر يشكون في صحة نسبة هذا الإنتاج إليها^(٣).

أما إيطاليا التى لم يبرز فيها كاتب ملحوظ في القرن التاسع - باستثناء أنسطيوس الكتبى الذى كان متعلما أكثر منه عالما ؛ فقد شهدت في القرن العاشر موهبة فذة في شخص ليتوبراند أسقف كريمونا، الذى بلغ من إجادته لليونانية أن اختاره الإمبراطور أوتو الأول مبعوثا إلى القسطنطينية . وقد ترك ليتوبراند هذا عدة أبحاث بعضها في وصف الحياة والعادات في الدولة البيزنطية ، والبعض الآخر عبارة عن خليط بين المعلومات التاريخية والجدل والهجاء والدعابات الفكاهية^(٤). والواقع أن ليتوبراند كان أبرز أديب مثقف في عصره ، وقد اشتهر بتعليقاته اللاذعة مثل قوله بأن الإيطاليين « مغرمون دائما بحب سيدين (يقصد البابا والإمبراطور) ، وهم لا يتظاهرون بحب أحدهما إلا لأنهم يكرهون الآخر ! »^(٥).

(1) Poole : Med. Thought, p. 74.

(2) Waddell : The Wandering Scholars, p. 66.

(3) Foligno : Latin Thought, p.p. 92-93.

(4) Taylor : op. cit., vol. 1, p.p. 257-258.

(5) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 803.

أما فرنسا فكانت فقيرة في الإنتاج الأدبي في القرن العاشر؛ ولم يبرز فيها سوى مؤرخين أحدهما فلودورد Flodoard صاحب حوليات ريمس (٩٢٢ — ٩٦٦)؛ والثاني ريتشر Richer مؤلف «أربع رسائل في التاريخ». وقد امتاز الأول بالأمانة والدقة في كتابته، في حين حاول الثاني أن يؤثر في الانقلاب سنة ٩٨٧ الذي أدى إلى قيام أسرة كاييه، كما استعمل خليطاً من الإصطلاحات والألفاظ الفنية والحربية والإدارية، مما جعل أسلوبه اللاتيني من الصعوبة بمكان^(١).

القرن الحادى عشر :

أما القرن الحادى عشر فقد شهد تطورات سياسية خطيرة في أوربا؛ مثل انتشار حركة الإصلاح الكلونية والنزاع حول التقليد العلماني بين البابوية والإمبراطورية، وازدياد نفوذ البابوية في السياسة الأوروبية، وغزو النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن غزوهم لإنجلترا، والحروب الصليبية... ويبدو أن هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها في صرف أنظار المعاصرين عن الأدب والنشاط الأدبي، بحيث لم يخلف لنا ذلك القرن شيئاً يستحق الذكر سوى ما تركه في ميدان الدراسات التاريخية^(٢). أما أبرز المؤرخين في ذلك العصر فهو آدم البرمنى Adam of Bremen الذى ألف كتاباً عنوانه «أعمال رؤساء أساقفة هامبورج». ويحوى هذا الكتاب معلومات تاريخية هامة عن شمال ألمانيا، وبصفة خاصة العناصر السلافية الرابضة على نهر الإلب. كذلك ألف آدم كتاباً آخر تناول فيه أحوال سكندناوة وأيسلند وجرينلند في تلك العصور، وهو يعتبر مصدراً أساسياً لأحوال هذه البلاد حينذاك من النواحي التاريخية والجغرافية

(1) Waddell : The Wandering Scholars, ps. 68, 73.

(2) Thompson : op. cit., vol 2. p. 804.

والبشرية والاقتصادية^(١). وفي عهد الامبراطور هنري الرابع كتب راهب اسمه برونو كتابا عنوانه « تاريخ ثورة سكسونيا » ، وهو يمتاز بالدقة والأمانة . كذلك دونت في ألمانيا في القرن الحادي عشر عدة تراجم هامة تناولت بوجه خاص حياة مشاهير الأساقفة . أما فرنسا وإيطاليا فقد ظهرت فيهما وقتئذ بعض الكتابات التاريخية التي تناولت حياة كبار الشخصيات المعاصرة — مثل ماتيلدا أميرة تسكانيا — أو الأحداث الهامة — مثل غزو النورمان لجنوب إيطاليا — ، أو أخبار بعض كبار الأمراء الإقطاعيين في فرنسا مثل أمراء بيت أنجو^(٢) .

القرن الثاني عشر :

على أن أحداث القرن الثاني عشر ، وما ترتب عليها من يقظة شعوب غرب أوروبا من جهة ، وزيادة الاتصال مع المسلمين في الشرق والغرب من جهة أخرى أدت إلى إثارة نهضة كبيرة في مدارس غرب أوروبا^(٣) .

وقد احتل النشاط الأدبي والدراسات الإنسانية جانبا أساسيا من هذه النهضة الفكرية والعلمية الجديدة التي أخذت تظهر منذ نهاية القرن الحادي عشر لتتطور في القرن الثاني عشر . وهكذا تم إحياء الأدب اللاتيني الكلاسيكي على الرغم من الفتور الذي أصاب دراسته في القرن العاشر^(٤) ، وسارت العناية بالدراسات الأدبية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع المعارف الجديدة في العلوم والرياضيات والفلسفة والطب والقانون وغيرها . وقد بدأت حركة إحياء الأدب الكلاسيكي — كما هو الحال في البحث العلمي — على يد جربرت الريمسي Gerbert of Reims ثم انتقلت من ريمس إلى شارتر على يد تلميذه الأسقف فلبرت Fulbert^(٥)

(1) Beazley : The Dawn of Modern Geography, vol. p. 9.

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p.p. 804-805.

(3) Eyre : op. cit., p.p. 269-270.

(4) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p. 115.

(5) Poole : op. cit., p. 98.

وكان هلدبرت Hildlert اسقف تورز شاعراً لاتينياً موهوباً ، بلغ من سلامة أسلوبه وجمال تعبيره أن علماء النهضة الإيطالية شكوا في صحة نسبة أشعاره إليه ، حتى قال بعضهم بأن هذه الأشعار لا بد أن تكون نماذج من الشعر الكلاسيكي استكشفت في القرن الحادى عشر^(١) . حقيقة إنه وجد في القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعض ذوى الآفاق الضيقة من رجال الدين حاولوا اقتفاء سياسة البابا جريجورى العظيم في أواخر القرن السادس ، فنادوا بمحاربة الأدب الكلاسيكي وإعدامه بحجة أنه مظهر من مظاهر الوثنية ؛ ولكن هؤلاء كانوا قلة ولم يصبحوا خطراً حقيقياً على الأدب الكلاسيكي^(٢) . أما الخطر الذى هدد الأدب الكلاسيكي في القرن الثانى عشر فقد أتى نتيجة لمنافسة منطق أرسطو والاتجاه العملى الجديد في الحياة الفكرية ، مما لم يترك مجالاً واسعاً للدراسات الأدبية الكلاسيكية^(٣) . ومع أن إحياء الدراسات الكلاسيكية كان أضعف مظاهر نهضة القرن الثانى عشر ، إلا أن ذلك الإحياء لم يذهب كلية تحت ضغط الفلسفة والعلوم الجديدة ، فقد ظهرت كتابات لاتينية تسترعى الانتباه مثل رسائل أيلار وأشعار هلدبير ومؤلفات حنا سالسبورى وكلها تستحق الإعجاب والتقدير^(٤) ..

أما مراكز العناية بالدراسات الكلاسيكية فكانت الأديرة البندكتية بحكم أقدميتها وانتقال تراث النهضة الكارولنجية إليها من ناحية ، وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة في الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة ولم تقم نفسها في التيارات السياسية المعاصرة من ناحية أخرى . وهكذا ظلت الأديرة البندكتية بمثابة المستودع الأساسى للدراسات الكلاسيكية حتى ورثتها.

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 206.

(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p p. 96-98.

(3) Ibid.

(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 809.

(م ١٦ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

المدارس الاسقفية في هذه المهمة، وأصبحت الأخيرة مركزاً للدراسات الكلاسيكية
وغير الكلاسيكية من العلوم الجديدة^(١).

وقد احتل إنشاء الرسائل Epistolary Composition المكانة الأولى
في ميدان البلاغة في ذلك العصر، عندما ازدهر فن كتابة الرسائل في بولونيا --
أعظم مدارس القانون في العصور الوسطى -- ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا
حيث وجد بيئة صالحة في مدرسة أورليان. وتمثل الرسائل التي كتبت حينئذ
في تورز وأورليان نوعاً راقياً من النثر اللاتيني البليغ، وبخاصة تلك التي ترجع إلى
عهد فيلب أوغسطس (١١٨٠ -- ١٢٢٣) والتي تناولت محاورات خيالية بين
الشتاء والربيع، وبين الروح والجسد، وبين الإنسان والشیطان... ولا تقتصر
أهمية هذه الرسائل على ما بلغت من مستوى رفيع في البلاغة، بل ترجع هذه
الأهمية أيضاً إلى ما تلقى من ضوء ساطع على أوضاع العصر الذي دونت فيه^(٢).

أما الشعر اللاتيني فقد بلغ في القرن الثاني عشر درجة كبيرة من الرقي
والكثرة والتنوع. ويبدو أن هذا الشعر تأثر إلى حد واضح بالشعر الكلاسيكي
من ناحية، وبالطابع الديني من ناحية أخرى. فالأثر الكلاسيكي يبدو واضحاً
في أشعار هلدبير (ت ١١٣٣)، وبخاصة القصيدتين اللتين نظمهما عن روما
وأبدى فيهما أسفه لزوال مجدها القديم، كما أضنى عليها آيات التبجيل في عصره
لقيام البابوية فيها^(٣). أما الطابع الديني فيبدو في أشعار أيبيلار وماربود، فضلاً عن
كثير من الأشعار الدينية التي تناولت قصصاً من الإنجيل وسير القديسين وغيرها
من الموضوعات الدينية. ويحتل هؤلاء الشعراء الثلاثة مكانة كبيرة في ميدان
النشاط الأدبي في القرن الثاني عشر، إذ يعتبر هلدبير أعظم شعراء عصره وعالج

(1) Rashdall : Med. Universities, vol. 1, p.p. 43-44.

(2) Haskins : The Renaissance, p p. 142-148.

(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 206.

معظم فنون الشعر كالرثاء والمديح والموضوعات الدينية والخلقية . أما أبيلاز (١٠٧٩ - ١١٤٣) فكان شاعراً مجيداً إلى جانب كونه من رجال الدين الذين اشتغلوا بالفلسفة ؛ وقد نظم كثيراً من الأشعار الدينية فضلاً عن بعض الأناشيد التي تدل على عقلية ممتازة^(١) . وأخيراً يأتي مار بورد Marbode (١٠٣٥ - ١١٢٣) الذي تنسب إليه بعض الأشعار الدينية بالإضافة إلى أشعار أخرى تمجد الشهاب والحب والنساء^(٢) .

ومن الواضح أن أخصب أنواع الشعر في العصور الوسطى كانت الترانيم والأغاني . أما الترانيم الدينية فقد أمتاز أسلوبها بالتفخيم وانتقاء الألفاظ الكفيلة بأن ترضي رداء من المهابة والجلالة على الحياة الدينية ، في حين دار معظم موضوعات هذه الترانيم حول القصة الأثرية المتعلقة بالله والإنسان كما جاءت في العهدين القديم والجديد^(٣) . وأما الشعر الغنائي فقد ظهر منه نوع يعبر عن العواطف الإنسانية وروح حب الطبيعة والتعلق بجمالها . وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اللاتيني الغنائي اسم الشعر الجلياردى (Goliardic lyric poetry) نسبة إلى شخصية غامضة مجهولة اسمها جولياس (Golias) اعتقد المعاصرون أنها مصدر الإلهام الروحي للشعراء الجليارديين^(٤) . ومهما كان الأمر فإن هذا الشعر امتاز بطابعه الدنيوى وروحه الفكاهية الخفيفة التي غلبت عليها الرغبة في الاستمتاع بلذات الحياة من شباب وخر ونساء^(٥) . ولما كان الشعر الجلياردى يتعارض مع آراء الكنيسة ورجال الدين تعارضاً حاداً ، فإن الشعراء الجليارديين وقفوا موقفاً عدائياً من رجال الدين — كبيرهم وصغيرهم — واتخذوهم

(1) Waddell : Med. Latin Lyrics, p.p. 162-169 & 336

(2) Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit , p. 206,

(3) Paris : Litterature Francaise au Moyen Age, p 146.

(4) Thompson, vol. 2, p. 807.

(5) Symonds : Wine, Women and Songs, p. 191 & Haskins : The Renaissance. p. 187.

موضوعا لسخرتهم وتقديم اللاذع ؛ حتى المسيح والبابوية وفروض الدين لم تسلم من تهكمهم وهزلهم ؛ الأمر الذى سبب فزع كبيرا للكنيسة فعمدت عدة مجامع دينية لتحريم هذا النوع من الشعر وإنزال اللعنة بأصحابه^(١) . وكان هذا التطاول على الكنيسة ورجالها ومحاولة النيل منها وهدم نظمها ، من العوامل التى جعلت رجال حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر يعتمدون على الأشعار الجلياردية فى إثبات مفسد نظام الكنيسة الكاثوليكية^(٢) .

ويبدو أن معظم الشعراء الجليارديين كانوا من طلبة العلم الجاثلين الذين أخذوا ينتقلون فى ذلك العصر من مدرسة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، يرددون شعرهم الفكاهى ويجدون فيه بعض السلى عن متاعب الحياة ومشاقها^(٣) . وقد حفظ لنا التاريخ اسمين من أعلام الشعر الجلياردى نسبت إليهما كثير من المقطوعات الشعرية الخفيفة . أما الأول فهو هيو الأورليانى (١٠٩٠ — ١١٥٠) الذى تعلم فى باريس ثم علم فيها ، حتى انتقل إلى شمال فرنسا بعد أن فقد ثروته ومنصبه فأخذ يخفف عن نفسه بهذا النوع من الشعر الفكاهى الذى تجلت فيه شخصيته ومواهبه . وقد ساعد على نبوغه فى الشعر تعمقه فى الدراسات الكلاسيكية وإحاطته بأوزان الشعر اللاتينى الكلاسيكى^(٤) . وأما الشاعر الثانى من أعلام الشعر الجلياردى فنجهل اسمه الحقيقى ، وإن كان من الثابت أنه خلف جولياس فى زعامة هذه المدرسة الشعرية الفكاهية ، حتى أطلق عليه فى المراجع لقب للشاعر الأول أو أمير الشعراء Archipoeta (ت ١١٦٠)^(٥) . وكل ما نعرفه

(1) Wadell : Wandering Scholars, pp 267-268

(2) Symonds : Will, Wither and Sing, p p. 7.

(3) Pirenne, Cohen, Foellon : op cit, p. 207.

(4) Haskins : The Renaissance, 179.

(5) Wadell : Med. Latin Lyrics, pp. 338-340 .

عنه هو أنه كان معاصرا لفردريك بربروسا واشتغل في بلاطه ، كما امتازت أشعاره بالأحكام والتنوع وخفة الروح ^(١) .

الآداب الشعبية والمحلية :

على أننا إذا كنا في كلامنا عن الأدب الغربي في العصور الوسطى قد التزمنا جانب الأدب اللاتيني ، بحكم بقاء اللاتينية لغة الكنيسة والمعلمين ، فليس معنى ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبي خاص بهم ^(٢) . ذلك أن طبقة العامة في غرب أوروبا لم تعرف اللاتينية الفصحى ، وإنما عرفت اللغة التي توارثها الناس عن أجدادهم — سواء كانت هذه اللغة لاتينية دارجة أم جرمانية — هذا مع ملاحظة أن اللغات الوطنية المحلية (vernacular) لم تنهض لتعبر عن النشاط الأدبي قبل القرن الحادى عشر ^(٣) . وحتى قيام اللغات المحلية بهذه المهمة كان لعامة الناس — من سلالة العناصر الجرمانية والكلتية — آدابها الشعبية ، ولكنها كانت آداباً غير مكتوبة ، تتألف من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاهاً ويتوارثها الخلف عن السلف . والواقع أنه مهما بلغت بدائية شعب أو قوم ، فإن لكل شعب مقدرته على التعبير والتصوير الذى قد يبدو لنا تافها وبسيطاً ولكنه لا يخلو من جمال فطرى ^(٤) .

و يلحظ المتتبع للأدب الغربي في النصف الأخير من القرن الثانى عشر أن هذا الأدب لم يعد لاتينياً خالصاً . ذلك أن تيار اللغات المحلية — أو الوطنية — أخذ يقوى ويشدد في ذلك العصر ، تمهيداً لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف

(1) Haskins : The Renaissance , p. 181.

(2) Paris : Litterature Française du Moyen Age , pp. 2-3.

(3) Thompson : op. cit., vol. 2; p 809.

(4) Waddell : Poetry in the Dark Ages; p, 7.

بلدان غرب أوروبا؛ الأمر الذى يجعل من النصف الأخير من القرن الثانى عشر مرحلة انتقال من الأدب اللاتينى الخالص إلى الآداب الوطنية الناشئة^(١).

و يمكن تقسيم المصادر التى نبعت منها الآداب المحلية فى العصور الوسطى إلى ستة؛ هى التراث الكلاسيكى القديم، والإنجيل، والجرمان، والسكمت، والفيكينج. والمسلمون ومن شابههم من العناصر الشرقية. ومع أن هذه الجارى الفكرية المنفصلة تداخلت على مر الزمان وامتزجت تياراتها إلى حد كبير، بحيث تشابهت الموضوعات والبواش فيها جميعا؛ إلا أن الخلافات والفروق ظلت واضحة فيما بينها. ذلك أن الأصول الأولى للتيارات السابقة استمرت محتفظة بخصائصها من جيل إلى آخر. دون أن تمتزج بغيرها من الآراء إلا امتزاجا سطحيًا طفيفًا لا يغير من حقيقة أوجورها^(٢).

ومن الواضح أن التراث الكلاسيكى — اليونانى واللاتينى — كان أقدم منبع للآداب الوطنية فى أوروبا بالعصور الوسطى؛ إذ ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة متداولة فى غرب أوروبا. وبظهور المسيحية وانتشار الكنيسة فى مختلف أنحاء غرب أوروبا، أصبح الكتاب المقدس يمثل مصدراً جديداً للإلهام الأدبى، حتى صار كل حدث ورد فى ذلك الكتاب موضوعاً للتعبير أدبى — منظوماً أو منشوراً^(٣). على أن الجرمان الذين غزت قبائلهم غرب أوروبا فى العصور الوسطى، كانت لهم أغانيهم الحربية الحماسية، وأبطالهم الذين صارت أعمالهم وبطولتهم محور كثير من القصص المعاصرة. وقد سجل مؤرخو العصور الوسطى الذين شالخوا تاريخ الشعوب الجرمانية — مثل جوردان Joridanes صاحب تاريخ القوط، وجريجورى التورى. مؤلف تاريخ الفرنجة، وبولس اللباردى

(1) Pirenne; Cohen; Focillon. op. cit.; pp. 204-205.

(2) Thompson; op. cit., vol., 2; p. 810.

(3) Taylor; op. cit.; vol. 2; p. 200.

مدون تاريخ اللبارديين — كثيراً من أساطير البطولة التي ترتبط بتاريخ هذه الشعوب المبكر ، لأنهم لم يجدوا مصدراً آخر — عدا هذه الاساطير — يستقون منه معلوماتهم عن نشأة الشعوب الجرمانية . كذلك كشفت الابحاث التي تمت في القرن الاخير النقاب عن مدى ما تمتعت به الشعوب الجرمانية من تقدم أدبي بعد الوقوف على كثير من الآثار — النثرية والشعرية — عند الفيكنج وبخاصة في أيسلند والنرويج^(١) . ومهما كان الأمر ، فإن أهم الميادين التي ظهرت فيها الآداب الوطنية الناشئة في أواخر العصور الوسطى كانت أشعار الملاحم من جهة وأشعار التروبادور من جهة أخرى ، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منهما على حدة .

الملاحم :

كان الرأي السائد حتى زمن قريب هو أن الملاحم التي عرقها العصور الوسطى جاءت وليدة نمو أدبي بطيء ؛ وأن الملحمة — على الصورة التي نعرفها — كانت في القرنين التاسع والعاشر نوعاً من الأغاني والقصص الشعرية ، حتى حلت الحروب الصليبية وعندئذ ظهرت مجموعة من الكتاب جمعت هذه القصص والأغاني وحوّلتها إلى ملاحم مترابطة . على أنه ثبت خطأ هذا الرأي ، واتضح أن ملاحم أوروبا العصور الوسطى جاءت عملاً ابتكارياً مبتدعاً ، وليست تحويراً أو جمعاً لإنتاج سابق . وهذه الحقيقة على جانب عظيم من الأهمية ، لأنها تثبت لنا أنه عند حلول القرن الثاني عشر كانت اللغات الوطنية المحلية قد بلغت درجة من النضج سمحت لها بالتعبير عن المعارف والمشاعر — من حب وكرهية وخوف وأمل ويأس — في صورة قصص إمتاز بالحياة والخصب^(٢) .

(١) Cam. Med. Hist.; vol. 6; p. 837 & Thompson : op. cit; vol. 2; pp. 811-812.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; pp. 243-244.

وأكبر مجموعة من شعر الملاحم في العصور الوسطى هي المجموعة التي انتجتها فرنسا، والتي تمتاز بأهميتها البالغة للمؤرخ والأديب واللغوى . ذلك أن هذه المجموعة تعتبر خير مرآة انعكست فيها صور المجتمع الإقطاعي وحياة الفرسان والمجتمع الدينى . وكان شارلمان أهم شخصية اتخذتها أشعار الملاحم موضوعا لها ، فاحتل مكانة بارزة في أغاني المآثر Chansons de geste التي دونت باللغة الوطنية والتي أخذت تنتشر انتشارا واسعا في عصر الحروب الصليبية^(١) . وفي هذا العصر بالذات ظهرت في الأدب الشعبى الأسطورة القائلة بزيارة شارلمان لبيت المقدس ، وهي زيارة صورتها الأسطورة في قالب سلى^(٢) . أما أغنية رولان (Chanson de Roland) فقد ظهرت لأول مرة على عصر الحملة الصليبية الأولى ، وأظهرت شارلمان في ثوب الصايبي الذي قام بحرب دينية مقدسة ضد مسامى الأندلس^(٣) . وقد دونت أغنية رولان باللغة الفرنسية الناشئة في أسلوب جميل يجمع بين البلاغة وقوة التأثير ، مما مكن رجال الدين من استغلالها في الدعوة للحروب الصليبية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر^(٤) .

ويبدو أن كثيرا من أغاني المآثر كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الأماكن المقدسة في كومبوستلا وروما وفلسطين ؛ كما يبدو أن نسبة كبيرة من هذه الأغاني كتبها بعض رجال الدين . وبعبارة أخرى فإن هذه الأغاني كانت نوعا من الدعاية الدينية في العصور الوسطى اتخذت شكل ملاحم^(٥) .

وهناك مجموعة أخرى من أشعار الملاحم المنظومة باللغات الوطنية الناشئة ، تحتل مكانة خاصة في الأدب الأوربي الوسيط ، هي المعروفة بأشعار الملك آرثر .

(1) Taylor : op. cit ; vol. 1; pp. 574-575.

(2) Lan-on : Hist. de la Littérature Française; pp.23-25.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 6; 816-817.

(4) Paris : Littérature Française; p. 71.

(5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; pp. 211-216.

وقد ظهرت هذه الأشعار حوالى سنة ١٢٠٠ ، مما جعلها تصور المجتمع الإقطاعى بعد أن هذبته آداب الفروسية وتقاليدها^(١) . وتبدو الفروسية فى هذه الأشعار أقرب إلى أن تكون وظيفة مقدسة تباركها الكنيسة ، إذ يحتفل برفع الفرد إلى مرتبة الفروسية وتدشينه دينيا ؛ فيقضى الليلة السابقة لتدشينه بجوار مذبح الكنيسة لتطهير نفسه مما علق بها من آثام ، ثم يغتسل بماء طهور وفقا للطقوس الدينية ؛ وأخيرا تنتهى هذه الإجراءات الدينية بالصلاة من أجل العذراء . وهكذا صارت هذه المجموعة الشعرية من روايات الملك آرثر مصدرا لكثير من القصص الخيالى الذى انتشر فى كثير من بلدان أوروبا العصور الوسطى^(٢) .

وأخيرا نلاحظ أن جميع بلدان الغرب شهدت منذ سقوط الامبراطورية الرومانية جماعة من الرواة والمنشدين والحواة والمشعوذين ، اختلفت ألسنتهم وتباينت تسمياتهم^(٣) ولكن جمعت بينهم حرفتهم ؛ إذ دأبوا يتنقلون بين الضياع والحصون والأديرة والأسواق وطرق الحجاج ليتعيشوا من إنشاد أغانيهم الشعبية وعرض ألعابهم^(٤) . وقد شابهت هذه الفئة من الناس المنبوذين أو العجزة ، حتى أنهم عرفوا بسوء الخلق وانحطاط المستوى الاجتماعى والخلق ، مما جعل الكنيسة فى العصور الوسطى تصدر عدة تشريعات ضدهم^(٥) . كذلك شابه هؤلاء المنشدون الشعراء الجليارديين فى خفة روحهم وأغانيهم ، مع الفارق الأساسى وهو أن شعر الجليارديين جاء لاتينيا لأن معظم هؤلاء الشعراء كانوا من الطلبة الجائئين أو القساوسة المهارين أو الرهبان الشاردين ؛ وكلهم يعرفون اللاتينية ويتغنون بها^(٦) .

(1) Taylor : op. cit. vol 1; pp 581-582.

(2) Thompson : op. cit. vol. 2; p. 815.

(٣) أطلق على هؤلاء الرواة أسماء كثيرة عرفوا بها العصور الوسطى منها ؛ mimi ؛

gleemen ، minstrels ، histriones ، jongleurs.

(4) Paris : Litt rature Francaise; p. 61.

(5) Thompson : op cit.; vol 2; p 815.

(6) Waddeil ; The Wandering Scholars; pp. 171-173.

التروبادور والشعر الغنائي :

وفى ختام كلامنا عن الشعر الغربي في العصور الوسطى ، يصح أن نشير إلى أن الشعر الغنائي المنظوم باللغات الوطنية ترجع نشأته الحقيقية إلى جنوب فرنسا . أو إقليم بروفنسال على وجه التحديد^(١) . ومع أن هذا الشعر البروفنسالي يدين بقسط ما للشعر اللاتيني الذي عرفته العصور الوسطى ، إلا أن الابحاث الحديثة أثبتت تأثير الشعر البروفنسالي بالموشحات الأندلسية العربية ، التي تمتاز بخفة أوزانها وورقتها وخيالها فضلا عن موضوعاتها التي تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى^(٢) . وقد عرف الشعراء الذين تغنوا بهذا النوع من الشعر البروفنسالي باسم « التروبادور » ، وهو لفظ لا يستبعد أن يسكون تحريفا لعبارة « طرب دور » — أى « دور طرب » بالعربية — مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال في معظم اللغات الأوروبية^(٣) . وأول من نعرفه من شعراء التروبادور هو وليم التاسع أمير أكويتين (١٠٨٧ — ١١٢٧) ، وهو الذى عرف بالمرح وحب الموسيقى والغناء . وسرعان ما تكاثر شعراء التروبادور وأخذوا يتجولون من مكان إلى آخر وقد حمل كل منهم قيثارته ليغنى أشعاره على أنغامها^(٤) . وتحت رعاية خلفاء وليم التاسع ، ترجم بعض الأدباء في النصف الأخير من القرن الثانى عشر قصيدة « فن الحب Ars Amatoria » للشاعر اللاتيني أوفيد (٢٣ ق.م — ١٦ م) ، وهى القصيدة التى أصبحت بمثابة إنجيل شعراء التروبادور^(٥) .

ولم يلبث هذا الشعر البروفنسالى أو التروبادورى أن انتشر فى جميع أنحاء أوربا ، مثله مثل أغانى المآثر والملاحم وقصص الملك آرثر . وهنا أيضاً أصبح لهذا

(١) Linson : Hist. de la Littérature Française; p.86.

(2) Pirenne; Cohen; Focillon : op. cit.; pp 216-217.

(٣) انظر أحمد أمين : ظهور الإسلام ، الجزء الثالث .

(4) Paris : Littérature Française; p. 8٥, 162.

(5) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 820,

اللون من الشعر أثره الفعال في رفع مستوى فرسان أوربا وتعليمهم أساليب التغني بالغزل العفيف^(١). وقد اتضح بالبحث أن غزل الفروسية الذي انتشر بعد ذلك في ألمانيا تأثر إلى درجة كبيرة بأشعار التروبادور التي نشأت في جنوب فرنسا^(٢). ويبدو أن المعاصرين وجدوا في الأدب الوطني المحلي مخرجاً من سيطرة اللاهوت والعلوم المدرسية. حقيقة إن العنصر الديني كان بارزاً واسع الانتشار في هذا النوع أيضاً من الأدب الوطني، ولكن هذا العنصر الديني كان ممثلاً فقط بالقدر الذي يناسب العلمانيين لا رجال الكهنوت. وخير دليل على ذلك أن هذه الآداب الوطنية الناشئة حظيت برعاية الملوك والأمراء المعاصرين مثل هنري الثاني بأنجلترا^(٣)، وهنري الأسد بسكسونيا وأمراء شامبني وغيرهم من الأمراء الذين زخروا بلاطهم بالشعراء والمؤرخين. وكانت هذه الرعاية التي حظي بها الأدب والأدباء من الملوك والحكام شيئاً جديداً على الحياة الأوربية في العصور الوسطى، وظل أثرها، قوياً حتى القرن الثامن عشر. أما في القرن الثالث عشر فإن أبرز الحكام تشجيعاً للأدب — فضلاً عن العلم — كان الإمبراطور فردريك الثاني، الذي جمع حوله العلماء والأدباء، كما حضرت مجموعة من شعراء التروبادور حفل تنويجه في روما سنة ١٢٢٠^(٤).

الشعر القصصي والقصبي:

وقد عرفت أوربا العصور الوسطى نوعاً آخر من الشعر القصصي أطلق عليه اسم fabliaux، امتازت قصصه بأنها قصيرة، تغلب عليها روح الفكاهة والبعث عن التكلف في الأسلوب^(٥). وانتشر هذا النوع من الأشعار فيما بين القرنين

(1) Lanson ; Hist. de la Littérature Française; p.87.

(2) Draper : A Hist of Intellectual Development of Europe; vol. 2: pp 33-34.

(3) Stubbs : Seventeen Lectures on Med. and Mod. Hist. pp.137-143.

(4) Kantorowicz : Frederick the Second; p. 324.

(5) Lanson : Hist. de la Littérature Française; pp. 103-104.

الثاني عشر والرابع عشر ، ولكنه ظل دائما يعبر عن الذوق الشعبي والبورجوازي ؛ بمعنى أنه كان يمثل أدب الأسواق العامة بعكس الخال مع أغاني المآثر والملاحم التي ظلت تمثل أدب الحصون والاستقرائية الحربية في مجتمع العصور الوسطى^(١). أما التمثيلات الدينية في العصور الوسطى فقد ولدت داخل الكنيسة ، واستمدت مسرحها وموضوعاتها ومناظرها وأسلوبها من وحي الكنيسة ، وقام بأدوارها قسيسون ورهبان ؛ وبذلك لم يبق إلا المشاهدون والمستمعون فقط الذين كانوا من العلمانيين . وقد أطلق على هذه التمثيلات الدينية اسم تمثيلات المعجزات ؛ ويرجح معظم الباحثين أن هذا النوع من التمثيلات لم يكن له وجود في العصور الوسطى قبل القرن الحادي عشر^(٢) . ولما كانت هذه التمثيلات قد ظهرت في وقت اشتد ساعد اللغات الوطنية كالإيطالية والفرنسية والبروفنسالية والأسبانية ، فإن هذه التمثيلات الدينية أخذت تعمل — عن طريق غير مباشر — على إدخال كثير من ألفاظ اللغات الوطنية في لغة الكنيسة اللاتينية^(٣). وسرعان ما تطور الأمر حتى أصبحت هذه التمثيلات تبدأ بافتتاحية لا تينية ثم تستأنف باللغة الوطنية السائدة ، ثم صارت التمثيلية كلها تتم باللغة الوطنية . وأخيرا انتهى التطور بالافلاخ عن الموضوعات الدينية واختيار موضوعات دنيوية بحيث تكون محور هذه التمثيلات ، وبذلك انفصلت التمثيلية عن الكنيسة وأصبحت انتاجا علمانيا دنيويا^(٤) .

إيطاليا وروايتي :

أما إيطاليا بالذات فلم تظهر فيها أية عبقرية أدبية مبتكرة في العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر . حقيقة إن الإيطاليين شاركوا بقية شعوب أوروبا العصور

(1) Paris : Litterature Francaise; pp 127-129.

(2) Haskins : The Renaissance; pp 170-174.

(3) Thompson : op. cit.; vol. 2; pp 823-825.

(4) Pirenne, Cohen, Focillon; op. cit.; pp. 408-412.

الوسطى في إنتاجهم الأدبي ، ولكنهم لم ينتجوا قطعة أدبية ممتازة ، ولم تتمخض قريحة أحدهم عن ملحمة خاصة يفخرون بها في هذا الشطر الأول من العصور الوسطى^(١) . ويعلل بعض الباحثين هذا النضوب الأدبي في إيطاليا بأن جهود الشعب الإيطالي انصرفت إلى ناحيتين من نواحي النزاع السياسي ، أولاها النزاع بين البابوية والإمبراطورية ، والأخرى جهاد المدن للمباردية في سبيل استقلالها . ويبدو أن هذه الأحداث — التي كانت إيطاليا مسرحها الرئيسي — أعمت أنظار الإيطاليين عن الآداب والفنون واللاهوت ، في حين انصرف المبرزون إلى الدراسات القانونية والنشاط السياسي^(٢) . وكانت اللغة الإيطالية قد أخذت تنهض وتبرز شيئا فشيئا شأنها شأن بقية اللغات الوطنية الناشئة ، حتى أصبحت قبل مولد دانتي صالحة للتعبير الأدبي شعرا ونثرا ، ولا سيما في صقلية وجنوب إيطاليا . وقد حبا الامبراطور فردريك الثاني هذه اللغة الناشئة بعطفه ورعايته ، فجمع في بلاطه جمعا من شعرائها^(٣) . وتستطيع هذه المجموعة من الشعراء الإيطاليين — التي بلغت نحو الثلاثين في بلاط فردريك الثاني — أن تفخر بأمرين : أولها أنهم كانوا أول من استعمل الإيطالية في الكتابة ، وثانيهما أنهم كانوا أول من ابتكر ذلك النوع من القصائد المعروفة باسم السوننت (sonnet)^(٤) .

ثم كان أن ظهرت على مسرح الأدب عبقرية فذة أنجبتها إيطاليا في ختام العصور الوسطى . ونقصد بهذه العبقرية دانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١) الذي كتب عدة أشعار شهيرة ، أولها عن « الحياة الجديدة Vita Nuova » التي استلهمها

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 818.

(2) Symonds : Italian Literature; p. 10.

(3) Folligno : Epochs of Italian Literature; p. 9 & Kantorowicz : op. cit.; p. 25.

(٤) السوننت نوع من القصائد يغلب عليها الطابع الغزلي ، تنظم على هيئة مجموعات ، تتألف القصيدة من ١٤ بيتا أو ١٢ بيتا حسب اختلاف العصور . وتتميز بوزنها الخاص الذي يتطلب ترتيب الأبيات وفق نظام خاص أيضا . فالجموعة المؤلفة من أربعة أبيات ينتهي البيت الأول منها بحرف A مثلًا ، البيت الثاني والثالث بحرف B ثم الرابع بحرف A وهكذا .

من حبه لسيدة (Béatrice ت ١٢٩٠) لم يستطع أن يتزوج منها ولم تخاطبه سوى مرة واحدة ولكن حبها ظل عالقا في قلبه^(١). كذلك كتب دانتى دفاعا عن اللغة الوطنية (De Vulgari Eloquentia) ؛ وهو دفاع مكتوب باللاتينية ليتمكن المثقفون من قراءته ، ذكر فيه اقتراحاته للنهوض باللغة الإيطالية الجديدة والتوحيد بين لهجاتها لتصبح أداة فعالة في التعبير الأدبي^(٢). أما رسالة دانتى عن الملكية (De Monarchia) فكانت باللاتينية أيضا وتناولت طبيعة الدولة . على أن أبرز انتاج دانتى كان الكوميديا الإلهية أو المقدسة ، وهي أشبه بدائرة معارف نظمها بالإيطالية وتخيل فيها رحلة إلى العالم الآخر ، في أسلوب يمتاز بالروعة وجمال التصوير . ولا تقتصر أهمية هذه الكوميديا على أنها أول إنتاج كامل ضخم بالإيطالية الصحيحة فحسب ، بل ترجع أهميتها أيضا إلى الآراء القوية الجريئة والمعاني العميقة التي عبر عنها دانتى في إنتاجه^(٣).

(1) Pirenne, Cohen, Focillon; p. 338'

(2) Foligno; Epochs of Italian Literature; p. 10,

(3) Pirenne, Cohen, Focillon op. cit ; pp. 336-351..

الباب العاشر

الفنون

تتضمن الفنون بمعناها الواسع كل ما تمخضت عنه العبقرية البشرية من إنتاج فكري ويدوي ، فالجراحة فن والشعر فن والموسيقى فن ولكن من الممكن أن نحدد أفق هذا الاصطلاح ليقصر على ما يتفتح عنه العقل البشري من إنتاج راق يجمع بين قوة الابتكار وجمال الخيال من ناحية ، والمهارة اليدوية من ناحية أخرى. وفي هذه الحالة تضيق دائرة الفنون لتقتصر على العجالة والتصوير والنحت — وهي المجموعة التي يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ ثم المصنوعات اليدوية الصغيرة التي تتطلب دقة فائقة وعبقرية راقية وخيالا واسعا — وهي التي يطلق عليها اسم الفنون الصغرى^(١) .

وأول ما نلاحظه على فنون أوروبا العصور الوسطى هو أنها كانت تعبيراً روحياً ، بحيث جاءت هذه الفنون مرآة صادقة انعكست فيها الحماسة لمبادئ الكنيسة . لذلك لا نكون مباغين إذا قلنا إن كل ما اشتمل عليه الفن الأوربي في العصور الوسطى من رمزية وجمال ومثالية ، إنما يستهدف غاية واحدة هي إرضاء الشعور الديني . وهكذا جاء هذا الفن آية صادقة عبرت تعبيراً أميناً عن أثر العقيدة المسيحية وعصور الإيمان ، وهي العصور التي امتازت بسمو العامل الديني والباعث الروحي على غيرها من قيم الحياة^(٢) .

على أن المتتبع لتاريخ الفنون يلمس ثلاثة عوامل قوية ظلت تؤثر دائماً في الطابع الفني وتكيف هذا الطابع تكييفاً خاصاً . أما هذه العوامل فهي تقاليد

(1) Thompson : op cit.; vol 2; p. 828.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; pp. 419-420.

الشعب وراثته المنصرى ، وظروف البيئة التي ينبت فيها الفن والتي تتحكم في صياغته وتشكيله ، ثم عامل الزمن والتطور^(١) . وبتأثير هذه العوامل في الفن الأوربي في العصور الوسطى انقسم هذا الفن إلى طرز وألوان مما أوجد فناً بيزنطياً وفناً رومانسكياً وفناً إيرلندياً . . . هذا وإن اتفقت هذه الطرز جميعها في صدق تعبيرها عن البواث الدينية الكنسية .

فن العمارة

كان عدد الكنائس — قبل أن يعترف الامبراطور قنسطنطين بالمسيحية — قليلاً ، مما لم يترك مجالاً واسعاً للتعبير عن الفن المسيحي . لذلك لم يظهر الفن المسيحي في هذه المرحلة من فجر العصور الوسطى إلا في المقابر ذات القباب ؛ وهي المقابر التي شيدت من الآجر وكسيت جدرانها من الداخل بطبقة من الطلاء سبجت عليها تصاوير استمدت موضوعاتها من القصص الدينية وصور القديسين^(٢) ، فضلاً عن بعض الإشارات والرموز الدينية مثل الصليب والسمكة والمصباح والنخلة^(٣) . . . أما اجتماعات المسيحيين في هذه المرحلة . فن المرجح أنها كانت تتم في بعض الدور الخاصة أو في بعض المآبذ الوثنية ، لأنهم لم يجرؤوا على إقامة كنائس خاصة بهم . على أن صدور مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، وما أعقبه من انتشار المسيحية انتشاراً آمناً ، أدى إلى مولد فن جديد مثلاً أدى إلى ظهور أدب جديد . وكان مولد هذا الفن في القرون الرابع والخامس والسادس^(٤) .

والواقع أن المسيحية ألقت نفسها — عند اعتراف قنسطنطين بها — في حاجة إلى مبان عامة تتخذ مراكز عائلية للديانة الجديدة وإحياء طقوسها الروحية . وهنا لم يسكن أمام المسيحيين سوى أحد طريقتين : إما الحصول على مبان قديمة من معابد الوثنية امتداعيه — عن طريق الهبة أو الشراء — لتحويلها إلى كنائس ،

(1) Cam Med Hist.; vol. 3; pp. 530-540.

(2) Cam Med. Hist.; vol 1; p. 510

(3) Mâle: Hist. Générale de l'Art; Tome I; pp 255-260.

(4) Simpson: A Hist. of Architectural Development, v l. 1; p. 163

وإماتشيد مباني جديدة لهذا الغرض. ولم يكن منتظرا أن تمتاز هذه المباني الكنسية الأولى بروح الابتكار والتجديد، لذلك جاءت تقليداً وتطبيقاً للطرز المعمارية السائدة حينئذ^(١). والواقع أنه يمكن تقسيم الكنائس في عصور المسيحية الأولى إلى قسمين، وذلك من حيث تصميمها: الأول يشمل الكنائس ذات التصميم المركزي الدائري، والثاني يشمل الكنائس المستطيلة الشكل أو البازيليكا (basilica). ويبدو أن هذا التقسيم يرجع إلى ظروف التقاليد والتراث من ناحية، والبيئة من ناحية أخرى، لأن النوع الأول من الكنائس كان شريفاً يونانياً، في حين كان النوع الثاني غريباً رومانياً^(٢). على أن هذا التقسيم الفني بين الشرق والغرب لم يكن فاصلاً دقيقاً، إذ وجدت في بعض بلاد الشرق البيزنطي كنائس على الطراز البازيليكي في حين لا تزال إيطاليا بوجه خاص تحتفظ ببعض كنائس دائرية التصميم^(٣)؛ هذا وإن كان المهندسون الرومان قد لجئوا إلى تمييز هذه المباني الشرقية الأخيرة بعمل قباب لها. ومهما كان الأمر، فإن الكنائس المستديرة — ذات القباب أو بدونها — صارت نواة فن العمارة البيزنطي، في حين صارت المباني المستطيلة البازيليكية عماد فن بناء الكنائس والكتدرائيات في الغرب^(٤).

فن العمارة البيزنطي :

أما الطراز البيزنطي في بناء الكنائس فقد أخذ في أول الأمر عن النمطين اليوناني والروماني، ثم تأثر بعد ذلك بالفنون الشرقية التي وجدت في آسيا الصغرى وفارس. وتمتاز الكنائس البيزنطية بأنها مربعة الشكل، بخلاف الكنائس البازيليكية المستطيلة، كما تمتاز بالقباب نصف الدائرية التي تعتبر من أهم مميزات الطراز البيزنطي^(٥). على أنه إذا كان إيوان الكنيسة البيزنطية مربع الشكل،

(1) Morey : Med. Art; p. 21

(2) Lethaby : Med. Art; pp. 12-13.

(3) Cam. Med. Hist ; vol. 3; p. 542.

(4) Thompson : op. cit ; vol. 2; p. 830.

(5) Simpson : A Hist. of Architectural Development; vol. 1; p. 214.

(م ١٧ — أوروبا المصور الوسطى ج ٢)

بالإضافة إلى أنه زوى أن يكون لذلك المربع ذراعان جانبيين قصيران ليأخذ الشكل العام للكنيسة هيئة صليب . أما عقود الكنيسة البيزنطية فكانت مقوسة أو على هيئة قوس القوس . ويبدو أنه كان من الصعب الحصول على الأحجار اللازمة لبناء الكنائس في القسطنطينية ، بدليل أن معظم الكنائس البيزنطية شيدت من الحجر ، ثم كسيت جدرانها من الداخل بأعمال الفسيفساء والرخام المنقوش على هيئة صور رمزية للقديسين والعذراء والمسيح^(١) . أما أعمدة الكنائس البيزنطية فقد أخذت أشكالها عن الطراز الروماني مع تجديد هيئة تيجانها بحيث صارت في معظمها مستمدة من أشكال الوحدات الهندسية والنباتية والحيوانية ، مثل الصليبان وأوراق الأشجار والطيور وغيرها . والواقع أن زخرفة الكنائس في الشرق البيزنطي بلغت درجة أرقى كثيرا مما كانت عليه في الغرب ، وظل الأمر على ذلك حتى ظهور الفن الرومانسكي في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر^(٢) .

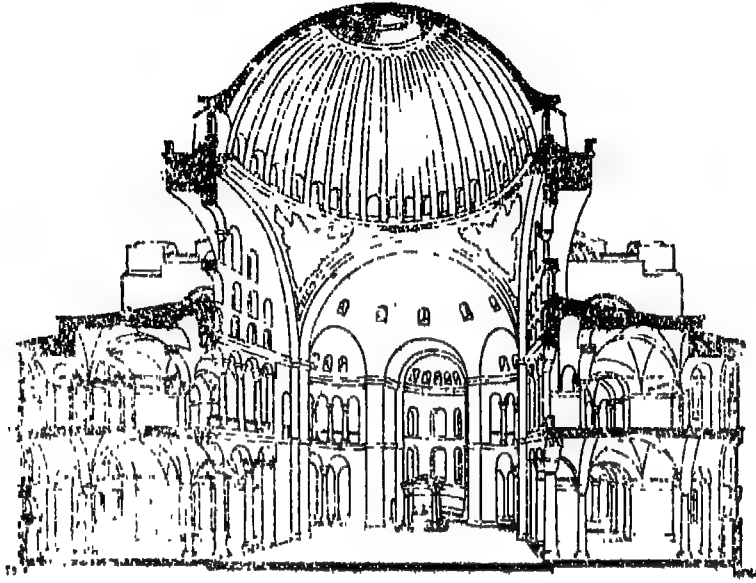
وتعتبر كنيسة القديسة أيا صوفيا — التي تم بناؤها على عهد جستنيان سنة ٥٣٧ — أعظم مثل للكنائس البيزنطية . وهذه الكنيسة مشيدة من الحجر ، وخط مسقطها الأثني دلي هيئة صليب يوناني متساوي الأذرع تقريبا ، إذ يبلغ طول أحدها ثمانين مترا والآخر خمسة وسبعين مترا^(٣) . وعند تقاطع الذراعين توجد قبة يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض ستمين مترا تقريبا . ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة مرصوفة وفق نظام هندسي بديع ، يكفل دخول قدر كافي من الضوء إلى داخل الكنيسة^(٤) . تلي أنه إذا كانت جدران الكنيسة مشيدة من الحجر ، إلا أنها منطاه من الداخل بالرخام والفسيفساء الختلف الألوان كما امتاز داخل الكنيسة بالأعمدة الكثيرة والذئرش الجميلة . وقد أعيد بناء قبة

(1) Morey : M. d. Art ; p. ٤٦٦.

(2) Thompson : op. cit. ; vol. 2 ; p. ٤٩٢.

(3) Cam. Med. Hist. ; vol. ٤ ; pp. ٥١٣-٥١٤.

(4) Leithaby : Med. Art ; p. ٣٤.



مسقط رأسي في كنيسة آيا صوفيا

هذه الكنيسة بعد أن دمرها زلزال سنة ٥٥٨ ، وظلت قائمة حتى فتّح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فحولوها إلى مسجد وأضافوا إلى بنائها أربعة مآذن ، كما أدخلوا عليها بعض التعديلات لتناسب الوضع الجديد ^(١) . والواقع أن كنيسة آيا صوفيا تعتبر بفنها الرائع وجمال هندستها وزخارفها إحدى العجائب ؛ مما جعل الروس — عقب انتشار المسيحية في بلادهم — يحاولون محاكاتها ، فشيّدوا كنيسة في كييف على نمطها .

الكنائس البازيليكية :

وسواء كانت البازيليك المسيحية ترجع في أصلها وتصميمها إلى القاعات الرومانية القديمة التي استعملها الرومان دورا للقضاء ، أو ترجع إلى بيوت الرومان الخاصة التي تقاربها في التصميم ، فإن المهم هو أن اتخذ البازيليك دارا للعبادة

(1) Stephenson : Med. Hist.; p. 124.

المسيحية ترتب عليه ادخال بعض تعديلات معمارية هامة عليها . وهكذا أصبحت الكنيسة البازيلية تتكون من أيوان (١) مستطيل (nave) على جانبيه جناحان (ب) موازيان له (aisles) ، يفصل كل منهما عن الإيوان الأوسط صف أو صفان من العمد ؛ مع مراعاة أن يكون سقف هذين الجناحين أقل ارتفاعاً من سقف الإيوان الأوسط . وقد أتاح ارتفاع الإيوان عن الجناحين الجانبيين فرصة عمل صفين من النوافذ في أعلى جانبيه ينفذ منهما الضوء إلى الإيوان في حين تظل الأجنحة الجانبية ضعيفة الإضاءة ^(١) . وإذا كانت الكنيسة البازيلية على هيئة مستطيل ، فإنه روعى أن يكون الضلعان القصيران لهذا المستطيل جهتي الشرق والغرب ؛ على أن يبرز الضلع الشرقي إلى الجانبين قليلاً ليكون بمثابة جناح عرضي (transept) خاص بالقساوسة ، وبذلك يتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة حرف (T) . وبوسط هذا الجناح العرضي توجد حنية الكنيسة أو محرابها (apse) على شكل نصف دائرة . أما الضلع الآخر الغربي المواجه للضلع الشرقي فكان به باب الكنيسة (د) . وكان كرسى الأسقف يوضع في حنية الكنيسة وعلى جانبيه مقاعد آباء الكنيسة ورجالها ^(٢) . وفي الجزء الواقع بين مكان الأسقف وجمهور المصلين في الإيوان يوجد المذبح الذي كان يشيد في العادة فوق قبر القديس أو الشهيد الذي شيدت الكنيسة باسمه .

هذا ، ويلاحظ أن سقف الكنيسة البازيلية كان يصنع عادة من الخشب المموه بالذهب في حين كسيت أرضيتها بالرخام المقسم إلى أشكال هندسية ^(٣) .

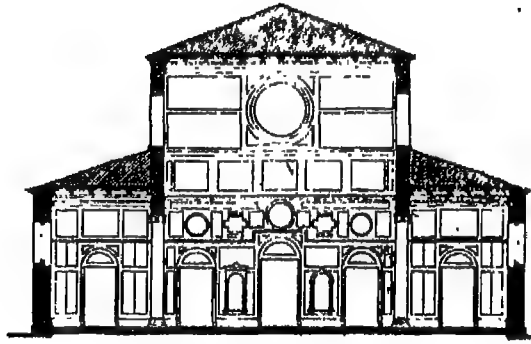
(1) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; pp.: 261-262.

(2) Simpson : op. cit.; vol. 1; pp. 175-178.

(3) Briggs : Architecture; pp. 52-53.



قطاع أفق في كنيسة بازيليكية



قطاع رأسى في كنيسة بازيليكية

فن العمارة في الغرب في العصور المظلمة (٥٠٠ — ١٠٠٠) :

لا توجد لدينا معلومات كافية عن أحوال الكنائس في غرب أوربا قبل عصر شارلمان ، اللهم سوى ما ذكره بعض المؤرخين -- مثل جريجورى التورى -- من إشارات عابرة . ثم كان أن ظهرت النهضة الكارولنجية التى تبنّاها شارلمان ، والتى امتدت حتى شملت الفنون . والحق إن شارلمان كان ببناء كبيرا ، فبنى كثيرا من الكنائس ، وتمهد القديم منها بالإصلاح ؛ كما اهتم بزخرفة قصوره المفضلة ،

لأسيا تلك القائمة في آخن (اكس لا شابل) وإنجلهايم^(١). وقد استعان شارلمان في هذه النهضة الفنية ببعض الفنانين الانجليز والاييرلنديين ، مما أدى إلى انتقال كثير من المؤثرات الفنية من إنجلترا وأيرلند إلى الدولة الكارولنجية ، لاسيا فيما يتعلق بالزخرفة بوجه عام وزخرفة الكتب والمجلدات بوجه خاص^(٢). هذا إلى أن غزو شارلمان لشمال إيطاليا ترتب عليه انتقال المؤثرات الفنية البيزنطية هي الأخرى إلى غرب أوروبا عن طريق إيطاليا . وهكذا جاء قصر آخن الذي شيده شارلمان تحفة فنية ، بأعمدته الرخامية التي جلبها من رافنا ، في حين امتازت الكتدرائية التي بناها



قصر آخن من الداخل والخارج

شارلمان بجوار قصره السابق بأبوابها البرونزية التي أبدع الفنانون الإيطاليون في زخرفتها . وهنا نلاحظ أن هذه النهضة الفنية التي تبناها شارلمان كانت رومانية في طابعها العام مع ظهور بعض المؤثرات الشرقية والبيزنطية . أما الأثر الجرمانى فكان ضعيفا وغير واضح^(٣).

(1) Lethaby : Med. Art; p. 90.

(2) Morey : Med. Art; p.p.197-198.

(3) Thompson : op cit.; vol. 2; pp 835-836.

وعلى الرغم من أن الفن الغربى مستمد من إيطاليا ، إلا أن الحياة الفنية في غرب أوروبا نشطت في القرنين التاسع والعاشر في المناطق الواقعة شمالى الألب. أكثر منها في إيطاليا نفسها^(١) . وقد وجد من البابوات في هذين القرنين — مثل ليو الثالث — من أظهروا اهتماماً كبيراً ببناء الكنائس ؛ ولكن تأخر هندسة العمارة حال دون القيام بمشروعات معمارية ضخمة . وكانت المواد الخام اللازمة لبناء هذه الكنائس — مثل الأحجار والأعمدة الرخامية — تنتزع غالباً من الآثار الرومانية القديمة والتي كان بعضها في روما نفسها ، مما عاد بخسارة فادحة على علمى التاريخ والآثار^(٢) . ولكن يلاحظ أن الدمار الذى تعرض له غرب أوروبا في القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية والإغارات التى قام بها الفايكنج والمجريون ، أدت إلى تدمير كثير من مظاهر النهضة الكارولنجية وآثارها الفنية ، بحيث لم يبق منها سوى القليل في ألمانيا القرن العاشر^(٣) .

ثم كان أن أخذت الأوضاع تستقر في غرب أوروبا في القرن الحادى عشر ، وهو القرن الذى امتاز بمولد حركة إحياء الدراسات الإنسانية وحركة الإصلاح الدينى وازدياد النشاط الدينى ، الذى تمثل في الإقبال على الحج وزيارة الأماكن المقدسة فضلاً عن الحروب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ثم في المشرق . ولما كانت العلاقة قوية دائماً بين الحياة الفنية من جهة والتيارات الاجتماعية والدينية من جهة أخرى ، فإن هذا القرن لم يكن أقل بروزاً في ميدان الفن في أوروبا العصور الوسطى^(٤) .

وواقع أن الحاجة أضحت ماسة إلى كنائس قوية كبيرة بعد أن اتضح أن الكنائس البازيليكية ذات الأسقف الخشبية سريعة الفناء ومعرضة للاختراق

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 3; pp. 553-555.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 837.

(3) Morey : Med. Art; pp. 207-214.

(4) Pirenne, Cohen, Focillon; op. cit.; pp. 460-462.

للاحتراق بين حين وآخر . لذلك أدت الحماسة الدينية التي ظهرت في القرن الحادى عشر من ناحية ، وتوافر الإمكانيات والاستقرار من ناحية أخرى ، إلى ابتكار طراز جديد ، يعبر عنه باسم « الفن الرومانسكى » ؛ ويمكن وصفه بأنه فن رومانى مسيحي^(١) .

الطراز الرومانسكى :

ظهر الفن الرومانسكى نتيجة لتداخل عوامل مختلفة — شرقية بيزنطية ، وبربرية جرمانية ودينية كنسية — فضلا عن الأساس الرومانى الغربى^(٢) . وإذا كان القرن الحادى عشر قد شهد مولد الطراز الرومانسكى فى أوربا ، إلا أن عمر هذا الطراز تفاوت باختلاف البلاد الأوربية ، فأخذ يختفى من إيطاليا في بداية القرن الثالث عشر ، واستمر فى ألمانيا حتى نهاية هذا القرن ؛ فى حين بدأ ينكش فى فرنسا منذ منتصف القرن الثانى عشر . أما فى إنجلترا فقد أدخله النورمان عند غزوم لها فى القرن الحادى عشر واستمر سائدا فيها حتى حل محله الفن القوطى فى القرن الثالث عشر^(٣) . وكذلك فى أسبانيا أدخله الفرنسيون فى القرن الثانى عشر وظل قائما حتى حل محله الفن القوطى فى القرن التالى .

وأهم ما فى البناء الرومانسكى أنه أحل الأحجار محل الأخشاب فى عمل الأسقف ، مما استلزم تقوية جدران الكنيسة عن طريق مضاعفة سمكها ، الأمر الذى تعذر معه إيجاد فتحات كثيرة فى الجدران بسبب سمكها من ناحية وحتى لا تضيق عن حل السقف من ناحية أخرى^(٤) . وفيما عدا هذه الخصائص ، فإن من الصعب إعطاء وصف جامع للعمارة الرومانسكية ، نظراً لاختلاف هذا

(1) Cam. Med. Hist, vol. 3; p. 556.

(2) Cam. Med. Hist ; vol. 3; pp. 558-557.

(3) Briggs : op. cit.; pp. 69-70.

(4) Mâle ; Hist. Generale de l'Art; Tome 1; pp.294-295.

الطراز من بلد إلى آخر في الخصائص ، مما يجعل موضوع دراسة الفن الرومانسكى بصورة صحيحة أمراً يتطلب دراسة خاصة بكل بلد من بلدان الغرب الأوربي^(١) .

ومع ذلك فإنه يمكن وصف الكنيسة الرومانسكية بوجه عام بأن داخلها كان أقل اتساعاً وجدرانها أقل ارتفاعاً من الكنيسة البازيليكية التي عرفت في أوائل العصر المسيحي . وقد احتفظت الكنيسة الرومانسكية بتقسيمها الداخلى إلى إيوان وجناحين موازيين له ، ولكن هذه الأجنحة الجانبية كانت دائماً أضيق عرضاً من إيوان الكنيسة الأوسط . أما عن مواد البناء فقد استخدمت في الكنيسة الرومانسكية الأخشاب والأجر والحجارة ، وإن كانت الأخيرة أكثرها شيوعاً^(٢) . وإذا كانت الكنيسة البازيليكية في العصر السابق قد اتخذت شكل حرف (T) — كما سبق أن أشرنا — فإن الكنيسة الرومانسكية حولت هذا الشكل إلى هيئة صليب ، ويبدو أن الحاجة العملية هي التي دفعت إلى اتخاذ هذا الشكل الجديد ، وذلك لبناء غرفة اضافية تمثل رأس الصليب ، ويتخذها القساوسة لاستعمالهم الخاص . ولم يلبث هذا التغيير أن أدى إلى تطور آخر ، هو انشاء خورس أو مكان خاص بمجوقه المرنمين (choir) أمام حنية الكنيسة ، يفصله عن بقية الإيوان حاجز قليل الارتفاع وبجواره منبر لتلاوة الكتاب المقدس ورسائل الرسل^(٣) . أما الأبراج التي كانت في الكنيسة البازيليكية مبانى منفصلة عن صلب الكنيسة ، فقد غدت في البناء الرومانسكى جزءاً أساسياً من مبنى الكنيسة الرئيسى ، هذا في الوقت الذى تحولت هذه الأبراج من الشكل المستدير إلى الشكل المربع^(٤) .

(1) Idem, pp. 296-307.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 468.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 563.

(4) Thompson : op. cit., vol., 2, p. 841.

كذلك روعى فى تصميم الكنيسة الرومانسكية أن يكون الجزء الأوسط من المبنى الذى يمثل إيوان الكنيسة أكثر ارتفاعاً ليُسمح بدخول قدر كاف من الضوء ، زيادة على الضوء الذى يدخل عن طريق النوافذ المقامة على امتداد الأجنحة الجانبية . أما الأسقف فى الطراز الرومانسكى فهى منحنية ونصف اسطوانية ومكونة من كتل حجرية صغيرة . والمعروف أن الأسقف المسطحة لا تلقى وزناً ثقيلاً على الجدران الجانبية ، بعكس الأسقف المنحدرة والاسطوانية التى تسبب ضغطاً شديداً على الجدران ، الأمر الذى استدعى إقامة أعمدة مربعة على الجوانب لتحمل ضغط السقف ، كما روعى عدم الاكتثار من النوافذ الجانبية فى الجدران حتى لا تضعف هذه الجدران عن حمل السقف^(١) .

ويبدو أن إقامة القباب والأقواس كانت أعظم مشكلة واجهت المهندسين المماريين فى العصور الوسطى . ذلك أن الغرض الأول من إقامة هذه الأقواس لم يكن مجرد الزينة والزخرف واكساب المبنى شيئاً من الجلال والرونق ... كما قد يتصور البعض — وإنما أقيم القوس فى المبنى ليحل اشكالا ويقوم بوظيفة هندسية خاصة يتوقف عليها فهم طبيعة العمارة الرومانسكية ثم القوطية من بعدها^(٢) .

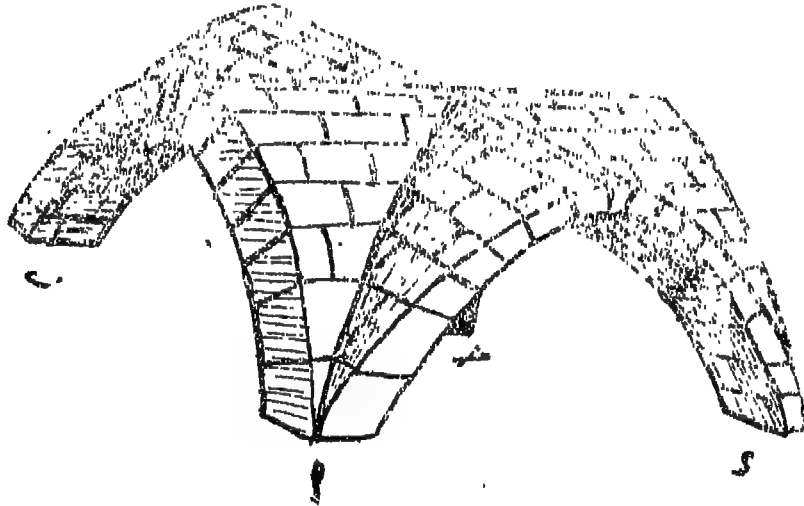
والسقف المقوس أو المدب يمثل خيراً أنواع الأسقف نظراً لتعرض السقف المسطح للتلطف نتيجة لتراكم الأمطار عليه . ولما كانت هندسة العمارة لم تتقدم فى أوائل العصور الوسطى بالدرجة التى تمكن من عمل أسقف من الحجارة ، فإن هذه الأسقف كانت تصنع وقتئذ من الخشب على شكل منحدر . على أن هذا الاتجاه الذى قصد به تلافى ضرر مياه الأمطار ، عرض كثيراً من الكنائس -- قبل ظهور الطراز الرومانسكى -- للحريق والإهميار^(٣) ، وظل الأمر على ذلك حتى استعان

(1) Mâ e : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 294-295.

(2) Morey : Med. Art, pp. 221-263.

(٣) احترقت كنيسة أنجرز Angors سنة ١٠٠٠ ثم سنة ١٠٣٢ ، وكنيسة أوكرس ==

المهندسون — في الطراز الرومانسكى — بالأقواس في حل الإشكال وبناء أسقف غير مسطحة من الحجارة^(١). وهكذا كانت إقامة سقف الكنيسة على شكل أقواس نصف أسطوانية تحملها أعمدة ، هي الغاية التي عمل المهندسون طويلا في سبيل الوصول إليها ؛ فلما توصلوا إليها أدت إلى تغيير الطابع العام لهندسة الكنائس ، وأصبحت العمارة فناً وعلماً يقوم على قواعد رياضية دقيقة^(٢). أما النظرية التي قامت عليها إقامة السقف على أقواس فتتلخص في تقسيم مساحة سقف المبنى إلى مربعات ، كل مربع منها يتألف من منحنين متقاطعين تقاطعاً عمودياً بحيث يقع ثقلهما على الأعمدة القائمة عند زوايا المربع (ا، ب، ج، د). وهكذا يخرج الشكل النهائي على هيئة أربعة أقواس (ا ب، ب ج، ج د، د ا)،



رسم تخطيطي يوضح إقامة السقف المجرى على شكل أقواس تحملها عمد

== سنة ١٠٢٥ ثم سنة ١٠٦٥ ، وكنيسة بوفيه سنة ٩٢٣ ثم سنة ١٠١٨ ، وكامبراي سنة ١٠٢٧ ، وشالون على المارن سنة ٩٣١ ثم سنة ٩٦٣ ، وشارتر سنة ٩٦٢ ثم سنة ١٠١٩ سنة ١١٩٤ ، وليان سنة ١٠٩٩ ، وبواتيه سنة ١٠١٨ ، وروان سنة ١٠١٩ ، وستراسبورج سنة ١٠٠٢ ، وتورز سنة ١٠٢٧ في حين احترقت كنيسة فردوت ثلاث سنوات .

(1) I ethaby : Med. Art, pp, 221-263.

(2) Thompson op cit., vol. 2,p.842, .

تستطيع أن تحمل فوقها سقفاً تساوى مساحته المربع المحصور بين الأعمدة الأربعة^(١).

ولسنا في حاجة بعد ذلك إلى القول بأن العمارة الرومانسكية أحدثت ثورة في فن بناء الكنائس ، إذ ترتب عليها قيام نوع جديد من الطرز المعمارية حل محل الكنائس البازيليكية القديمة . وأشهر كنائس الطراز الرومانسكي في إيطاليا كنيسة بيزا التي افتتحت سنة ١١١٨ والتي اشتهرت ببرجها المائل وواجهتها المقنطرة وخفاتها من الداخل^(٢) . أما ألمانيا فكانت البلد الذي بلغت فيه الكنائس الرومانسكية أقصى درجات الكمال ، كما يتضح ذلك من كتدراثة Bamberg التي أقامها الامبراطور هنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤) ، وكتدراثة Speyer التي شيدها الامبراطور هنري الرابع (١٠٩٣ - ١١٠٥) . ولعل أهم ما يمتاز به هذا الطراز من الكنائس الألمانية هو أنه صمم غالباً بحيث يكون للكنيسة محرابان أحدهما شرقي والآخر غربي ، وبذلك أصبح باب الكنيسة في أحد الجانبين الشمالى أو الجنوبى . هذا بالإضافة إلى إقامة مجموعة من ثلاثة أبراج عند كل طرف من أطراف مبنى الكنيسة^(٣) . أما كنائس فرنسا الرومانسكية فقد احتفظت بمبدأ المحراب الواحد ، مع توسيع ذلك المحراب بإضافة بعض ملحقات إليه^(٤) .

على أن عظمة الفن الرومانسكى لم تبد في الجانب المعماري فحسب ، بل بدت واضحة أيضاً في الزخارف الجميلة التي استخدمت فيها الفسيفساء والنقوش الجصية (Fresco) لتصوير بعض المناظر والرموز الدينية . كذلك حليت قواعد الأعمدة وتيجانها بأشكال تمثل الوحوش أو ورقة الأكنت ، في حين صنعت

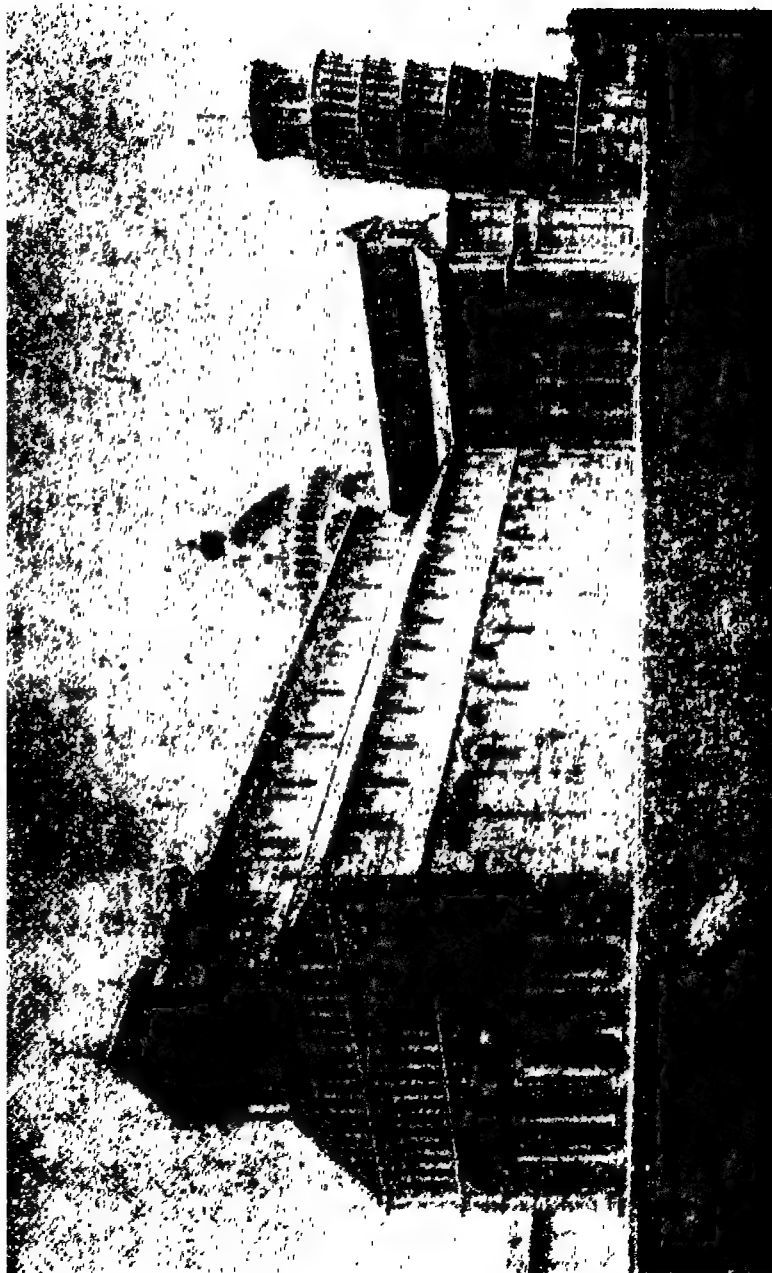
(1) Stephenson : Med. Hist , p. 374.

(2) Morey : Med. Art, p. 222.

(3) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1. p. 305.

(4) Lethaby : Med. Art, p. 97.

— ٢٦٩ —



كنيسة بڑا ورجھا اللہ

نوافذ الكنائس من الزجاج المعشق بالرصاص ليتيح قدراً كافياً من الضوء ينفذ إلى داخل الكنيسة^(١).

أما عن المباني غير الدينية في ذلك العصر فلا نعرف عنها سوى النذر اليسير، لأن أعظم المباني وأضخمها كانت دينية من جهة ، ولأن الكتاب الذين وصفوا هذه المباني كانوا من رجال الكنيسة من جهة أخرى . على أنه لا يوجد لدينا من الأدلة ما يمتنعنا من الاعتقاد بأن ملوك وأمراء القرنين الحادى عشر والثانى عشر اعتنوا ببناء قصورهم وحصونهم الإقطاعية ، وزخرفوها بأنواع الزخارف التى سادت حينذاك . وتدل بقايا الحصون التى ترجع إلى ذلك العصر على أنها كانت تزخرف من الداخل بالرسوم والزخارف الجصية، ومن الخارج بالتماثيل والنقوش الجميلة^(٢).

الفن القوطى:

وإذا كان الطراز الرومانسكى قد نجح فى حل مشكلة الأسقف الجانبية عن طريق حملها على أعمدة وأقواس نصف دائرية ، فإن مشكلة رفع سقف إيوان الكنيسة ظلت قائمة بدون حل ، حتى توصل الطراز القوطى إلى حل لها فى نهاية القرن الثانى عشر عن طريق حملها على أكتاف معلقة^(٣) . والواقع أن الفن القوطى يمثل مظهراً عظيماً من مظاهر النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ، كما يعبر عن الحاسة الدينية التى سادت أوروبا فى ذلك العصر^(٤) . ذلك أن اهتماماً للندن وازدياد نشاطها الاقتصادى فى ذلك القرن ، وظهور النقابات التى عملت على تحسين مستوى الحرف والصناعات ؛ أدى إلى جعل هذه المدن مسرحاً

(1) Thompson : op. cit , vol 2, p. 843.

(2) Mâle: Hist. Générale de l'Art; Tome 1, p. 308.

(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 525.

(4) Cam. Med. Hist , vol. 6, pp 771-772.

لنشاط فني كبير تمخض عن نشأة كتدريثيات تجمع بين الجسدة والعظمة والروعة^(١).

ومن الواضح أن الفن القوطي نشأ عن نهاية القرن الثاني عشر لمداواة العيوب التي اتصف بها الفن الرومانسكي. ذلك أن طراز العمارة الأخيرة كانت به عدة عيوب أساسية أهمها سمك الجدران وعدم مرونة الأقواس ، وعدم استكمال تكوين القباب ، وثقل الضغط على الأعمدة والدعائم الداخلية^(٢). هذا إلى أن سمك الجدران وعظم الثقل المطلوب منها حمله ، حال دون شق نوافذ كافية فيها مما جعل داخل الكنيسة الرومانسكية معتما تنقصه الإضاءة اللازمة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى طراز جديد يتلافى العيوب السابقة بقدر الإمكان ، حتى دفعت هذه الحاجة المهندسين إلى ابتكار الطراز القوطي . وفي هذا الطراز الجديد، عمل المهندسون على تلافى العيوب السابقة ، فأنشئوا الدعائم أو المساند المعلقة (Flying buttresses) ، وهي أكتاف تستند إلى الجدران بقصد إلقاء ثقل البناء على الجدران الخارجية بدلا من الأعمدة الداخلية^(٣). وفي سبيل تحقيق هذه الأغراض لم يهمل المهندسون أمر العناية بمجال الكنيسة القوطية من الداخل والارج ، حتى جاءت السكندرائية المشيدة وفق هذا الطراز آية فنية تعبر تعبيرا صادقا عن قوة العامل الروحي وأثره^(٤).

على أن أعظم ما امتاز به الطراز القوطي كان القوس المدب ، ويمتاز هذا القوس المدب عن القوس نصف الدائري بأن أى جزء من أجزائه لا يمثل خطأ أفقياً يخشى ألا يتحمل الثقل الذى يقع فوقه مما يؤدي بعد ذلك إلى إنهيار القوس

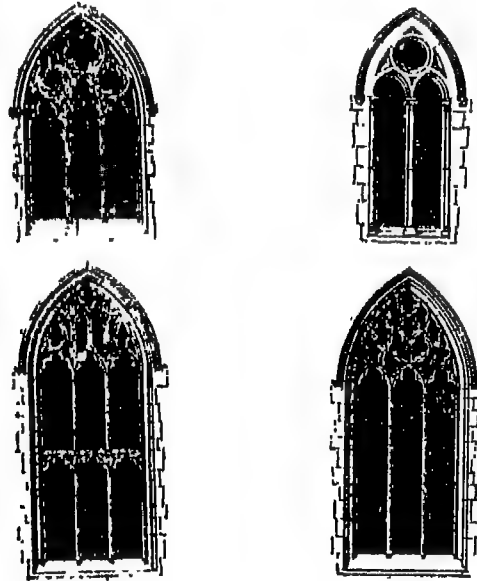
(1) Morey ; Med. Hist. Art, p. 256.

(2) Thompson : op. cit , vol. 2, p 846.

(3) Lethaby : Med. Art, pp.116-119 & Cam. Med. Hist., vol. 6 p.764.

(4) Bailey ; The Arts and Religion, pp. 86-88.

وما يحمله من بناء^(١). فإذا كان القوس نصف الدائرى لم يتوصل إلى حل للنظرية المعروفة فى هندسة العمارة - وهى أن الضغط الجانبى للبناء يتناسب تناسباً مطرداً مع ارتفاع البناء - فإن الحل جاء سهلاً فى حالة الأقواس المدببة . وبعبارة أخرى فإن الطراز القوطى وجد حلاً لهذه المشكلة عن طريق عمل الأقواس والعقود والحنفيات المدببة ، وهى التى يكون ثقلها على الجدران رأسياً ؛ لا أفقياً كما هو الوضع فى حالة الأقواس نصف الدائرية التى عرفها الطراز الرومانسكى^(٢) . وإذا كان السقف يعتمد على عقود مرتفعة مدببة ، فإن هذا من شأنه أن يوجد حلاً لمشكلة النوافذ والإضاءة ، لأن السقف العالى



نماذج لنوافذ قوطية مدببة

المرتفع يتيح الفرصة لعمل نوافذ عالية طويلة ؛ هذا فى الوقت الذى لا يخشى على الجدران الرقيقة من كثرة فتحات النوافذ فيها لأن هذه الجدران لا تتحمل سوى نسبة ضئيلة من ثقل البناء^(٣) .

(1) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 321-322.

(2) Briggs : op cit., pp 91 92

(3) Pirenne, Cohen, Focillon, pd, 529-531.

وهكذا يبدو - إذا وازنا بين كنيسة رومانسكية وأخرى قوطية - أن الأولي تبدو قليلة الإرتفاع ثقيلة البناء ، سمكة الجدران ، في حين تمتاز الأخرى بعظم ارتفاعها وخفة بنائها ورقة جدرانها^(١) . وإذا كانت المساحة الداخلية للكنيسة الرومانسكية قليلة بالنسبة لسمك جدرانها وضخامة أعمدتها ، فإن المساحة الداخلية للكنيسة القوطية تبدو فسيحة واسعة^(٢) . وبينما الكنيسة الرومانسكية تنقصها الإضاءة الكافية في الداخل بسبب قلة النوافذ وصغر مساحتها ، إذا بالكنيسة القوطية تمتاز بنوافذها العديدة المتراسة الطويلة ، التي تسمح للضوء بالدخول بقدر كاف إلى إيوان الكنيسة ؛ حتى عبر عن ذلك بعض الكتاب بقوله « إن الكندرائية القوطية بناء سقفه من الحجر وجدرانه من الزجاج »^(٣) . « هذا إلى أن الكنيسة الرومانسكية تتصف بعقودها نصف الدائرية وسقوفها نصف الإسطوانية ، في حين تمتاز القوطية بعقودها وأسقفها المدببة »^(٤) .

أما الواجهات الخارجية للكنائس القوطية فامتازت بالأبراج العالية ذات الأطراف المدببة والشرفات والكرانش وصفوف النوافذ المتراسة ، والتي لم يراع التنافر بينها في كثير من الأحيان . وامتازت النوافذ القوطية بجمال أشكالها وزجاجها المزخرف المعشق بالرصاص ، والذي كان يعبر في كثير من الأحيان عن مناظر أو قصص دينية^(٥) . كذلك حرص المهندسون على عمل نافذة مستديرة في واجهة الكنيسة القوطية . وتنبعث من مركز هذه النافذة نحو محيطها خطوط مستقيمة تجعل النافذة تبدو كزهرة جميلة أما داخل الكنيسة القوطية فكان مقسم إلى أقسام طويلة يفصلها بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة التي تستخدم في حمل

(١) Cam. Med. Hist , vol ٥, pp. 764-765.

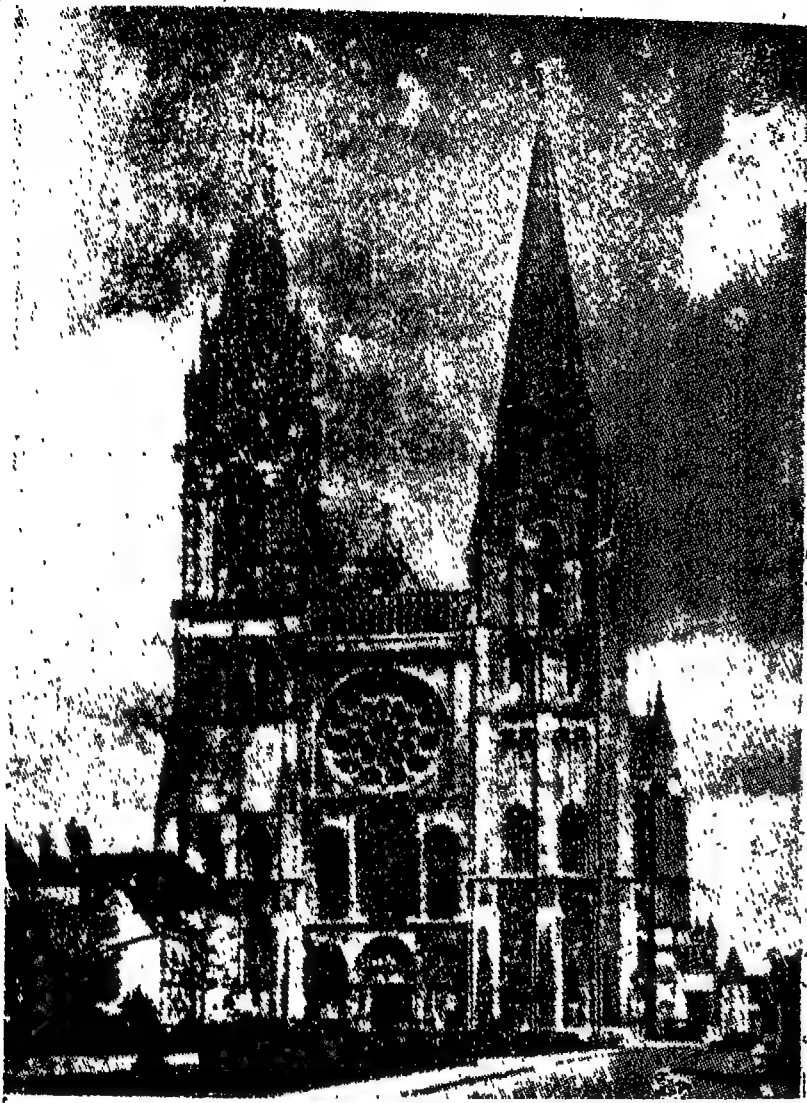
(٢) Ibid.

(٣) Thompson : o.c. cit , vol 2, p. 847.

(٤) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 322-323.

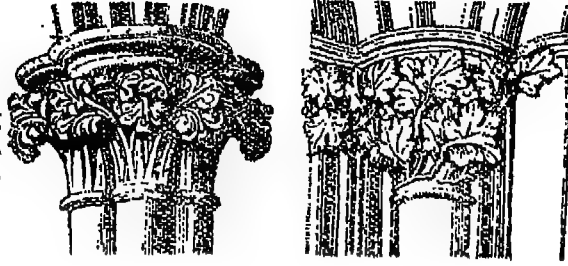
(٥) Lethaby : Med. Art, pp. 180-183.

(م ١٨ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)



واجهة كنيسة قوطية

السقف . واختلقت أشكال هذه الأعمدة ، فكان منها ما هو عادى ، ومنها ما هو لولبى ، ومنها ما هو على هيئة مجموعة من الأعمدة الملتفة حول بعضها البعض . كذلك امتازت تيجان الأعمدة القوطية بأن أغلبها كان على شكل ناقوس منكس تكسوه بعض الزخارف المؤلفة من أوراق النبات وأغصان الشجر . أما القواعد السفلى التى



نماذج لتيجان أعمدة قوطية

ترتكز عليها الأعمدة ، فقد امتازت هي الأخرى بجمال النقش والتصميم (١) .
على أنه إذا كانت الخصائص السابقة تمثل المميزات العامة للطراز القوطي ،
إلا أنه من الثابت أن هذا الطراز اكتسب طابعا خاصا في كل بلد من بلدان
غرب أوروبا وفقا لعوامل البيئة والتقاليد . وقد أجمع الباحثون على أن نشأة الفن
القوطي ترتبط بفرنسا مثلما ارتبطت نشأة الفن الرومانسكي بإيطاليا . وكان تصميم
معظم الكنائس القوطية في فرنسا على شكل حرف (H) مع الدناية بتجميل
هذه الكنائس من الداخل والخارج . كذلك روعي عمل كرايش وأفاريز
خارجية للكنائس في الأجزاء الجنوبية من فرنسا حيث الشمس ساطعة لتهيئة
قدر كاف من الظل (٢) . وتعتبر كتدراية نوتردام وكتدراية أميان خيرا مما يمثل
هذا الطراز في فرنسا . أما إنجلترا فامتازت كنائسها القوطية بالإسجام بين نسبها
الهندسية وعدم الإسراف في استخدام الزخارف . وربما يرجع السبب في هذه
الظاهرة الأخيرة إلى أن كثرة الغيوم والسحب تطلبت الأكتار من اتساع النوافذ ،
مما لم يترك قدراً كافيا من الجدران لهذه الزخارف (٣) . هذا إلى أنه روعي
في استقف الكنائس بأنجارتا شدة الإنحدار لكثرة الأمطار . وأظهر الكنائس
القوطية بأنجارتا كتدراية كانتربوري التي شيدت في النصف الأخير من القرن
الثاني عشر ، ثم تلها كتدرايات ويلزوا كستروغيرها ؛ وكلها تمتاز بجمال أعمدها

(1) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 326-327.

(2) Pirrre, Cohen, Focillon, pp. 532-436.

(3) Cam. Med. Hist., vol 6, pp. 766-767.

وروعة زخارفها وجمال تيجان أعمدتها التي اقتبست وحداتها من الطبيعة (١) ..



رسم تخطيطي لكتدرائية ساسبوري

وإذا كان الطراز القوطي قد ظهر في ألمانيا في وقت متأخر عنه في فرنسا وإنجلترا ، إذ لم تظهر أولى الكنائس القوطية في ألمانيا إلا في القرن الثالث عشر ، إلا أن هذا الطراز سرعان ما وجد تربة خصبة في ألمانيا ، فاستعملت الأحجار في بناء الكنائس الجميلة في مختلف المدن الألمانية مثل كولونيا ومالبورج وستراسبورج وغيرها (٢) . وقد تفنن المهندسون الألمان في زخرفة قواعد الأعمدة ، وفي استخدام الزجاج المؤلف بالرصاص في النوافذ مما كين في ذلك النمط الفرنسي (٣) . أما إيطاليا فكانت أقل البلدان الأوروبية تمحسا للطراز القوطي . وربما كان السبب في ذلك هو تعلق الإيطاليين دائماً بتراث الماضي وتقاليدهم الرومان (٤) . ومع ذلك فقد تسرب للطراز القوطي إلى شمال إيطاليا في القرن الثالث عشر ، وظهرت نماذج جميلة له بعد

(1) Briggs : op. cit., pp. 85-105.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 770.

(3) Lethaia i Med. Art, p. 200.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 767-768.

ذلك في سينا وبولونيا وفلورنسا وبيزا والبندقية وميلان. وهنا نلاحظ أن الإيطاليين لم يهتموا بفن الزجاج المؤلف بالوصايف اهتمامهم بالتصوير والزخرفة على الجص (الفرسكو) (١).

* * *

ومها كان الأمر ، فإن طراز العمارة القوطي ظل هو الطراز السائد في غرب أوروبا حتى القرن السادس عشر ، هذا على الرغم من ظهور حركة النهضة الإيطالية ؛ وهي الحركة التي نادت بالعودة إلى الفنون والطراز الكلاسيكية ونبت فنون العصور الوسطى البربرية . ولعل هذا الشعور من جانب فناني النهضة هو الذي دفع فاساري (١٥١٢ — ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو إلى إطلاق اسم « القوطي » على هذا الطراز الذي يمثل أقصى ما بلغته الحياة الفنية في غرب أوروبا العصور الوسطى من كمال وإبداع . ومن الواضح أن فاساري لم يقصد بهذه التسمية التي استحدثها — والتي صارت علما لهذا الفن — سوى التحقير والازدراء ، والإشارة إلى أن هذا الفن يعبر عن روح البرابرة وهمجيته (٢)

فن التصوير والزخرفة

إذا كان فن العمارة في أوروبا العصور الوسطى قد ارتبط إلى درجة كبيرة بالمؤسسات الدينية — من كنائس وكتدرايات وأديرة — فإن فن التصوير هو الآخر اتخذ طابعا دينيا ، وذلك لتفوق الكنيسة ورجالها من صور الوثنية التي تحبب الناس في الحياة الدنيا ولذا نذها ، وهو اتجاه يتعارض مع دعوة الكنيسة نحو التقشف والبساطة والزهد (٣) .

(1) Lethaby : op. cit , pp. 201-214.

(2) Cam. Med Hist., vol. 6, p. 371.

(3) Bailey : The Arts and Religion; p.p. 45-46.

على أنه من الملاحظ أننا لا نجد أثرا للرق والسحر الفنى حتى فى الصور الدينية التى ظهرت فى العصور الوسطى . فالمقابر ذات القباب — فى فجر العصور الوسطى — كانت تغطى اسقفها وجدرانها ببعض رسوم هندسية أو صور لطيور وحيوانات تغلب عليها البساطة ومعظم ألوانها مزيج بين الأحمر والأخضر^(١) . أما الصور البيزنطية فكانت فى كثير من الحالات أقرب إلى الجمود والبعد عن الحركة والحيوية والطبيعة . ولعل خير ما فى هذه الصور ألوانها الزاهية والانسيجام والتوافق بين هذه الألوان فى الرسم . وتعتبر أعمال الفسيفساء أبرز ناحية فى فن التصوير البيزنطى ، وبخاصة ما تم من تلك الأعمال فى كنيسة القديسة صوفيا حيث تبدو صورة المسيح على أرضية مذهبه وقد التف حوله الحواريون فى ملابسهم البيضاء ، فى حين وقفت مريم العذراء على مقربة منهم فى رداء أزرق سماوى^(٢) . وفيما عدا صور الفسيفساء التى رسمت على جدران الكنائس وفوق مذابحها ، فإننا نجد بقية الصور البيزنطية لا تختلف بعضها عن بعض كثيرا فى طابعها العام من حيث الجمود والخلو من الحياة^(٣) .

أما الفن الرومانسكى فقد امتاز بالزخارف الجصية (الفرسكو) فضلا عن أعمال الفسيفساء . على أننا نلاحظ فى هذا الفن قلة صور الأحياء واتجاه الزخرفة فى أول الأمر نحو الأشكال الهندسية والوحدات النباتية^(٤) . وإذا كانت صور الأحياء قد أخذت تتكاثر نوعا ما بعد مدة من نشأة هذا الفن ، فإن الفضل يرجع فى ذلك إلى الفرنسيين بوجه خاص ، الذين أكثروا من صور الحيوانات والطيور والأشكال الآدمية إلى جانب الصلبان والزخارف النباتية والرموز الدينية . كذلك شغف الإيطاليون بصفة خاصة باستخدام الرموز المسيحية فى الفن

(1) Cam. Med. Hist ; vol. 1; p. 600

(2) Lethaby : Med. Art; p. 54. .

(3) Simpson : op. cit.; vol 1; p.p. 219—220.

(4) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; p p. 315—317.

الرومانسكى ، فاستبدلوا بصور المسيح والقديسين رموزاً خاصة كالصفيحة والشجرة والسمة . أما الحزون المتصل الذى لا تبدو له بداية أو نهاية فقد عبروا به عن الخلود^(١) .

وإذا كانت الكنائس الرومانسكية قليلة الضوء - بسبب قلة النوافذ - مما أضفى على الصور الموجودة داخل الكنيسة مسحة فائمة جافة ، فإن اتساع النوافذ وكثرتها فى الطراز القوطى لم يترك متسعاً للتصوير على الجدران . لذلك اتخذ الفن القوطى من زجاج النوافذ مسرحاً للتصوير ، فبلغت الرسوم على الزجاج المؤلف بالرصاص درجة رائعة من الجمال فى الكنائس القوطية ، وذلك بفضل ألوانها المركبة المنسجمة ومناظرها الخلابة^(٢) . وكثيراً ما استغلت هذه الرسومات على زجاج النوافذ فى التعبير عن مناظر دينية أو أفكار مستمدة من الإنجيل ، حتى ليبدو أن الكنيسة استغلت قوة تأثير الفن على عقول رعاياها غير المتعلمين . « فجعلت من الكتدرائية كتاباً من الحجر يطالع الناس فيقفون على كثير من القصص الدينية الذى يزيدهم ولاء وخشوعاً »^(٣) . وفيما عدا هذه المناظر الدينية اشتهر الطراز القوطى باستخدام الوحدات النباتية كأوراق النبات والأزهار فى الزخرفة ، مما جعل الفنان يزداد قرباً من الطبيعة وحيويتها^(٤) .

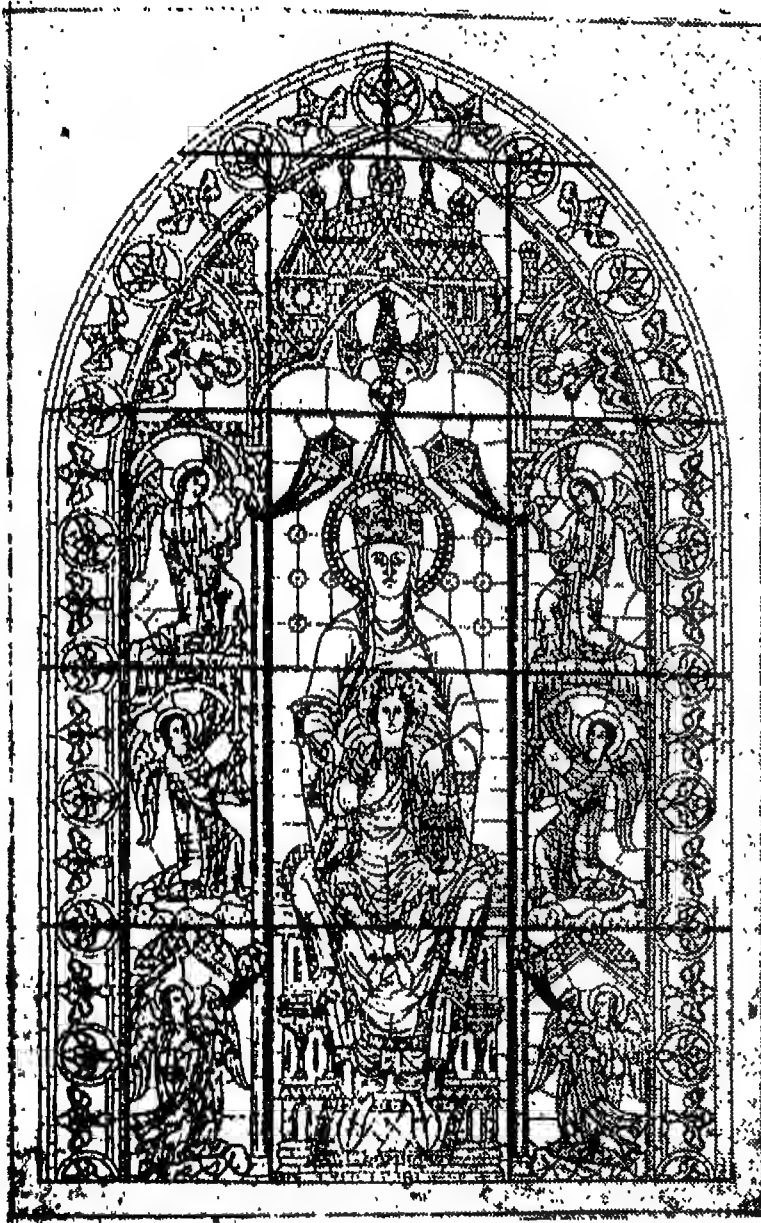
فإذا تركنا الكنائس وزخارفها ، فإننا نجد فن التصوير - من زخرفة ورسم - يظهر بوضوح فى ميدان آخر هو المخطوطات والكتب . ولا توجد لدينا معلومات كافية عن نشأة هذا النوع من أنواع التصوير فى أوائل العصر المسيحى ، ولكننا نلحس بعد ذلك مركزين مهمين لهذا الفن أحدهما فى الشرق البيزنطى .

(1) Pirenne, Cohen, Focillon ; op cit.; p p 515-523.

(2) Lethaby : Med Art; p p 132-135.

(3) Mâle : Religious Art, p.p. 95-96.

(4) Cam. Med. Hist.: vol. 8; p.p. 727-728.



نموذج لرخارف نافذة قوطية من الزجاج المعشق بالرماس
والآخر في أيرلند^(١). ويبدو أن نشأة هذا الفن في الشرق البيزنطى جاءت بدافع

(1) Thompson : op. cit.; vol, 2; p. 851.

الرغبة في تصوير المناظر التي توجد داخل الكنائس مصفرة على رقائق الكتب. أما في أيرلند فقد اختلف الوضع إذ اقتصر الأمر على تزيين الكتب برموز ورسومات غير واضحة^(١). ثم كان أن انتقل فن تزيين الكتب من أيرلند والشرق البيزنطى إلى إنجلترا وغاليا الفرنجية ، فظهر في الكتب الأنجلو سكسونية هذان الطابعان من زخرفة الكتب . ومن إنجلترا انتقل هذا الفن إلى القارة حيث جاءت مخطوطات غالبا وألمانيا خير مثل لما بلغه فن تصوير الكتب في عصر النهضة الكارولنجية^(٢).

فن النحت

أما فن النحت فقد سار هو الآخر في ركاب المسيحية ، فخل المسيح والعذراء في العصر المسيحي محل زيوس وجوبيتر وأبولو وغيرهم من آلهة المسيحية^(٣). وقد أجمع الباحثون على أن انتشار المسيحية أدى إلى تأخر فن النحت عما كان عليه في العصور القديمة ، وذلك لكره هذه الديانة السماوية لأوثان العهد البائد^(٤)؛ حتى أن بعض الباحثين يميلون إلى القول بأن فن النحت لم يولد من جديد في أوروبا العصور الوسطى إلا في القرن الحادى عشر^(٥).

وقد أدت الحركة اللاأيقونية في الدولة البيزنطية إلى محاربة نحت الأيقونات والصور الإنسانية ، ومن ثم أجمه الفن البيزنطى في الفن نحو الاقتصار على عمل الأشكال الهندسية والوحدات النباتية . وهناك نوع من أنواع النحت كان شرقيا بحثا ولم يعرفه الغرب إلا عن طريق الدولة البيزنطية ، هو النحت في العاج . ولم

(1) Cam. Med Hist ; vol. 3; p. 566

(2) Morey : Med Art; p.p. 196-206

(3) Cam Med Hist ; vol. 1; p p. 601 - 602.

(4) Vitry : The Legacy of the Middle Ages; p. 96.

(5) Mâle : Religious Art; p. 17.

يلبث أن انتشر هذا النوع من النحت في عصر النهضة الكارولنجية والأوتية ، بحيث خلف لنا ذلك العصر أمثلة رائعة لتمائيل منحوتة من العاج في غرب أوروبا^(١) .

أما النحت في الفن الرومانسكى فقد انضج في عدة ميادين ، أهمها تيجان الأعمدة التى نحتت بدقة وعناية لتصوير أوراق النبات والأزهار وغيرها . وقد ظهرت التماثيل الخرافية والمضحكة في الفن الرومانسكى في شمال إيطاليا ، ووضعت هذه التماثيل عند قواعد الأعمدة ، كما حفرت بعض مناظر تمثل صورا من الحياة اليومية كالصيد . أما ألمانيا فقد شاع استعمال الأجر فيها في العصر الرومانسكى ومن ثم قلت التماثيل المحفورة في الحجر . وفي فرنسا استعملت التماثيل عند أبواب الكنائس ، كما استعمل الحفر في زخرفة تيجان الأعمدة وواجهات الأبنية^(٢) . ويلاحظ على تماثيل العصر الرومانسكى بوجه عام خلوها من عنصر الحيوية والحركة واتصافها بالجود ، هذا على الرغم مما فيها من قوة ومهارة .

والواقع أن روح الحيوية والدقة في محاكاة الطبيعة لم تبدأ في الظهور في أوروبا العصور الوسطى إلا في الفن القوطى . حقيقة إن فنانى العصر القوطى الأول ظلوا يرسفون في كثير من القيود التى لم يتحرروا منها إلا في عصر النهضة الإيطالية ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن ننكر أن الفن القوطى بذل جهداً كبيراً في العمل على محاكاة الطبيعة^(٣) . وهكذا جاءت الكنيسة القوطية بمثابة معرض كبير ، بفضل ما بذله النحاتون من جهود في نقش مختلف المشاهد الدينية وغير الدينية ، مثل تماثيل القديسين وحشوات الحفر المأخوذة من الوحدات النباتية ، والتماثيل الخرافية المبتكرة كالغول والعنقاء^(٤) . وفي كل هذه النواحي حاول الفنانون

(1) Lethaby : Med. Art; p.p. 159—160.

(2) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; p.p. 309—314.

(3) Morey : Med. Art; p. 275.

(4) Cam. Med. Hist; vol. 8; p.p. 722—725.

محاكاة الطبيعة والتخلص — بقدر الإمكان — من التقاليد البالية التي قيدت
فن النحت في العصور السابقة^(١)

أما خارج الكنيسة القوطية فقد امتاز بالزخارف المحفورة في الحجر، والتي
تقسم واجهتها إلى أقسام رأسية تبدو واضحة على الجدران والأبواب والأبراج
والعمود العمياء. هذا في الوقت الذي روعى أن تمثل الميازيب الحجرية أشكالاً
خيالية لبعض الحيوانات والطيور المسوخة^(٢).

* * *

وبعد، فإننا في كلامنا عن الحياة الفنية في العصور الوسطى اعتمدنا على
المشاهدة وعلى الآثار المادية التي خلفتها لنا تلك العصور^(٣). ذلك أن الكتاب
للمعاصرين وجهاً عنايتهم نحو التطورات السياسية والدينية وأهموا ما عداها من
تطورات فنية. وهكذا نجد أنفسنا في كثير من الحالات لا نملك سلاحاً سوى
الاستنتاج وذلك عند ما نريد الوقوف على الطريقة التي كان يتم بها تشييد هذه
المباني الضخمة، وعلى حياة العمال والفنانين المهندسين والأدوات والآلات التي
استعملوها في إنجاز أعمالهم، أو الطريقة التي تعلموا بها حرفهم حتى أجادوها.
من ذلك أنه لا يوجد هناك شك في أن الصناع والفنانين في أوروبا العصور
الوسطى استخدموا الآلات والأدوات نفسها التي كانت تستعمل في العصر الروماني
القديم، وأنهم لم يتلقوا أصول فنهم في مدرسة خاصة أو كتب معينة، وإنما
تلقوها في ميدان الحياة العملية. ولما كانت إقامة كنائس ضخمة أو حصون منيعة
أمراً لا يمكن أن يتم بطريقة ارتجالية، فإنه من الثابت وجود مهندسين فنيين
وضعوا التصميمات الخاصة بمثل هذه المباني العظيمة وأشرفوا على تنفيذها^(٤)

(1) Vitry : The Legacy of the Middle Ages; p. 193.

(2) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1, p.p. 341—347.

(3) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 2; p. 10.

(4) Harvey : The Gothic World; p.p. 14—16.

وفي هذه الحالة لم تهتم المراجع والوثائق المعاصرة بذكر أسماء هؤلاء المهندسين ، اهتمامها بتخليد اسم السيد الذي استأجرهم وعهد إليهم بالقيام بذلك العمل الهندسى . ولم يحفظ لنا التاريخ سوى أسماء نادرة من مهندسى العصور الوسطى مثل فيلارد دى هونيكورت (Villard de Honnecourt) الذى ترك كتابا به بعض ملاحظات قيمة فريدة فى بابها . ومن هذه الملاحظات نفهم أنه هو الذى وضع تصميم كتدراثية كامبراى Cambrai ، وأنه أشرف على بناء عدة كتدراثيات أخرى عظيمة ، حتى كانت سنة ١٢٥٠ عندما عاهدت إليه ملكة هنغاريا بالإشراف على بناء بعض الكنائس فى بلادها . وقد ترك فيلارد كتابا يحوى بعض التصميمات والرسوم الهندسية ، ليهتدى به من يريد أن يخلفه فى مهنته . وإذا كان هذا هو الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من المراجع الهندسية التى وضعها مهندسو القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلا أنه يثبت لنا أن العلاقة بين الهندسة والفن كانت قوية فى أوروبا العصور الوسطى ؛ بل ربما كانت أقوى مما هى عليه الآن^(١) .

(1) Stephenson : Med. History; p.p. 387-396.

الباب الحادى عشر إيطاليا والنهضة

أوروبا بين عصرين :

سبق أن ذكرنا فى بداية الجزء الأول من هذا الكتاب أن تقسيم التاريخ إلى عصور أمر غير طبيعى ، على الرغم من أهمية هذا التقسيم لدراسة التاريخ^(١) . حقيقة إن الفوارق بين العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة تبدو فى كثير من الأحيان واضحة جلية ، ولكن من التعسف أن نضع فواصل تاريخية معينة بين كل عصر وآخر لأن التطور التاريخي يأتي تدريجياً دون أن يخضع لحدث معين أو يتحدد بيوم أو سنة أو قرن . وكل ما هنا لك هو أنه توجد فترة انتقال زمنية بين كل عصر وآخر من عصور التاريخ ، وفى هذه الفترة نرى بعض بشائر العصر الجديد وقد أخذت تشق طريقها وسط معالم العصر السابق .

وعصر النهضة هو الذى يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة^(٢) ؛ فهو العصر الذى نختتم به دراستنا لتاريخ العصور الوسطى ، وفى الوقت نفسه نبدأ به دراسة تاريخ أوروبا العصور الحديثة . وفى كلتا الحالتين لا يمكننا تحديد بداية زمنية دقيقة لهذه النهضة ، ولكن من الممكن القول بأن بذورها ظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لتبلغ أشدها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ ثم تستمر ذيلوها فى صورة حركات الإصلاح الدينى والنزاع المذهبى فى القرن السادس عشر^(٣) . وبعد ذلك ينتهى عصر النهضة - - أو فترة

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 8; p.903 & Cam. Modern Hist; vol.1, p.1.

(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p. 1.

(3) Idem; p. 7.

الانتقال — لنجد أنفسنا في عصر حديث يختلف في معالمة ومثله وآفاقه وحضارته المعنوية والفكرية والمادية عما كان عليه عالم العصور الوسطى .

والواقع أنه يصعب على الباحث حصر جميع أوجه الخلاف بين العصور الوسطى والحديثة ، وإنما نستطيع أن نبرز ثلاثة عناصر أساسية كبيرة تجعلنا نشعر فعلاً بالفارق بين العهدين^(١) . أما الجانب الأول فيبدو في أن العصور الحديثة عرفت الدولة كوحدة سياسية تقوم على أساس الشعور القومي الذي يربط بين أبناء الأمة الواحدة . فالأمة الحديثة كالأمة الأسبانية أو الإنجليزية أو الإيطالية لم يتم تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى إلا في أواخر عصر النهضة . وبينما ظل المفكرون السياسيون في العصور الوسطى متأثرين بتقاليد الامبراطورية الرومانية العالمية وفكرة الكنيسة العالمية أيضاً ؛ ومن ثم اعتبروا العالم المسيحي بأكمله يمثل دولة واحدة على رأسها زعيان هما البابا والامبراطور ليعبر الأول عن السلطة الدينية ويعبر الثاني عن السلطة الدنيوية ؛ إذا بالعصور الحديثة تنفكر لكل هذه المبادئ وتنادى بأن لكل دولة كيان سياسي مستقل يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها ويجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض فضلاً عن تعصبهم لوطنهم^(٢) .

والفارق الثاني بين العصور الوسطى والحديثة هو أن الأولى لم تتخذ الفرد وحدة أو أساساً للبناء الاجتماعي^(٣) . فالفرد في العصور الوسطى لا يمثل الخلية الأولى في بناء المجتمع ، وإنما تتمثل هذه الوحدة في المجموعة ، سواء كانت هذه الوحدة الضيقة الإقطاعية أو كانت القومون — وهي المدينة ذات الكيان السياسي

(1) Lodge : The Close of the Middle Ages; p.p. 516- 517.

(2) Cam. Modern Hist., vol. 1, p. 2.

(3) Cam. Med Hist., vol. 5, p. 624.

المستقل — أو كانت النقابة التي تنظم مصالح أبناء الحرفة الواحدة . وبعبارة أخرى فإن الفرد كان لا شيء في العصور الوسطى ، في حين كانت المجموعة هي كل شيء . ولم يكن هناك مجال أمام الفرد في العصور الوسطى لإظهار نشاطه وكفائته ؛ اللهم إلا إذا انتظم في سلك السكهنوت فعندئذ فقط يستطيع الفرد المغمور أن يبرز ويظهر ويحتل مكانة مرموقة في المجتمع ، أما العصور الحديثة فقد اعترفت بحرية الفرد ومكانته وأعطته حقه كاملاً في المجتمع وفي الحياة^(١) ؛ حتى قيل إن أعظم ما حققته النهضة هو أنها كشفت عن العالم والفرد^(٢) !

أما الفارق الثالث بين العصور الوسطى والحديثة فهو انتشار الجهل والجمود في الأولى واتساع نور المعرفة ونطاق التفكير في الأخرى . ولنا نريد أن نبالغ فنحكي البعض في القول بأن العصور الوسطى كانت عصور ظلام و جهل على طول الخط ، إذ أثبت الواقع أن ركاب الحضارة لم يتوقف في أوروبا العصور الوسطى ، وأن تلك العصور لم تخل من دراسات ونهضات ووثبات حضارية^(٣) . بل إننا نكرر القول بأنه يمكن اقتفاء جذور نهضة القرن الخامس عشر في أوروبا القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما يبدو لنا من أبواب القسم الثاني من هذا الكتاب أن العصور الوسطى كانت لها حضارتها ذات الطابع الخاص التي تنفي عنها تهمة الظلام المطبق . ولكن كل ما نريد أن نثبتته هو أن الكنيسة ومؤسساتها ورجالها هم الذين احتكروا العلم والتعليم طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى . وليس بخاف أن الكنيسة كانت تعرض قيوداً شديدة على حرية الفكر وحرية البحث العلمي ، حتى انتهى مصير كل من حدثته نفسه بشيء من التحرر الفكرى إلى اتهامه بالهرطقة ، وبئس المصير . فالجمال إثم ، والمرح وزر ، والحياة عرض زائل ، والجهل برهان على الخضوع لله والرضا بأحكامه . . .

(1) Cam. Modern Hist , vol. 1, p. 3.

(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p. 12.

(3) Eyre : op. cit., p. 334.

وهكذا حتى جاءت النهضة فحررت العقل البشرى من هذه المعتقدات وجعلته طليقاً يسبح حراً في دنيا التأمل والجمال^(١). هذا بالإضافة إلى أن وسائل التعلم واكتساب المعرفة كانت محدودة وباهظة النفقات في أوروبا العصور الوسطى. فالطباعة لم تكن قد عرفت بعد، والورق لم يتوصل إليه أوروبا إلا عن طريق العرب في أواخر العصور الوسطى، ورقائق جلود الحيوانات التي استخدمت في الكتابة كانت باهظة التكاليف؛ حتى لجأ الناس إلى محوما على الرقائق من كتابات قديمة لإعادة استخدامها أكثر من مرة. فإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الخرافات والمعتقدات الباطلة في العصور الوسطى، وقلة من عرفوا اللغة اللاتينية قراءة وكتابة — وهي لغة الأدب والعلم في تلك العصور — أمكننا في النهاية إدراك مدى الفارق الثقافي بين العصور الوسطى والعصور الحديثة^(٢).

فالعصر النهضة إذا هو العصر الذي شهد نهاية النظام الاجتماعي والسياسي الذي عرفته العصور الوسطى، كما أزيلت فيه القيود التي فرضتها تلك العصور على حرية الفكر والبحث. والواقع أن الجزء الأخير من العصور الوسطى شهد تغييرات وتطورات على جانب كبير من الأهمية؛ منها اضمحلال الامبراطورية الباباوية جميعاً^(٣)، ونمو الأمم الفرنسية والأسبانية والانجليزية، وظهور اللغات القومية، وانهيار النظام الاقطاعي ونظام الفروسية نتيجة لنمو الصناعة ونشاط التجارة وتحرر المدن^(٤). هذا كله بالإضافة إلى التخلص من سيادة أرستقراطية الأمراء ورجال الدين نتيجة لارتفاع عامة الناس إلى المناصب السياسية، ونمو ملكيات قوية تعتمد على تأييد الشعب في كثير من بلاد أوروبا. ولا بد من أن نضيف إلى هذه التغييرات التي أدت إلى حركة النهضة وساعدت على مولدها

(1) Symonds: Renaissance in Italy, vol. 1, p. 11 & vol. 2, p. 130.

(2) Lodge: op. cit., p. 518.

(3) Pirenne: La Fin du Moyen Age; Tome 2, p.p. 1 - 24.

(4) Idem, p.p. 142—155.

ما تم في ذلك العصر من اختراعات واستكشافات عظيمة^(١). فاستخدام البوصلة والاسطرلاب وما ترتب عليهما من تقدم الملاحة البحرية، أدى إلى الكشف عن طريق الهند البحري والكشف عن العالم الجديد؛ مما ساعد على ازدياد المعرفة واحداث ثورة شاملة في طرق التجارة في العالم أجمع. هذا بالإضافة إلى استكشاف البارود وما وما ترتب عليه من ثورة في نظم الحرب والمجتمع، واستكشاف الطباعة، وما أدى إليه من انتشار العلم والمعرفة^(٢). وأخيرا جاء سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ ليُدفع كثيرا من علمائها إلى الفرار نحو الغرب حاملين معهم قسطا كبيرا من علوم اليونان وحضارتهم^(٣).

وجميع هذه التطورات تنتمي إلى النهضة وترتبط بها، وعلى ذلك تجب علينا دراستها كلها دراسة شاملة إذا أردنا الإحاطة التامة بالنهضة في كافة البلاد الأوروبية؛ وهو الأمر الذي يخرج عن نطاق هذا الكتاب. لذلك نكتفي بالإشارة إلى أوجه نشاط النهضة بمعناها الضيق — أعني حركة إحياء الآداب والفنون — وهي الحركة التي ارتبط مولدها ونشأتها بإيطاليا. هذا مع اعترافنا بأن اصطلاح النهضة بمعناه الواسع لا يقتصر على إحياء الآداب والفنون ودراسات القدماء من يونان ورومان فحسب، وإنما يمتد هذا المعنى ليشمل تغيير الآراء والمثل المعنوية والاجتماعية والسياسية التي سادت العصور الوسطى^(٤).

إيطاليا ومركز النهضة :

والواقع أن إيطاليا تستطيع أن تفخر بأنها الدولة التي شهدت مولد النهضة الأوروبية العظيمة وتولت زعامتها، وهي النهضة التي ظهرت واضحة جلية في القرن

(١) Lodge : op. cit , p.p. 518—519.

(٢) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p.p. 22—23.

(٣) Eyre : op. cit.; p. 287.

(٤) Ibid.

(م ١٩ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

الخامس عشر. ولا محجب، فإن إيطاليا امتلكت لغة قومية وجواً معتدلاً وجرية سياسية ورخاء اقتصاديا، في الوقت الذي كانت بقية البلاد الأوربية لا تزال في حالة واضحة من الجمود والتأخر^(١). وفيما يتعلق بالأدب والفن، لم تشهد إيطاليا حركة إحيائهما فحسب، وإنما تعهدتهما بالرعاية والعناية حتى اكتمل نموها وازدهرا بين ربوعها. وبعد ذلك أخذت بقية الأمم الأوربية تتأق من إيطاليا أصول النهضة وتطبق هذه الأصول في ميادين جديدة كالإصلاح الديني والاستكشافات التي تمت في مختلف ميادين المعرفة.

وهنا نواجه مشكلتين هامتين: الأولى هي لماذا انفردت إيطاليا — دون غيرها من البلاد الأوربية — بشرف مولد النهضة الأوربية الحديثة بين ربوعها؟ والأخرى هي كيف تولد النهضة في إيطاليا، وهي مركز البابوية والكنيسة الغزبية التي عرفت طوال العصور الوسطى بالجمود والتزمت وتقييد حرية الفكر؟ أمنا الإجابة عن السؤال الأول فخلاصتها أن إيطاليا — وعاصمتها روما — ظلت في العصور الوسطى تحتفظ بقدر كبير من تراث الرومان القدماء ومجدهم، على الرغم من أنها تعرضت لغزو البرابرة وتدميرهم، شأنها شأن بقية الولايات الرومانية^(٢). وإذا كانت روما لم تعد حاضرة إمبراطورية ضخمة كما كان الحال في سالف الزمان، فإنها أضحت في العصور الوسطى مركز البابوية وقبلة العالم المسيحي الغربي بأكمله، مما أضفى على إيطاليا مكانة خاصة لم تتوافر لغيرها من الدول الأوربية. هذا بالإضافة إلى أن موقع إيطاليا الجغرافي على جانب عظيم من الأهمية في عصر كان البحر المتوسط مركز التجارة العالمية. وهكذا أدى النشاط التجاري ووفرة الإنتاج إلى ازدياد ثروة المدن الإيطالية الشهيرة مثل البندقية وجنوا وفلورنسا^(٣). وهل هناك شك في أن ازدياد ثروة الأفراد والجماعات تؤدي

(1) Cam, Modern Hist., vol. 1, p. 3

(2) Lodge : op cit., p. 520.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 8; p. 219.

في معظم الحالات إلى الاعتداد بالنفس والشعور بالقوة والسلطان والرغبة في تنوير الفكر والتحرر من كافة القيود والأغلال ، فضلا عن حب الترف والتفنن في اقتناء التحف والمبالغة في مكافأة المنتجين ، مما يدفعهم إلى زيادة الإنتاج والتحمس للابتكار^(١) .

وأما عن المشكلة الثانية الخاصة بموقف البابوية من حركة النهضة الإيطالية فخلاصة حلها أن البابوية في أواخر العصور الوسطى لم تعد كما كانت عليه في أوائل تلك العصور . ذلك أن البابا أصبح في أواخر العصور الوسطى — بالإضافة إلى صفته الدينية كرأس للكنيسة — حاكما دنيويا لا يختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكام الدنيويين المعاصرين ؛ فله أراضى يحكمها ، وله بلاط يعج بالأتباع والموظفين ؛ بل إن البلاط البابوي لم يخل من المفاسد والمخازي التي ليس لها نظير في بلاط بقية الملوك والأمراء العلمانيين^(٢) . وفي الوقت الذي أخذ المسيحيون في شمال أوزبايستان يتقبحون هذا الوضع الذي أمست فيه البابوية وبلاطها ، ويستنكرون القبايح التي تردى فيها البابوات ، إذا بالإيطاليين أنفسهم ينظرون إلى هذه الأوضاع على أنها شيء عادي لا عيب فيه ، ولا يختلف عما كان عليه بقية الأمراء الإيطاليين فعلا^(٣) . وكل ما كان يهتم له الإيطاليون حينئذ هو أن يبقى الكرسي البابوي في روما ، وأن تظل إيطاليا مركز الكنيسة الغربية حتى تتدفق عليها الأموال التي يجتمعها رجال البابا من مختلف بلاد العالم الغربي . ولم يلبث البابوات أن أخذوا يسابقون الأمراء الإيطاليين في تشجيع الآداب ورعاية الفنون ، فنافسوا آل مديشي في فلورنسا وملوك نابلي ، وهرع الأدباء والفنانون إلى البلاط البابوي طامعين في حسن الجزاء وكرم العطاء^(٤) . وهكذا وجد من البابوات أمثال نيقولا الخامس

(1) Eyre : op. cit., p. 628.

(2) Cam. Med. Hist., vol 7, p.p. 281—282.

(3) Symonds : Renaissance, vol. 1, p.p. 292—295

(4) Cam. Med Hist, vol. 8, p. 773.

(١٢٤٧ — ١٢٥٥) وليو العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) من أسهم في بناء النهضة وعمل على تشجيع رجالها ، بل إنه منذ وقت مبكر — يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر — ظهر في البلاط البابوي في أفينون اتجاه نحو تشجيع التراث الكلاسيكي^(١).

النهضة الأدبية :

ولست الأهمية في إحياء الآداب والفنون إلى أن هذا الإحياء أثار موجة من التقدم الفكري قضت على الجهل والخرافات فحسب ، بل إن هذا الإحياء جاء خطوة كبرى في سبيل تحرير الفرد من قيود العصور الوسطى. ذلك أن الفرد كثيراً ما يجد في الفن والآداب مجالا واسعا للتعبير عن مواهبه الذاتية والوصول إلى قمة الشهرة والمجد ، دون حاجة إلى الاعتماد على شرف المولد أو الارتباط بهيئة أو جماعة معينة^(٢) . وكان دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) — الذي احتل مكانة بارزة عند مدخل النهضة الإيطالية — أول رجل عظيم في العصور الوسطى وقف بمفرده واعتمد على نفسه وعلى مواهبه في الوصول إلى قمة الشهرة دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية . ذلك أن « الكوميديا الإلهية » التي وضعها دانتى صبغت أولى اللغات الأوروبية الحديثة بطابعها الأدبي ، ومن ثم أصبح هذا الإنتاج بالغ الأهمية بالنسبة لإيطاليا ، كما ترك أثراً عميقاً في نفوس الإيطاليين وعقولهم^(٣) . وحسبنا أن أسمى أمنية يتمناها الكاتب الإيطالي اليوم هي أن يستخدم أسلوب دانتى ولغته ، حتى أنه كثيراً ما يرجع إلى المعاجم ليتأكد من أن لفظه المختار كان مستعملاً في القرن الثالث عشر. على أن دانتى — على الرغم من عظمته — لم يكن مشبعاً بالروح الحديثة ، ولم يحاول أن يحرر نفسه من آراء معاصرة ومعتقداتهم ليرتفع فوق مستواهم . ففي رسالته عن الملكية (De Monarchia)

(1) Eyre : op. cit , p. 589

(2) Lodge : op. cit., p. 522.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p p. 196—201.

راه يستسلم لآراء الفلسفة المدرسية ، ويبذل مجهوداً كبيراً للدفاع عن نظرية الامبراطورية العالمية^(١) . وعلى ذلك قد يكون من الصواب أن نقول إن دانتي الذى يقف على عتبة النهضة ، يمثل فى الواقع آخر عمالقة العصور الوسطى أكثر منه أول رسل العصور الحديثة^(٢) .

وبعد دانتي جاء بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) الذى أثرت قصائده الغزلية فى آداب جميع البلاد الغربية ، فى حين يعتبر أول الانسانيين الإيطاليين نظراً لحبه لأدب القدامى وشغفه بحريتهم^(٣) . وقد عثر بترارك على خطبتين لشيشيرون فى ليبيج سنة ١٣٣٣ وعلى مجموعة أخرى من رسائله سنة ١٣٤٥ ؛ ومن ثم أخذ يواصل البحث عن تراث القدامى حتى جمع ما يقرب من مائتى مخطوطة ظل يحتفظ بها أمام عينيه فى حله وترحاله^(٤) . وقد حاصر بترارك عبقرى آخر على جانب كبير من الإلهام وقوة الابتكار — هو بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣ - ١٣٧٠) — الذى حاكى بترارك فى ولله بدراسة آداب القدماء حتى أنه فعل الكثير من أجل إدخال دراسة اللغة اليونانية فى إيطاليا^(٥) . وكان أن أحرز بوكاشيو شهرته العظيمة من المائة قصة التى وضعها ، والتى تعرف باسم « الأيام العشرة Decameron على أساس أن سردها يستغرق عشرة أيام^(٦) . وفى هذه المجموعة من القصص يظهر بوكاشيو احتقاره لخرافات العصور الوسطى وتقاليدها البالية . كما ينظر إلى الحياة نظرة مرحة باسمه ؛ وهذه كلها اتجاهات غريبة عن العصور الوسطى جديدة عليها^(٧) . وقد استعمار شوسر فيما بعد فى مؤلفه « قصص

(1) Eyre : op. cit. , p p 476--477.

(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p.p. 8 - 9

(3) Foligno : Epochs of Italian Literature, p. 12.

(4) Eyre : op. cit., p, 589.

(5) Eyre : op. cit., p. 590.

(6) Symonds : Renaissance, vol. 2, p. 63.

(7) Stephenson : Med. Hist., p. 583.

كانت بوري « كثيرا من الفصول والمواقف التي زخرت بها قصص بوكاشيو » وعن طريق شومر تأثر بقية الكتاب في العصور التالية للأدب الإنجليزي بنفوذ بوكاشيو .

والحق إن هؤلاء الأعلام الثلاثة — دانتي وبتارك وبوكاشيو — هم الذين أعادوا لإيطاليا حريتها الفكرية . حقيقة إن النهضة لم تكن قد بدأت بعد ، ولكن ظهورهم بشتر بها وجعل قدومها أمراً متوقفاً في السنوات التالية^(١) . وقد أعقب هؤلاء الثلاثة مجموعة من الجامعين ، وهم الذين أخذوا يتنقلون بين مختلف أنحاء أوروبا — بل خارجها — للبحث عن مخطوطات القدماء وجمعها ، بفضل ما صادفوه من تشجيع بعض الأمراء والبابوات مثل كوزيمو دي مديشي والبابا نيقولا الخامس^(٢) . ومن الصعب علينا الآن تصوير مدى الحماسة التي أقبل بها هؤلاء على مهمة الجمع ، حتى لقد دفعتهم الرغبة في اقتناء المخطوطات القديمة إلى الاحتيال والخداع في بعض الأحيان^(٣) . وقد ظهر من هؤلاء الجامعين فريق أدوا خدمة لا تقدر للعلم والعالم ، مثل بوجيو ، وفرانسيسكو فليلفو ، ونيقولو نيقولي مؤسس مكتبة سانت مارك في فلورنسا^(٤) . أما اللغة الإيطالية في خلال هذه الفترة — أي في النصف الأول من القرن الخامس عشر تقريباً — فكانت في طي النسيان ، لعدم ظهور كتاب كبار حينئذ — سوى بوجيو وسلفيوس — وكلاهما لم يكتب سوى باللاتينية . والواقع أن الفضل في عدم زوال اللغة الإيطالية كلية ، إنما يرجع إلى آل مديشي في فلورنسا ، وهي الأسرة التي حرصت على تشجيع الآداب والفنون واستمالة الأدباء والفنانين حتى جعلوا من مدينتهم « آثينا إيطاليا »^(٥) .

(1) Symonds : Renaissance, p. 9.

(2) Eyre : op. cit ; p.p 600-601.

(3) Symonds : Renaissance; vol. 2; p.p. 98-103.

(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1; p.p.517-519.

(5) Eyre : op. cit, p. 614.

وحسبنا أن لورنزو مديشى — الذى تسلم أعنة الحكم سنة ١٤٦٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره — كان يعرف اللاتينية واليونانية ، ويتذوق التاريخ والفلسفة فضلا عن تحمسه لجميع ألوان الفنون ، حتى أنه دون بنفسه مجموعة شهيرة من الأغاني بالإيطالية لتتشد فى الأعياد الشعبية ، مما يوضح لنا إلى أى حد عمل هذا الأمير على النهوض باللغة الإيطالية وسط محيط متضارب من الدراسات اليونانية واللاتينية^(١).

ثم كان أن دخلت الدراسات الكلاسيكية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى دور جديد — خلاف دور الجمع — هو دور النقد^(٢). فبعد أن انتهى المعاصرون من جمع أكبر قدر ممكن من التراث القديم ، أخذوا يتفهمون هذا التراث ويدرسونه ويحاولون تطبيق تعاليم القدماء على الأوضاع والمشاكل التى يعيشون وسطها . وليس من المبالغة أن نعترف بعظم الأثر الذى تركته هذه الدراسات فى الفكر البشرى ، إذ أخذ الناقدون ورجال العلم يدرسون النصوص الأصلية للفلاسفة القدماء — مثل أرسطو — ويهملون الدراسات المدرسية التى قامت على تراجم محرفة مأخوذة عن العربية . وكان على رأس هذه الحركة لورنزو فالأفى روما ونابلى وفشينو وبوليتيانو فى فلورنسا^(٣). وقد نشر لورنزو فالأفى مقالا ليثبت تزوير وثيقة « هبة قسطنطين » التى اعتمد عليها البابوات فى العصور الوسطى فى إثبات شرعية سلطانهم العلمانى . وكان فالأفى عندئذ فى خدمة ألفونسو ملك نابلى — خصم البابا اللدود — الأمر الذى شجع فالأفى على الاحتماء به ومهاجمة النظامين الكنسى والديرى^(٤). ولو أن الأمر اقتصر على إيطاليا وحدها ، لكان شأن هذا الهجوم ، ولكن الدراسات والعلوم الجديدة التى أتت بها النهضة

(1) Idem; p. 615.

(2) Symonds : Renaissance; p.p, 18-19.

(3) P.renue : La Fin du Moyen Age; Tome 2, p.p. 160-168.

(4) Eyre : op cit; p.p, 607-609.

أخذت تنتشر حينئذ في بقية بلدان أوروبا ، مما جعل لوتر (١٤٨٣ - ١٥٢٦) يتأثر بروح العصر التي أثارها الناقدون ، ويعان ثورته على الكنيسة ونظمها البالية ، وهى الحركة التي عرفت بالإصلاح الدينى .

النهضة الفنية :

وإذا كانت حركة النهضة قد بدأت بإحياء الدراسات السكلاسيكية على أيدي الإنسانيين الإيطاليين ، فإنها استؤنفت بوساطة الفنانين الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة وعملوا على محاكاتها فى روحها وتعبيراتها^(١) . وبعبارة أخرى فإنه إذا كان الإيطاليون أصحاب الفضل الأول فى نشأة الأدب الحديث فإنهم يستطيعون أن يفخروا أيضاً — وعلى مقياس أعظم — بأنهم مبتسكرو الفن الحديث ، وبصفة خاصة فى التصوير والنحت . ذلك أن فن العمارة كان الجانب الفنى الوحيد الذى لم يصبه انهيار فى العصور الوسطى والذى استطاع أهال شمال أوروبا أن يبدوا أهالى إيطاليا فيه . أما فى الرسم والزخرفة من ناحية والنحت من ناحية أخرى ، فإن الإيطاليين احتفظوا بشرف إحيائها جميعاً والنهوض بها إلى مستوى الجمال والكمال ، بعد أن أصبح الجمال غاية لا وسيلة ، يقدس ويحترم لأنه شىء جميل ، لا لأنه يعبر عن مجرد فكرة دينية^(٢) .

أما عن فن التصوير ، فقد كان فى العصور الوسطى مقيداً بقواعد جعلته غير جدير باسم فن . ذلك أن الرسم اقتصر على الأغراض الدينية ، وأصبح مفروضاً أن يطابق الروح الدينية فى اتجاهاته ؛ بحيث صارت الزخرفة تخضع للتقاليد معينة ثابتة تحدد موضع الرسم وطريقة معالجته ، بل نوع الألوان التى يجب أن يتقيد بها الرسام فى رسمه . فإذا تغاضى الرسام عن إحدى هذه القواعد أو أهمل اتباعها فى

(1) Stephenson : Med. Hist.; p. 585.

(2) Symonds : Renaissance; vol, 3; p p 16-17.

رسمه اعتبر ذلك خروجاً عن الدين . وهكذا، صارت مذاهب الكنائس في العصور الوسطى لاتكسوها إلا بصور جامدة للقديسين أو لمريم العذراء ، مما جعل لها أهمية تقليدية دون أن تتمتع بمستوى فنى معين^(١) . حقيقة إن العصور الوسطى خلقت لنا تراثاً ضخماً من الصور والزخارف والرسومات ، ولكنها لم تخلق فناً مبرزين ؛ لأن شخصية الفرد — كما سبق أن ذكرنا — اختفت وذابت وسط الجماعة التي اضطرت الفرد إلى الارتباط بها . ويمكننا أن ندرك عظم الفارق إذا وازنا بين رسامين أحدهما حديث والآخر يرجع إلى العصور الوسطى . وإلى عصر النهضة يرجع الفضل في سد هذه الثغرة الواسعة بين العصرين ، إذ أخذ الفرد يتحرر تدريجياً في ذلك العصر من قيود العصور الوسطى وأغلالها . أما أهم مظاهر هذا التطور فتبدو في ازدياد تعلق الناس بالطبيعة وجمالها ، وفي تقديرهم لذات الإنسان ، ثم في ضعف الأثر الدينى في الفن ، هذا كله زيادة على تقدم الأساليب الفنية ذاتها^(٢) . وتتمثل أهم التطورات الفنية التطبيقية في إدخال التصوير الجصى (Fresco) على الجدران واستكشاف التلوين بالزيت — الذى يرجع الفضل فيه إلى الفلمنكيين — ، واستخدام الألواح النحاسية وحفر الخشب وطبعه ؛ وهى الأمور التي جعلت من المستطاع إخراج كثير من الانتاج الفنى الرائع . على أن أهم تطور شهده الأسلوب الفنى في عصر النهضة يتمثل في محاكاة أشكال جميلة مستقاة من الطبيعة ، مع الإعراض عن الصور القديمة التي تتصف بالجمود والرسوخ . وهكذا أصبحت دراسة تشريح الأعضاء وحركاتها المنظورة أشياء لا بد منها للرسم ، لأن الانتاج الفنى لم يعد عملية نسخ آلى لقالب معين تفرضه السلطات الكنسية ، وإنما أصبح تعبيراً حراً عن عقلية الفنان وعبقريته^(٣) .

(1) Idem; vol. 1; p. 14.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 8; p. 770 & Symonds : op. cit. vol. 3, p. 5.

(3) Symonds : op. cit.; vol. 3; p. 135.

صورة بالهرسكو غني آدم



وترجع بداية النهضة في فن التصوير إلى القرن الرابع عشر عندما برزت في هذا الفن مدينتان في إيطاليا هما فلورنسا وسينا Siena . وأول رسام فلورنسى عظيم هو كيمابو Cimabue الذى عاصره في مدينة سينا الرسام دوتشيو Duccio^(١) . وعلى الرغم مما نلاحظه على انتاجهما من استمرار الجود والتقيد في توزيع الألوان ، إلا أننا نلمس في هذا الانتاج تناسقا بين أعضاء الجسم وبجالات في شكل الوجه . ثم كان أن خلف هذين العاملين مجموعه من الفنانين بلغوا غاية الشهرة ، فظهر في فلورنسا جيوتو Giotto (١٢٦٦ - ١٣٣٦) الذى اشتهر في ميادين الرسم والنحت والعمارة حتى أنه وضع أساس مدرسة في فلورنسا سمت بالمستوى الفنى سموً كبيراً . وكان جيوتو أول من أحل الرسم التعبيري محل صور الأشكال الآدمية الجامدة التى كانت سائدة حتى ذلك الوقت^(٢) . وإلى جانب جيوتو ظهر بعض معاصريه من أعلام الرسم والزخرفة أمثال أندريا أوركاغنا Andrea Orcagna ، وأمبروجيو لورنزيتي Ambrogio Lorenzetti ، وفرا انجليكو Fra Angelico ، ولو أن الوثائق تذكر الأخير متأخراً زمنياً بعض الوقت عن سابقه . على أننا يجب أن نشير هنا أيضاً — كما قلنا عن دانتي — إلى أن هؤلاء الأعلام ينتمون إلى الصفحة الأخيرة من العصر المنصرم أكثر من ارتباطهم بالصفحة الأولى من العصر الجديد^(٣) . ذلك أنهم عبروا في صورههم وزخارفهم عن نظريات العصور الوسطى في الديانة والحياة البشرية . وكل ما هنالك هو أنهم أدخلوا على رسومهم تحسينات واسعة في الطريقة والأسلوب ، مع بقاء هذه الرسوم تمثل كل ما ينتمي إلى العصور الوسطى . والواقع أن هناك ثلاث صور من ذلك العصر تصور العصور الوسطى تصويراً دقيقاً ؛ الأولى صورة « انتصار الموت » لأوركاغنا ، وهى تعبر

(2) Idem: p. 137

(1) Symonds : op cit.; vol. 3: p.p. 138-148.

(2) Hirenne : La Fin du Moyen Age; Tome 2; p.p.225-228.

عن الطابع الديني المتزمت الذي امتازت به العصور الوسطى^(١). والثانية صورة «الكنيسة المناضلة الظافرة» التي قام برسمها تلاميذ جيوتو في كنيسة القديسة مريم الجديدة في فلورنسا، وهي تبرز تنظيم الكنيسة بجلاله وهيئته. وأخيراً تأتي صورة «الحكومة المدنية» من انتاج امبروجيو لورنزى، وهي تصور الحياة السياسية العاصفة في قومون العصور الوسطى^(٢).

فإذا تركنا جيوتو وتلاميذه، فإننا نرى الجيل التالي من رسامى القرن الخامس عشر يعبر عن النهضة تعبيراً فنياً ناضجاً. وكانت فلورنسا لا تزال تحمل لواء النهضة الفنية، فظهر فيها ما ساشيو Masaccio الذى تعتبر رسومه الجصية على جدران كنيسة برانكاشى Brancacci خير ما يعبر عن الخطوة الفنية التالية بعد جيوتو. وقد تأثر الفنانون الذين ظهروا بعد ذلك بهذا الإنتاج إلى حد بعيد، وبخاصة روفائيل الذى أفرد له دراسته خاصة^(٣). ثم خلف ماساشيو عدد كبير من الرسامين البارزين من بينهم فيلبوليبى Filippo Lippi وساندرو بوتشيللى Sandro Botticelli ولوقا سجنوريللى Luca Signorelli وغيرهم^(٤). وربما كان الأخير أقدرهم جميعاً حتى أنه يعتبر بجرأته فى التصوير ودرايته بتشريح الأعضاء وازدراؤه لقواعد العصور الوسطى وقبورها، منافساً لميخائيل أنجيلو.

على أن فلورنسا لم تكن الميدان الوحيد لهذه الثورة الفنية، إذ تجلّى هذا التطور بوضوح فى غيرها من المدن مثل مدينة بروجيا حيث ظهر بييترو بيروجينو، ومدينة بادوا حيث ظهر أندريا مانتجنا، وفى البندقية حيث ظهر جيوفانى وجنتيل بلينى وفيتور كاراشيو. والواقع أن هذه المجموعة من الفنانين هى التى مهدت الطريق أمام أعلام القرن السادس عشر، مثل ليوناردو دافينشى، وميخائيل

(1) Symonds : op. cit.; vol. 3; p. 146.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age; Tome 1; p.p. 303-304.

(3) Symonds : op. cit.; vol. 3; p.p. 106-170.

(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2; p.p. 225-236.

انجيلو ، وروفاثيل ، وأنديرا دل سارتو ، وتيتيان تنطوروا . حقيقة إن هؤلاء الفنانين استمروا يستخرون مواهبهم في أغراض دينية ؛ ولكنهم عالجوا هذه الموضوعات في روح إنسانية دنيوية ، فجعلوا الرغبة في السكمال الفني هي الأساس ثم يأتي التعبير الديني على هامشها . هذا فضلا عما أمتاز به إنتاج هؤلاء الفنانين الذين يعبرون عن النهضة في عصر نضجها ، من عدم تحمس نسبي للمثل الأخلاقية ومقدرة فائقة على التحكم في توزيع الألوان والأصباغ^(١) .

ومع ذلك فإن السمو الفني الذي امتازت به النهضة يبدو في ميدان النحت أكثر منه في ميدان التصوير والرسم . وإذا كان الفنانون بوجه عام قد ثاروا في عصر النهضة ضد تقاليد العصور الوسطى وقيودها ؛ وتحرروا من هذه القيود ليخرجوا إنتاجاً أوفر جمالا وأعظم ابتكارا ، فإن النحاتين بوجه خاص تأثروا إلى حد كبير — في سبيل الوصول إلى هذه الغاية — بالدراسات والنماذج الكلاسيكية^(٢) . والسبب في ظهور الأثر الكلاسيكي في النحت أقوى منه في التصوير واضح وجلي ، لأن أعلام التصوير والرسم عند اليونان والرومان عفى عليهم الزمن ودرس إنتاجهم ولم تبقى سوى أسماؤهم ، ولذلك لم يتأثر التصوير في عصر النهضة بالروح الكلاسيكية إلا تأثرا شفويا لعدم وجود نماذج يحاكيها فنانون ذلك العصر . أما في النحت فكان الحال على العكس ، لأن تماثيل اليونان والرومان ظلت باقية حتى عصر النهضة ؛ وبعض هذه التماثيل بلغت درجة رائعة من الجمال والقرب من الطبيعة مما هيا نماذج حية ناطقة أمام فنانى النهضة . وهكذا أنجب عصر النهضة مجموعة من النحاتين البارعين الذين بذوا في إنتاجهم إنتاج اليونان . وأول من يصور لنا هذا العهد الجديد في تاريخ النحت هو نيقولا البيزى Niccolò da Pisano الذى شاهد أثرأ يونانيا مجلب إلى بيزا فأعجب

(1) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 16-17 & 240.

(2) Lodge : op. cit., p p 529-530.

بجمله وروعه ، ودفعه ذلك إلى دراسة أوضاع الفن اليوناني وأساليبه^(١) . ومنذ ذلك الوقت عكف نيقولا على التوفيق بين حب اليونان للجمال وبين تقاليد الفن المسيحي^(٢) . ثم جاء بعده في القرن التالي عدد كبير من النحاتين الذين انتمى معظمهم إلى فلورنسا ، مثل لورنزو غيرتشي Lorenzo Ghiberti الذي نحت أبواب كنيسة فلورنسا ، وهي الأبواب التي قال عنها ميخائيل أنجيلو أنها تستحق أن تكون أبواباً للجنة^(٣) . هذا فضلاً عن عدد آخر من النحاتين مثل لوقا ديلاروبيا ، ودوناتلو ، وأندريا فروشيرو وغيرهم ؛ وبعد هؤلاء تأتي مجموعة من أعلام فن النهضة في النحت وعلى رأسهم بنيفينتو شليني (Benvenuto Cellini) وميخائيل أنجيلو (Michael Angelo) . ويعتبر أولهما مثالا لمن يريد أن يدرس النهضة الفنية الخالصة غير المتأثرة باعتبارات دينية أو خلقية ، وهي النزعة التي تولدت في المراحل المتأخرة من النهضة . أما الثاني فكان ضد الأول على خط مستقيم ، لأنه في حين أعطى شليني في فنه صورة للعصر الذي عاش فيه ، إذا بميخائيل أنجيلو يبرز شخصيته القوية في إنتاجه الفني . والواقع إن عبقرية النهضة وعظمتها بلغت ذروتها في شخص ميخائيل أنجيلو^(٤) . وهنا يصح أن نشير إلى أن النحت يصح أن يغلب عليه الطابع اللاديني والمظهر الوثني أكثر مما هو الحال في التصوير ، لأن جمال الوجه لا بد وأن يتبعه جمال القوام وإبراز محاسنه دون التقيد بالآخلاقيات .

أما فن العمارة فقد شهد هو الآخر تقدماً مستمراً في عصر النهضة ، وهو تقدم كانت الزعامة فيه لإيطاليا أيضاً . وقد سبق أن أشرنا إلى أن فن العمارة لم ينله انهيار في العصور الوسطى مثلما حدث بالنسبة للرسم والنحت ، كما أن الأثر

(1) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 77-80.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p.p. 296-297.

(3) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 92-93.

(4) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 281-282

الكلاسيكي لم يتعدم في العصور الوسطى لأن الطراز الرومانسكي الذي انتشر في أوائل تلك العصور قام على أسس وقواعد كلاسيكية^(١) . وقد خلف الطراز الرومانسكي فيما وراء الألب الطراز القوطى حيث ظلت الكتدرائيات القوطية تعبر عن الحماسة الدينية للشعوب الجرمانية في أواخر العصور الوسطى . ولم تلبث إيطاليا أن عرفت الطراز القوطى على أيدي المماريين الألمان في أواخر القرن الثالث عشر . على أن الفن القوطى في إيطاليا اختلفت خصائصه عنه في شمال أوروبا نتيجة لظروف البيئة والمناخ ، فضلا عن أن إيطاليا لم تشأ أن تنكر تماماً للطابع الكلاسيكي في فنها^(٢) .

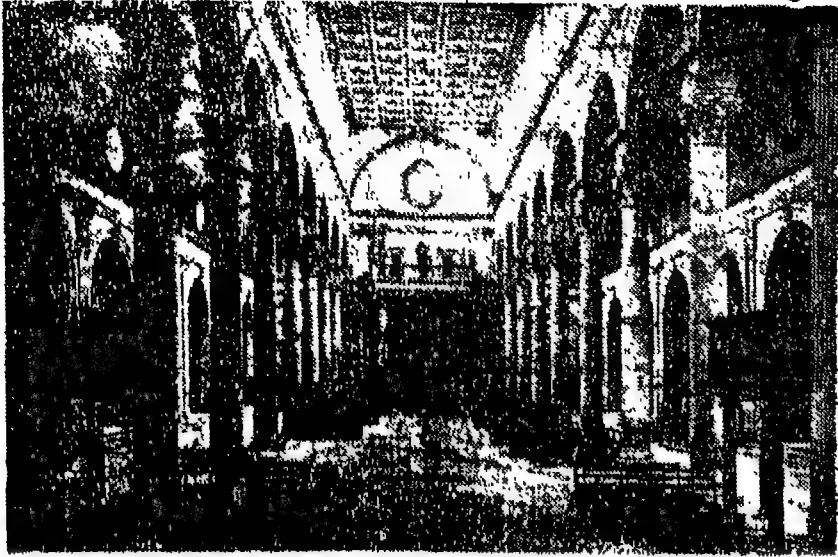
ثم كانت النهضة في فن العمارة نتيجة لإحياء التراث الكلاسيكي مثلما كان الحال في فن النحت . وتبدى التطورات الأولى التي جاءت بها النهضة في العمارة في العودة إلى الأقواس والعقود نصف الدائرية التي امتاز بها الفن الرومانسكي ، ثم بعد ذلك في استخدام الأسقف المسطحة ، والكرائيش التي تعلو النوافذ والأبواب مثلما كانت عليه المباني اليونانية والرومانية^(٣) . وتعتبر كتدرائية فلورنسا بقبعتها العظيمة التي قام فيليبو برولنسكو (Filippo Brunellesco) بإنشائها أعظم نموذج لمباني الشطر الأولى من عصر النهضة^(٤) . ويمكن أن نتبع هذا التطور العظيم بعد ذلك في كتدرائية القديس بطرس بروما التي وضع تصميمها برامانت (Bramante) ؛ ثم بعد ذلك في القصور التي شيدها بلاديو (Palladio) في فيتشنزا وفيرونا . ويمتاز فن العمارة في أواخر عصر النهضة بشدة العناية بالتناظر والتناسق والانسجام ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف روح الابتكار والتجديد .

(1) Lethaby : Med Art, p. 60.

(2) Symonds : op. cit , vol. 3, p.p. 37-41.

(3) Idem, p.p. 49-52.

(4) Lodge : op. cit., p. 531.



كنيسة فلورنسا من الداخل

أثر حركة النهضة

وبعد ، فإن حركة النهضة - شأنها شأن الحركات العظيمة في التاريخ - حوت كثيراً من المزايا والمثالب . وكان أهم اتجاهين سادا هذه الحركة - لاسيما في الشطر الأخير منها - هما إحياء المؤثرات الكلاسيكية في الأدب والفن ؛ ثم تحرير الفكر والفرد من قيود العصور السابقة وأغلالها . ومن الواضح أن كلا الاتجاهين كانت له عيوبه ومخاطره . فالأول من شأنه أن يجعل المفكرين عبيداً للنماذج الكلاسيكية التي يحاولون محاكاتها ؛ والاتجاه الثانى أدى في حالات كثيرة إلى الإلحاد والمبالغة في التحرر إلى حد الفوضى الاجتماعية والدينية . وقد أدى اتجاه النهضة نحو حرية البحث والاستقصاء إلى حركة الإصلاح الدينى ، وهى الحركة التى لم تلبث أن تحولت إلى اتجاه مضاد لروح الحرية التى نشأت فى الأصل عنها . ذلك أن البروتستانتية المتطرفة تعارضت فى حالات كثيرة مع الاتجاهات الإنسانية تعارضاً واضحاً حاداً ، حتى أن سافونارولا - الذى يعتبر

مثلا لحركة البيوريتان في إيطاليا — حرض أتباعه على أن يحرقوا صورهم وحليهم بل حتى كتبهم^(١). كذلك حرم البيوريتان الإنجليز حب الجمال في الفن لأنه اتجاه مادي يؤدي إلى فساد الروح . وهكذا لم يلبث البروتستانت — الذين أقاموا حركتهم على أساس حرية الفكر والعبادة — أن اعتنقوا مبادئ تعسفية تستهدف عدم التسامح والاستبداد .

أما عن الآثار الطيبة لحركة النهضة فأهمها تنوير الفكر وانتشار التعليم . ذلك أن ازدهار المعارف الجديدة وإصلاح الكنيسة أدى في كل بلد إلى إنشاء مدارس وجامعات جديدة ، فضلا عن التقدم بالنظم التعليمية في المعاهد القائمة فعلا . وبفضل انتشار التعليم تحققت أعظم نتائج النهضة وأكثرها استمراراً ، وهي إيجاد نوع من الوحدة الخلقية والثقافية بين بلدان غرب أوروبا . ولا شك في أن هذه الوحدة التي قامت على أساس حرية الفكر والضمير الفردي كانت أقوى أثراً وأكثر استمراراً من وحدة قامت في العصور الوسطى تحت ضغط قيود فرضتها الكنيسة لتضمن سيطرتها على الناس داخل دائرة معينة

(١) حسن عثمان : سافونارولا ص ١٣٦ — ١٤١ .

(م ٢٠ — أوروبا العصور الوسطى ج ٢)

قائمة المراجع

الى تواتر ذكرها في حواشي الجزء الثانى

- Adams (G. B.) :**
The History of England from the Norman Conquest
to the Death of John (1066-1216),
London, 1905.
- Bailey (A. E.) :**
The Arts and Religion.
New-York, 1944.
- Ball (W. W. R.) :**
A Short Account of the History of Mathematics.
London, 1927.
- Barker (E.), Clark (G.), Vaucher (P.) :**
The European Inheritance (3 vols.).
Oxford, 1945.
- Bolsennade (P.):**
Life and Work in Medieval Europe.
London, 1937.
- Bowie (J.) :**
Western Political Thought.
London, 1948.
- Bréhier (E) :**
La Philosophie du Moyen Age.
Paris, 1949.
- Briggs :**
Architecture.
Oxford, 1947.
- Browne :**
Arabian Medicine.
Cambridge, 1921.
- Coulton (G. G.) :**
The Medieval Scene.
Cambridge, 1931.
- Coulton (G. G.) :**
Life in the Middle Ages (4 vols.)
Cambridge, 1928.

- Crump (C.G.), Jacob. (E. F.) :**
The Legacy of the Middle Ages.
Oxford, 1926.
- Dampier (W. C.) :**
A History of Science and its Relation with Philosophy and Religion.
Cambridge, 1942.
- Davis (H. W. C.) :**
Charlemagne.
London, 1929.
- Delambre :**
Hist. de l'Astronomie du Moyen Age.
Paris, 1819.
- De Wulf (M.) :**
Histoire de Philosophie Medievale (2 vols.)
Louvain, 1924.
- Draper :**
A Hist. of Intellectual Development of Europe (2 vols).
London, 1864.
- Evans (J.) :**
La Civilisation En France au Moyen Age.
Paris 1930.
- Eyre (E.) :**
European Civilization (vol. 3, The Middle Ages)
London, 1935.
- Fliche (A.) :**
L'Europe Occidentale du 888 a 1125
(Hist. du Moyen Age, Tome 2).
Paris, 1930.
- Foligno (C.) :**
Latin Thought during the Middle Ages.
Oxford, 1926.
- Ganshof (F. L.)**
Feudalism.
London, 1952.
- Gierke (O.) :**
Political Theories of the Middle Ages.
Cambridge, 1927.
- Gilson (E.) :**
La Philosophie au Moyen Age.
Paris, 1947.

- Gluzot (M.) :**
Histoire de la Civilisation en France
Paris, 1868.
- Harvey. (J.) :**
The Gothic World,
London, 1950
- Haskins (C. H.) :**
The Rise of Universities.
New-York, 1923.
- Haskins (C. H.) :**
Studies in Mediaeval Culture,
Oxford, 1929.
- Haskins (C. H.) :**
The Renaissance of the Twelfth Century.
Cambridge, 1928,
- Hearnshaw (F. J. C.) :**
Medieval Contributions to Modern Civilisation.
London, 1921.
- Hearnshaw (F. J. C.) :**
The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval
Thinkers
London, 1921.
- Hearnshaw (F. J. C.) :**
Some Great Political Idealists of the Christian Era.
London, 1937.
- Heaton, (H.) :**
Economic History of Europe
New-York, 1948.
- Howell-Smith (A. D.) :**
Thou Art Peter.
A History of Roman Catholic Doctrine and Practice.
London, 1950.
- John R. Williams**
The Cathedral School of Reims in the Eleventh Century.
[Speculum-A Journal of Mediaeval Studies, vol, XXIX, 1954.]
- Kantorowicz (E.) :**
Frederick the Second,
London, 1931.
- Lanson (G.) :**
Histoire de la Littérature Française.
Paris, 1916.

— 309 —

- Lavisse (E.) :**
Histoire de France.
 Paris, 1911.
- Lethaby (W.R.) :**
Medieval Art.
 London, 1949.
- Lodge (R.) :**
The Close of the Middle Ages,
 London, 1922,
- Mâle (E.) :**
Religious Art.
 New York, 1949.
- Mâle (E.) :**
Histoire Generale de l'Art (2 vols.).
 Paris, 1949.
- Morey (C. R.) :**
Medieval Art.
 New York, 1942.
- Painter (S.) :**
A History of the Middle Ages.
 New York, 1954.
- Painter (S.) :**
Medieval Society.
 New-York, 1955.
- Paris (G.) :**
Esquisse Historique de la Littérature Française au Moyen Age.
 Paris, 1907.
- Pirenne (H.) :**
Medieval Cities.
 Princeton, 1939,
- Pirenne (H.) :**
Economic and Social History of Medieval Europe.
 London, 1947.
- Pirenne (H.), Cohen (G), Focillon (H.):**
La Civilisation Occidentale au Moyen Age du VI au Milieu du
XV Siècle,
 Paris, 1933,
- Pirenne (H.), Renaudet (A.), Perroy (E.), Handelsman (M.);**
Halphen (L.) :
La Fin du Moyen Age (2 vols),
 Paris, 1931.

Peale (R.L.)

Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning.
London, 1920.

Ramnaud (A.) :

Histoire de la Russie depuis les Origines jusqu'à l'année 1877.
Paris, 1877.

Rashdall (H.) :

The Universities of Europe in the Middle Ages. (3 vols.).
Oxford, 1951.

Renouard (Y.) :

Histoire Ecclesiastique du Moyen Age.
(Revue Historique; T.CCV; 1951 & T. CC VII 1952).

Simpson (F. M.) :

A History of Architectural Development (3 vols.)
Aberdeen, 1939.

Singer (C.) :

From Magic to Science,
London, 1928.

Stephenson (C.) :

Mediaeval History.
New York, 1942.

Stephenson (C.) :

Mediaeval Feudalism.
New York, 1942.

Stubbs :

Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History
Oxford, 1900.

Symonds (J. A.) :

Renaissance in Italy (7 vols.)
London 1928.

Symonds (J. A.) :

Wine, Women and Songs.
London 1931.

Taylor (H. O.) :

The Mediaeval Mind (2 vols.)
London, 1930.

Thompson (J. W.) :

The Middle Ages (2 vols.).
London, 1931.

- Thorndike (L.) :**
A History of Magic and Experimental Science (2 vols.)
New York 1929.
- Ullmann (W.):**
The Growth of Papal Government in the Middle Ages.
London, 1955.
- Ullmann (W.) :**
Medieval Papalism.
London, 1948.
- Vasiliev (A.A.) :**
Histoire de l'Empire Byzantine (2 vol,)
Paris, 1932.
- Vinogradoff (P.) :**
Roman Law in Mediaeval Europe,
London, 1909.
- Waddell (H.) :**
Mediaeval Latin Lyrics.
London, 1942.
- Waddell (H.) :**
Poetry in the Dark Ages.
Glasgow, 1948.
- Waddell (H.) :**
The Wandering Scholars.
London, 1930.
- Workman (H B.) :**
The Evolution of the Monastic Ideal.
London, 1927.
- The Cambridge Medieval History (8 vols.)
Cambridge, 1936.
- The Cambridge Modern History (vol. 1).
Cambridge, 1907.

* * *

برتراند رسل :

تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثاني) ترجمه إلى العربية
الدكتور زكي نجيب محمود

(القاهرة ١٩٥٦) .

حسن عثمان :

سافونارولا

(القاهرة ١٩٤٧) .

— ٣١٢ —

- سعيد عبد الفتاح عاشور :
أوروبا المصور الوسطى — الجزء الأول
(القاهرة ١٩٥٨) .
- سعيد عبد الفتاح عاشور :
الجامعات الأوروبية في المصور الوسطى
(القاهرة ١٩٥٩) .
- محمد مصطفى زيادة :
الإقطاع والمصور الوسطى بغرب أوروبا
(القاهرة ١٩٥٨) .
- يوسف كرم :
تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط
(القاهرة ١٩٤٦) .
-

فهرس الموضوعات

منحة

الباب الأول — النظم الدينية ١

البابوية ونظمها (ص ١) — المجامع الكنسية (ص ١٠) —

التنظيم الكنسى (ص ١٥) — التنظيمات الديرية (ص ٢٦) —

الحياة الديرية أواخر العصور الوسطى (ص ٤٠) .

الباب الثانى — النظام الإقطاعى ٤٣

نشأة النظام الإقطاعى وتطوره (ص ٤٣) — الحقوق والواجبات

الإقطاعية (ص ٥٠) — خصائص النظام الإقطاعى وأثره (ص ٥٧) .

الباب الثالث — المجتمع الأوروبى فى ظل النظام الإقطاعى ٦٣

المجتمع الحربى والفروسية (ص ٦٣) — المجتمع الزراعى ونظام

الضبعة (ص ٧١) — مركز المرأة فى المجتمع (ص ٨٩) .

الباب الرابع — المدن والتجارة ٩٢

إحياء المدن والتجارة (ص ٩٢) — القومونات (ص ١٠٥) —

النقابات (ص ١٠٧) — طرق النقل (ص ١١١) — الأسواق

(ص ١١٧) -- نشأة المصارف (ص ١٢٠) .

الباب الخامس — التعليم والمدارس والجامعات ١٢٣

التعليم فى أوائل العصور الوسطى (ص ١٢٣) — شارلمان والعناية

بالتعليم (ص ١٢٧) — المدارس الديرية (ص ١٣١) — المدارس

الأسقفية أو الكتدرائية (ص ١٣٤) — الجامعات (ص ١٣٦) .

صفحة

الباب السادس — الفلسفة ١٥١

دينسيوس الأريوباغي (ص ١٥٢) — القديس أوغسطين
(ص ١٥٤) — بيوثيوس (ص ١٥٦) — الفلسفة المدرسية
(ص ١٥٧) — يوحنا سكوت اريجينا (ص ١٥٨) — مشكلة
الكليات (ص ١٦٠) — الفلسفة في القرن العاشر ، البابا سلفستر
الثاني (١٦١) — الفلسفة في القرن الحادى عشر (ص ١٦١) —
المذهب الإسمى ، روسلينوس (ص ١٦٢) — القديس انسلم
(ص ١٦٣) — القرن الثانى عشر ، مدرسة شارتر (ص ١٦٥) —
ازدهار الفلسفة المدرسية في القرن الثالث عشر (ص ١٦٨) —
ألبرت الكبير (ص ١٧٤) — القديس توما الأكويني (ص ١٧٥)
يوحنا دونس سكوت (ص ١٧٩) -- انحلال الفلسفة المدرسية
في القرن الرابع عشر (ص ١٨١) .

الباب السابع — الفكر السياسى والنشاط التشريعى ١٨٤

مميزات الفكر السياسى في العصور الوسطى (ص ١٨٤) — الرق
(ص ١٩٠) — الملكية الفردية (ص ١٩١) — الدولة (ص ١٩٣) --
القانون الرومانى (ص ١٩٩) — القانون الكنسى (ص ٢٠٥) —

الباب الثامن ٢٠٩

التطور العلمى في فجر العصور الوسطى (ص ٢٠٩) — وصول علوم
العرب إلى غرب أوربا ((ص ٢١٢) — ازدهار العلوم في غرب
أوربا (ص ٢١٩) .

الباب التاسع — الآداب ٢٢٤

التطور الأدبى واللغوى في فجر العصور الوسطى (ص ٢٢٤) —
أكهضة الكارولنجية (ص ٢٣٣) — القرن العاشر (ص ٢٣٧) —

صفحة

القرن الحادى عشر (ص ٢٣٩) — القرن الثانى (ص ٢٤٠) —
 الآداب الشعبية والمحلية (ص ٢٤٥) — الملاحم (ص ٢٤٧) —
 التروبادور والشعر الغنائى (ص ٢٥٠) — الشعر القصصى والتمثيلى
 (ص ٢٥١) — إيطاليا ودانتى (ص ٢٥٢) .

الباب العاشر — الفنون ٢٥٥
 فن العمارة (ص ٢٥٦) — فن العمارة البيزنطى (ص ٢٥٧) —
 الكنائس البازيليكية (ص ٢٥٩) — فن العمارة فى الغرب فى
 العصور الظلمة (ص ٢٦١) — الطراز الرومانسكى (ص ٢٦٤) —
 الفن القوطى (ص ٢٧٠) — فن التصوير والزخرفة (ص ٢٧٧)
 — فن النحت (ص ٢٨١) .

الباب الحادى عشر — إيطاليا والنهضة ٢٨٥
 أوربا بين عصرين (ص ٢٨٥) — إيطاليا وحركة النهضة
 (ص ٢٨٩) — النهضة الأدبية (ص ٢٩٢) — النهضة الفنية
 (ص ٢٩٦) — أثر حركة النهضة (ص ٣٠٤) .

المراجع ٣٠٦

فهرس الصور والنسوم

٢٥٩	مسقط رأسى فى كنيسة أيا صوفيا
٢٦١	قطاع أفقى فى كنيسة بازيليكية
٢٦١	قطاع رأسى فى كنيسة بازيليكية
٢٦٢	قصر آخن من الداخل والخارج
٢٦٧	كيفية إقامة السقف الحجرى على شكل أقواس تحملها عمد
٢٦٩	كنيسة ييزا وبرجها المائل
٢٧٢	نماذج لنوافذ قوطية
٢٧٤	واجهة كنيسة قوطية
٢٧٥	نماذج لتيجان أعمدة قوطية
٢٧٦	رسم تخطيطى لسكندراثة سالبورى
٢٨٠	نموذج لزخارف نافذة قوطية من الزجاج المعشق بالرصاص
٢٩٨	صورة بالفرسكو لخلق آدم من عصر النهضة
٣٠٤	كنيسة فلورنسا من الداخل

تصويبات الجزء الأول

أفلتت عند مراجعة تجارب الجزء الأول من هذا الكتاب أثناء الطبع بضعة أخطاء ،
يمكن لقارئ التاريخ تداركها في سهولة . وحسبى أن أشير إلى أهمها :

الصفحة	السطر	الصيغة المراد إثباتها
٨	١٦	أسرة تيودور
٢٩	٦	بعد أن أدى
٧٠	١٥	الوجهة القانونية
٧٤	١٦	تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين
١٠٦	٨	تسع سنوات
١٠٩	١٩	كما صد سنة ٧٤٨
١٣٦	١٧	أجيولف سنة ٥٩٨
١٤٢	١٠-٩	اقيم بروفانس (٧٣٦ - ٧٣٧)
١٥٧	١٣	المصريين والغربيين .
١٥٨	١	نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب
١٦٦	٤	مرتبطا بالملوك وإنما برؤساء البلاط
١٦٦	٢٠	مقيادة عبد الرحمن الغافقى
٢٠٤	٤	ثم لم تلبث
٢٢٤	١	(٩٨٧ - ١١٠٨)
٢٥١	٢٠	ذلك أن فيلب الرابع حرّم
٢٥٣	١٧	ثم أخذوا يبسطون
٢٥٨	٣	بعد وفاة شارل الرابع
٢٨٢	٤	حفيد ابنة أوتو الأول
٣٢٧	٢	حزب رودلف من السكسون
٣٦٦	١٧	فيما بينها سنة ١٢٣٢
٤٦٠	٢١	سلج مارسل
٥١٢	١٦	ألفونس التاسع
٦٣٣	١	٧٩٩ - ١٠٣٨ القديس ستفن

الكتاب التالى

للمؤلف

تاريخ الحروب الصليبية

- * دراسة علمية عميقة تعتمد على مجموعة ضخمة من الحوليات والوثائق والمراجع المعاصرة ، شرقية وغربية .
- * تتناول تاريخ الفكرة الصليبية وتطورها وأدوارها حتى نهاية العصور الوسطى .
- * عدد كبير من الملاحق والخرائط والجداول التاريخية .

